عبد الرشيد محمودي
بعد القهوة
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب

بعد القهـــوة

رواية

عبد الرشيد محمودي

بعد القهوة: رواية/عبد الرشيد محمودي. ط2.

- القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2013.

424 ص؛ 20 سم.

تدمك :9789772933

1- القصص العربية.

أ - العنوان . 813

رقم الإيداع : 2012/ 21389

©

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : جمادى الأولى 1434 هـ - أبريل 2013 م

الطبعة الثانية : رمضان 1434 هـ - أغسطس 2013 م

مكتبة الدار العربية للكتاب

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الدار العربية للكتاب، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

بعد القهـــــوة

رواية

عبد الرشيد الصادق محمودي

مكتبة الدار العربية للكتاب

قاتلة الذئب

تقلب خليل أمام دكانه المواجه للترعة وهش ذبابة تلح على أنفه وعاد إلى النوم. النسيم يلعب بذيل جلبابه كأنما يريد أن يرفعه ويطير به، ولم يفسد تلك الراحة إلا ضجة - صراخ وضحك ونباح - من جهة الترعة. هناك مجموعة من الصبية يعبرون الترعة عدوا من «البر دكهه» ومعهم كلب أسود يحتج على اندفاعهم نحو الماء بدونه. كانوا يريدون الإفلات بسرعة بما غنموا من أرض الصعايدة: البلح، والتين الشوكي، والبوص. انتفض خليل عندما بلغته أصوات الصبية، وتبدد عنه النوم تماما عندما جاء صوت أذان العصر من الطرف الأقصى للقرية. شعر عندئذ كما لو أن يدا قوية تهزه كي ينهض ويذهب إلى الجامع لصلاة العصر حاضرا غير أنه لم ينهض. «أبناء العفاريت» في حالة عظيمة من النشاط، في حين أن العفاريت عند انتهاء ساعة الظهيرة الحارقة تصاب بالفزع وتهرع إلى مخابئها. وهو لا يشعر برغبة في وضوء أو صلاة بعد ما حدث. يتمنى لو أنه نام فلم يستيقظ. لا يشعر برغبة في الكلام، أي كلام. ولم يعد لدى زبائنه ما يقولون له. يأخذ الواحد منهم ما يريد وينصرف على الفور. لم يعد أحد يأتي ليفترش الأرض أمام الدكان للعب الكوتشينة وشرب الشاي وتدخين المعسل. انتهى كل ذلك وخيرا فعلوا. ولكنه يرى في عيون الناس سؤالا واحدا - عن أخته - لا يجرؤ أحد على النطق به: «فين راحت زكية؟». وهو نفسه لا يستطيع أن يواجه أحدا. كلما جاء زبون طأطأ رأسه - هو الذي يخشى الناس بأسه. أصبح مكسورا تحت وطأة الشعور بالعار والعجز عن عمل شيء. «وإيه فايدة الدكان والبيع والشرا لما

الواحد مش جادر يكلم حد؟ مش أحسن الواحد يجعد في البيت وما يوريش وشه لحد؟». وعندما نهض أخيرا ليغلق الدكان تساءل: «وإيه فايدة الجعاد في البيت؟ طيب أروح فين يعني؟ ما فيش غير ابراهيم ابو حسين».

ومر بنفيسة. كانت العجوز أمام بيتها تطارد دجاجاتها بمقشة - قنو نخلة جاف - لتبيتها. ليس من عادتها أن تفعل ذلك قبل غروب الشمس، ولكنها قررت في هذا اليوم أن تبكر. ومر بها خليل فأشاح بوجهه عنها ولم يحيها. أصبح يكرهها لأن أخته تتردد على بيتها وتخدمها مجانا. ونادته نفيسة: «سلامتك يا خليل»، فلم يرد. وبعد أن ابتعد قالت: «حملك تجيل يا ولدي. الله يكون في عونك يا حبيبي». ومع ذلك فقد حز في نفسها أنه تجاهلها، إنها لا تستحق منه ذلك. ما حدث حدث ولا ذنب لها فيه. منذ قليل مر بها مدحت مع كلبه ورفاقه. جاءوا من الضفة الأخرى للترعة يشهرون عصيا من البوص، فنادته: «تعال يا حبة جلبي. هات بوسه لستك يا حبيبي». ولكنه توقف ليقول بأنفة: «آني ما ببوسشي العواجيز». قالت: «يا واد تعال خليك حنين. دا أنا ستك حبيبتك». فأجاب: «لما تخلعي شنفك». وهزت رأسها: «المفعوص سنه خمس سنين؛ لكن تجول خلفة عفاريت؟ الله يرحم أمك وأبوك يا مدحت». وتنهدت: «لكن نرجع ونجول: ومين بيحب العواجيز؟».

هي آخر من تبقى من جيل الأجداد. كانت معززة مكرمة في بيت زينب زوجة أخيها. فلما توفيت زينب انتقلت لتعيش مع فاطمة ابنة بنت عم زينب إلى أن بدأت تضيق بمعاملة بناتها. «زي مدحت شنفي مش عاجب البنات: إيه يا ستي اللي مدلدل من

منخارك ده؟ ده ما عادشي حد بيلبسه». والوشم المرسوم على ذقنها لا يعجبهن. ولا تنجو من تعليقاتهن كلما تفوهت بكلمة: «ستي ما بتبطلشي كلام»، أو - وهو الأسوأ - «ستي بدأت تخرف». يحبون طهيها، يلتهمونه، أي نعم - كل الوصفات القديمة التي تحملها في صدرها - ولكن لا يريدون لها أن تتكلم. كلفتها الأم بتعليم كبراهن أصول الطهي استعدادا للزواج، فهل تتحمل سعدية تعليماتها ونصائحها؟: «يا ستي كسرتي دماغي عن مية الرز لإن طبخ الرز علامة الطباخه الشاطره، وتسبيك صلصة الطماطم اللي لازم تكون موزونه. يعني هو العريس هيهمه زيك؟ ما ياكل اللي بعمله وهوه ساكت». وفي البداية كانت فاطمة تنهر بناتها، ولكنها تغيرت؛ أصبحت بالتدريج تسمع تعليقاتهن وتسكت لأنها ضاقت بكثرة أحاديث نفيسة عن ابنها الغائب، بل وكثرة مخاطبتها له. إذا أوجعتها ذكراه انصرفت عن المستمعين، وأخذت تناجيه وتتوسل إليه أن يعود. ولما تخلت عنها فاطمة لملمت حاجياتها وانتقلت إلى هذا البيت الذي يدير ظهره للقرية ويواجه السكة الزراعية. هنا لا يحق لأحد أن يشكو منها، وتستطيع أن تقضي السنوات المتبقية من العمر في راحة البال، وهنا تستطيع انتظار الحبيب الغائب.

ثلاثون عاما مضت منذ سيق هاشم إلى سجن المديرية. يقال إن البوليس اهتدى إليه هو وسائر أفراد العصابة لأن أحدهم ترك أثناء الفرار فردة بلغته فدلت كلب البوليس عليهم. وقد شهدت عودة أحدهم - موسى أبو مصطفى. نزل من بوكس البوليس يسنده شرطيان لأنه لا يستطيع السير وحده. عاد بعد خمسة عشر عاما من الحبس. ولم تطل فرحة زوجته وأبنائه بعودته. وما إن وصل إلى البيت حتى رقد، ولم ينهض. لم يمض أكثر من أسبوع

بين أهله قبل أن يتوفاه الله. عندما رأته ينزل من البوكس أدركت قرب أجله، هي التي شهدت احتضار الصغار والكبار وأصبحت تعرف جيدا معنى ذلك الشحوب. أما هاشم، فلم يعد رغم انتهاء المدة. يقال إنه فر من السجن وغادر البلاد إلى فلسطين. ويقال إنه شوهد مرات وهو يحوم في الحقول على الضفة الأخرى من الترعة بالقرب من عزبة الصعايدة. فلماذا لا يعود إلى بيته: «ليه يا هاشم ما ترجعشي لبيتك؟». وهي تذكر حياته منذ ولد، وتذكر يوم خطبت له، وكيف كانت تتعجل زواجه حتى تسعد بذريته هو ابنها الوحيد. وهي تتحدث عن كل تلك المناسبات وكأنها حدثت أمس. لم تنس من تفاصيلها شيئا. فهي تذكر موقع المناسبة من اليوم، وموقع اليوم من فصول السنة، وما أعدت للمناسبة من ألوان الطعام، ولون ريش الدجاج الذي ذبحته للاحتفال. فتقاطعها إحدى بنات فاطمة: «يعني لازم يا ستي تجولي كل حاجه؟ لازم تجيبي سيرة الديك اللي دبحتيه للضيوف، وازاي كان تجيل وريشه أسود وعرفه كبير؟». لا يريد أحد أن يستمع لأحزانها.

منذ أن صارت وحدها، أصبح النهار طويلا والليل أطول. قل قدوم الناس لزيارتها. بدأ أهلها ينسونها. لم يعد زكي يتردد عليها. كان يأتي بعد نومة القيلولة وصلاة العصر يسألها إن كان عندها حاجة ليبل بها ريقه، فكانت تأتيه - كما يريد - برغيف الخبز المسخن وقلة الملح المجروش والفلفل الحامي. زكي هو الوحيد الذي ما زال وفيا لأيام زمان، وهو الوحيد الذي ما زال «جلبه ع الكل». ولكنها لا تدري ماذا جرى له مؤخرا. قلّت زياراته، وهو إذا أتى يمر عابرا وعلى وجهه علامات الهم. ولم يبق من أهلها الذين يودونها إلا سلامة: «ربنا يطول عمره وينجيه من المخاطر». يزرع لها أرضها ويرضى بنصيبه من المحصول -

الربع - ولا يرفض لها طلبا. ويساعدها على بيع نصيبها من المحصول، ويأتي لها بكل ما تحتاجه من سوق الأربعاء، أو سوق الإثنين. «جدع وشهم وجلبه طيب، لكن إيه المصيبه اللي حصلت له دي؟». ولم يبق إلا زكية - بنت البحاروة - التي تساعدها على قضاء حاجيات البيت مثل العجين والخبيز والغسيل. هداية الرحمن، تفعل كل ذلك بلا أجر رغم أن البحاروة معروفون بالبخل. ثم يشاء الواحد الأحد أن تقع لها هذه المصيبة مع سلامة. أصبحت تخشى على سلامة وزكية سوء الحظ كما حدث لهاشم - كان طيبا وشهما وعلى نياته، ومع ذلك نكبه الله جلت حكمته - وكما حدث لأمين أصغر أبناء زينب وأحسنهم طلعة «زينة الشباب تتمناه كل بنت في الجيره» إلى أن أغواه أولاد الحرام وعودوه على «شم البودره» ومات في إحدى تلك الجلسات. لقد رأت على مر السنين أن المصائب لا تتذكر إلا الطيبين. هاشم لم يقتل أحدا، ولم يكن في نية أحد أن يقتل: «شباب طايش ولعب بعجله الشيطان. ربنا يجازي شيخ المنسر اللي ودا ولاد الناس في داهيه وهو نايم في البيت، وفي الآخر طلع م المصيبه زي الشعره م العجين». كانوا يريدون السطو على بيت إحدى الأرامل في نزلة علوان لسرقة ما لديها من فضيات، فلما استيقظت واشتبكت مع أحدهم، طعنها بسكين. ضربة لم تكن مقصودة. ولكن هاشم لم يعتد على أحد. لم يشتبك مع أحد. لم يدخل البيت أصلا. كان يقف على رأس الطريق ليصفر إذا رأى أحدا يقترب. وأخذت تعدد: «ليه يا بن الأكابر تعمل كده؟ هو انت لازملك دهب ولّا فضه؟ دا انت اللي عندك واهبه للناس؟ ليه ما ترجعشي بيتك يا خويا؟ جلبي تعب م الانتظار يا هاشم. بيجولوا انك بتيجي بالليل في البر دكهه. طيب حوّد يا خويا، جول أشوف أمي اللي ما عادشي في عينها دموع. ما فيش بيني وبينك غير الترعه يا هاشم.. تجدر

تعدي الميه ماشي.. دول خطوتين يا نور عيني». وعندما تمكنت من إدخال آخر دجاجة، أغلقت بابها بالضبة والمفتاح.

* * *

كان الحاج زكي هو أول من ظهر عندما بدأ المصلون يتوافدون على الجامع تلبية لأذان العصر. دار حول الجامع يتفقد أحوال المبنى حتى وصل إلى الباب الخلفي، وزم شفتيه علامة على الاستياء. ما زال أخوه يرفع الماء من بئر الجامع ليغذي المغطس والميضأة والمراحيض، ويرفع الأذان في مواعيده بصوت قوي يعبر الترعة ويسمعه سكان عزبة الصعايدة، صوت جميل تخشع له القلوب. ولكنه أصبح يسبب له ضيقا في صدره. والمبنى في حالة يرثى لها، الجدار المجاور للبئر فيه شقوق كبيرة تنذر بالتصدع، وهو في حاجة ماسة إلى الترميم. يستغيث بالمؤمنين أن ينقذوا جامعهم قبل الانهيار، ولكن لا أحد من أولاد قاسم ولا من أبناء البحاروة يريد أن يسمع صوت الاستغاثة. لا أحد يريد أن يخرج من كيسه قرشا يساهم به في إصلاح بيت الله. يريدون له أن يتحمل العبء وحده كما كان يفعل في الماضي، ولكنه لم يعد قادرا على ذلك. الجامع عتيق بني في عصر جده، وتعهده أبوه طيلة حياته بالرعاية والصيانة. أما الباقون، فقد غلظت قلوبهم وضعف إيمانهم. تنهد. كان أهل القرى المجاورة يأتون لأداء صلاة الجمعة ثم انقطعوا إلا في القليل النادر. تذكر في أسى كيف كان يدعوهم جماعة بعد انتهاء الصلاة إلى «الصيرة» ويخرج لهم الغداء: العدس في الشتاء، والأرز باللبن في الصيف. كان ذلك في أيام الخير. يقال في المثل: «بصلة المحب خروف»، ولكن المحب لم يعد لديه خراف ولا بصل.

وتوقف ليطرد الصبية الذين تجمعوا عند الباب الخلفي للجامع. كانوا يحملون عصيا من البوص، وكان بعضهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم. وتحركوا إلا اثنين منهم، مدحت وكلبه الأسود. وقف متسمرا أمام الباب مادًّا بصره إلى الركن الأقصى من الجامع. هناك صندوق مستطيل من الخشب يقف على قوائم أربع؛ يسمونه «النعش». يراه دائما في موضعه ذلك إلا أن يخرجه الرجال بين حين وآخر ليحملوا فيه أحدًا إلى مكان بعيد لا عودة منه. حدث ذلك عندما حملوا أمه وعندما حملوا جدته تحت ملاءة بيضاء ترفرف في الهواء. ولم يكن يدري معنى كل ذلك لولا أنه كان يتعجب لأن أمه لم تعد من ذلك المكان البعيد، كلا ولم تعد جدته. يسأل ناعسة: «فين أمي يا ناعسه؟»؛ فتقول: «راحت السوج تجيب لك حلاوه ورغيفين من عيش البندر». ويسألها: «وفين ستي؟»، فتقول: «راحت تزور جرايبها في الحسينيه». وكم تصبّر حتى تعود الأم بالحلاوة والعيش الخاص. وكم تصبّر حتى تعود جدته من زيارتها لأقاربها. ولكنه الآن يدرك أن ناعسة تكذب، وأن من يُحمل في ذلك الصندوق لا يعود. هذا هو المكان البعيد الذي يسمونه «الموت». وشده أحد رفاقه من ذراعه، وضربه آخر على كتفه بعصاه، فلم يتحرك. كانوا يلوحون بعصيهم في حماس لأنهم في طريقهم إلى الحرب.. مهمتهم في هذه الساعة من النهار قتال الزنابير التي تبني أعشاشها في القش والحطب فوق أسقف البيوت. ولا يردعهم عن القتال أن الزنابير تدافع عن بيوتها بشراسة وتتمكن من إيقاع بعض الإصابات البالغة بالمهاجمين - وبخاصة العراة منهم - فلسعات الزنابير شديدة الإيلام. ولم يبرح الطفل مكانه إلى أن وضع الحاج زكي يده على كتفه: «مش عيب يا مدحت تمشي عريان كده؟» فأجاب مدحت: «سبنا هدومنا عند الترعه. طرنا جري لما كلاب

الصعايده هجمت علينا». فقال زكي: «طيب اتفضلوا امشوا من هنا. مع السلامه».

وأقبل الشيخان - حامد وسيد - ولما رأيا الحاج زكي تنحيا له عن إمامة الصلاة؛ لا لأنه أكثرهم علما - فهو لم يطلب العلم مثلهما في الأزهر - ولا لأنه أكبرهم سنا، فهو يصغرهما كليهما. ولكنهما يعترفان بمكانته. ولولا وجوده لتنافسا على إمامة الصلاة، وربما انحاز بعض المصلين لهذا أو لذاك، فلكل منهما أنصاره. أولهما جاور في الأزهر الشريف سنوات لا يعلم عددها إلا الله دون أن يحصل على شهادة العالمية. أما ثانيهما فلم يقض إلا خمس سنوات في المعهد الديني في الزقازيق. والشيخ سيد يرى ويرى معه أنصاره أنه وهو الأكثر علما أولى بإمامة الصلاة، ولكن الشيخ حامد يرى ويرى معه أنصاره أن الصلاة وراء الشيخ سيد محنة مرهقة. فهو لا يفتأ يتلجلج ويفأفئ ويصدر بين الحين والآخر صوتا وسطا بين الرشف واللهط، فيعيد تلاوة العبارة أو الكلمة المستعصية مرة بعد مرة حتى تستقيم له. ووسواس الشيخ سيد يغري الصبية في الصفوف الخلفية بالضحك والتلاكز وبما هو أسوأ. أما الشيخ حامد، فإنه يتميز بحضور البديهة وطلاقة اللسان؛ والمهم أنه ينجز الصلاة قبل أن ينفد صبر المصلين - علما بأن بعضهم يريد أن يؤدي الفريضة «خطفا» - ولا يترك مجالا لإبليس كي يندس بين صفوفهم ويصرفهم عن الخشوع وهم وقوف بين يدي الله.

فإذا ظهر الحاج زكي انتهى الخلاف واجتمعت الكلمة وعمت الطمأنينة وأديت الصلاة كما ينبغي لها أن تؤدى. حتى شبانة الذي لا ينجو أحد من سخريته في مجلس الجرن يقول: «سعد باشا

والنحاس باشا زعيما الأمة بالانتخاب، أما ابن عمي زكي، فهو رئيس ولاد جاسم بدون انتخاب ولا مرسوم ملكي». ولكن هذه الرئاسة التي آلت إليه بدون انتخابات لم تعد تسره؛ فلم يعد قادرا على تحمل أعبائها. آلت إليه دون أن يريدها؛ بل ودون أن يريدها له أحد. هي مشيئة الله. كل ما هنالك أنه كان يقوم بالواجب حتى في حياة أبيه: يستقبل الضيوف ويكرمهم وينوب عن أبيه أحيانا في فض النزاعات. ولكنه لم يعد قادرا على ذلك، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ونادى في المصلين أن استقيموا يرحمكم الله، فانتظمت الصفوف من خلفه. ما زالت هناك بقية من الاحترام، لن يتذمر أحد، ولن يدب الخلاف، ولن يتلاكز الصبية في الصفوف الخلفية ويتضاحكوا إذا طالت الصلاة. الجميع إذن خاشعون بين يدي الملك القدوس. ولكن المصيبة هي أنه هو نفسه لم يعد قادرا على التركيز والخشوع. لا يكاد يتلو آية من آيات القرآن حتى يتشتت ذهنه ويحاول أن يتذكر الآية التالية فلا تواتيه إلا بعد جهد جهيد. بين الآية والآية فجوة من الصمت، فجوة من الظلام. بين الآية والآية يبرز الرعب. وفي الفترة الأخيرة - منذ تشاجر مع أخيه - تزايد طول الفجوات. وإذا استمر الوضع على هذه الحال، فسينفض الناس من حوله. وهناك شبانة في مجلس الجرن، لن ينجو من سخريته إذا بان للناس أمره. والرعب مستقر في أعماقه يظهر أثناء الصلاة وما إن يضع رأسه على الوسادة، وعندما يرى أخاه. وهناك عبارة تريد أن تنطلق من أعماق نفسه نحو فمه على شكل صرخة ولكنها تتوقف في حلقه. وهناك كلام يريد أن يرفعه إلى الذي لا يخفى عليه شيء، ولكنه يعجز عن الكلام.

* * *

قرية القواسمة (أولاد قاسم) هذه غريبة تحيط بها الأسرار من كل جانب. بئر الجامع فيما يعتقد معظم الأهالي مسكونة بالجان. وفي مغطس الجامع فيما يقال ثعبان أسود ذو قرنين يقوم على حراسته. ويدعي الشيخ سيد أن «العدو» يمد يده فيزغده في جنبه الأيمن وهو يتهجد في الجامع ليلا. يريد العدو أن يفسد صلاته. وفيما وراء الحقول التي تمتد جنوبي الجامع توجد بركة آسنة تعلو ماءها الطحالب، ويحاول الناس السير على مسافة منها، لأنها فيما يقال عميقة بلا قرار وتسكنها فئات شتى من الغيلان. فيا ويل من تزل به قدمه فيقع فيها! والطريق الرئيسية التي تشق القرية بالطول إلى نصفين تنتهي إلى السكة الزراعية فالترعة. وتلك هي حدود القرية الشمالية. ولكن توجد فيما وراء هذه الحدود الضفة الأخرى للترعة («البر دكهه»). ويسكن ذلك البر بشر هم الصعايدة، وبين الصعايدة وأهل القرية معاملات وزيارات متبادلة. بل إن أطفال القرية ينتقلون بسهولة إلى الضفة الأخرى سيرا على الأقدام إذا كانت المياه ضحلة - فاتساع الترعة لا يتجاوز أربعة أمتار - أو سباحة في أيام الفيضان، ويتسلقون نخيل الصعايدة ليسرقوا ثماره في موسم البلح، وليقطعوا أعواد البوص المنتشر عبر الترعة لاستخدامه حرابا في قتال الزنابير ولصناعة أقلام البسط في الكتاب. ومع ذلك فإن هؤلاء الغلمان يشعرون بهيبة إزاء «البر دكهه» ويعتقدون أن انتقالهم إليه مغامرة ما بعدها مغامرة.

وفي الطرف الغربي من القرية توجد الساقية («الطنبوشه») تظلها الجميزة العجوز وتمد فروعها فوق المدار. وبئر الطنبوشة

مسكونة بدورها وهي مثار لأنواع شتى من الهلع. يقال إن رجلا يدعى عبد الهادي افتتنت به جنية من بنات العالم السفلي عندما كان يروي أرضه ليلا: ظهرت له من البئر وخطبته لنفسها وعرضت عليه أن يهبط معها ليعيش في رغد النعيم بين أهلها فأبى لأنه كان وفيا لزوجته أم عياله. ويقال إنه كان قويا فتصارع معها حتى صرعته. لم تتمكن منه إلا عندما احتضنته وألصقت ثدييها بصدره فاندق فيه من الحلمتين مسماران نفذا إلى قلبه. فمتى كان ذلك؟ وفي أي جيل من الأجيال وجد عبد الهادي؟ وأين زوجته التي خلفها؟ وأين أهله الباقون؟ أسئلة لا يعرف الإجابة عنها أحد. بل إن أحدا من أهل القرية - فيما عدا شبانة في مجلس الجرن - لا يخطر له أن يطرحها. وهناك رواية أخرى عن شاب يدعى عبد السلام راودته الجنية عن نفسه فاختفى معها وهو منذ ذلك الحين يعيش معها في عالمها تحت الأرض. فمن كان أبوه ومن كانت أمه؟ وفي أي زمن عاش؟ أسئلة لا توجد عنها إجابة ولا يثيرها أحد اللهم إلا شبانة على سبيل السخرية من أولاد قاسم وعبطهم. وإذا زلت بالجاموسة قدمها وهي في مدار الطنبوشة فوقعت في البئر كانت تلك علامة شؤم ونذيرا بكوارث كبرى. عندئذ ترتفع أصوات النساء بالصراخ والعويل ويهرع الرجال من أطراف القرية إلى الحيوان المسكين فيحاولون رفعه إن استطاعوا، فإن عجزوا عن إنقاذه أتوا بالسكين وذبحوه في موقعه قبل أن يموت.

والمنطقة المحيطة بالطنبوشة مسكونة. هناك عفريت يظهر للمارة ليلا على شكل حمار ما يزال ظهره يرتفع حتى يتجاوز هامة الجميزة ويبلغ السماء. والآتي من ناحية الغرب ليلا إذا قدر له أن

يرى عفريتا، فالأرجح أن يراه بالقرب من الطنبوشة وشجرة الجميز. فهو يرى عندئذ ذلك الحمار الشيطاني.

ولا يقتصر الأمر على الناحية الغربية من السكة الزراعية، فللناحية الشرقية بدورها قصص غريبة. لا تظهر فيها العفاريت ليلا، ولكن «أمنا الغول» أو «النداهة» قد تظهر فيها في وضح النهار، وبخاصة في ساعة القيلولة. الناس عندئذ نيام. والحيوانات تبدو وكأنها مغمى عليها، فلا تستطيع الجاموسة مثلا أن تهش الذباب القارص بذيلها. والجرن عندئذ فارغ من مرتاديه. ولكن الآتي من سوق المركز يوم الأربعاء قد يكون سيئ الحظ فيأتي في تلك الساعة الشؤم وقد يكون نصف نعسان على ظهر حماره.. وفجأة يسمع نداء النداهة فيفيق، وينصت. وعندئذ يا ويله إذا استجاب؛ فالنداء لا يقاوم.

والدنيا على اتساعها تنقسم إلى قسمين: الأرياف والبندر. والبندر هو عالم الحضارة والترف، وهو ليس المركز القريب، بل وليس هو عاصمة المديرية ولا المدن الإقليمية بصفة عامة، فهذه المناطق تقع بين بين وتقترب من المدنية شيئا ما، ولكنها ليست منها تماما. البندر هو القاهرة وربما الإسكندرية لأن كثيرا من سكانها فيما يقال من الخواجات.

لكن ما سر ولع العفاريت بالحمير؟ طُرح السؤال على شبانة فقال:

- الحمار سهل ركوبه. إذا اللي فايت طاوع الشيطان وركبه راح في داهيه. تمام زي النسوان. توزك المره لغاية ما تركبها فتروح

في نار جهنم، ها ها...

ضحك وضحك المستمعون. كلامه لم يكن يخلو من الخبث. هل كان يشير ضمنا إلى ما حدث لسلامة؟

* * *

خرج الشيخ حامد من الجامع فأسلم يده لابنه كي يسحبه، وكان بصحبته الشيخ سيد الذي يسير كعادته متمايلا يصيخ السمع كيلا يفوته هاتف. وأصابته الدهشة عندما دعاه الشيخ حامد إلى تناول الشاي أمام بيته. كيف يتأتى ذلك؟ حامد ليس معروفا بالكرم. ماذا يريد إذن؟ يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف. حاول أن يتملص دون جدوى، فقد ألح عليه حامد: «يا راجل عيب عليك. إزاي ترفض دعوة أخوك؟». خير اللهم اجعله خيرا. وجلس على مضض، ثم ظهر السبب وبطل العجب عندما بادره حامد - ولما يأت الشاي بعد - بالسؤال: «والله أنا يا شيخ سيد زعلان جوي على حكاية سلامه دي. إيه الأخبار؟ ظهر ولا لسه؟». فأطرق الشيخ سيد برأسه طويلا. وأخرج من عمامته مسلة أخذ يرتق بها بلغته (فهو لا يخرج من بيته إلا مسلحا: تحت إبطه كتاب الشيخ الباجوري في الفقه، وفي عمامته مسلة وإبرة لرتق البلغة أو الجلباب، وما أكثر أعمال الصيانة!). ظهر السبب إذن: الشيخ سيد يريد أن يستدرجه ليتحدث عن ابنه، وهو لا يريد أن يتطرق إلى ذلك الشر المستطير. فتظاهر في بادئ الأمر بأنه لم يسمع السؤال، إلى أن هداه تفكيره بعد غرزة أو غرزتين إلى إلهاء حامد عما يريد. قال:

- ها هو رمضان أصبح على الأبواب، فماذا أنت فاعل؟

- آه. آدي انت جيتني ع الوجيعه. هعمل إيه في رمضان يعني؟ الله أعلم.

وهز رأسه في حزن:

- الله يرحم أيام زمان. أيام الخير ولت يا شيخ سيد. زمان زي ما انت عارف كان الحاج زكي - الله يصلح حاله - بيعزمني أحيي الشهر الفضيل معاه في الصيره. عند أدان المغرب ييجي الفطور. فحدث إذن عن الخيرات: الزفر واللحمه الضاني والمحاشي والفته. خير ما بعده خير. وفي السحور وجبه تانيه استعدادا للصيام. آه. كانت أيام...

قال سيد:

- وبين الإفطار والسحور قصص وروايات وأشعار.

- عداك العيب. جصص وروايات وأشعار. بعد صلاة المغرب لغاية السحور أتلو ربعين أو تلاتة ارباع من القرآن. وبين الربع والربع نجول جصص وشعر. لكن آدي انته زاي ما انته شايف. زكي - الله يعينه ويحسن إليه - ما عادشي جادر بعد ما أخوه خد نصيبه م الأرض وانفصل عنه. بس أني أعمل ايه؟ أبّهات العيال اللي بعلّمهم في الكتاب أصبح الواحد منهم ما يدينيش كيلة الغلة ولّا كيلة الدّره إلا بعد طلوع الروح. عاوزين العيال يتعلموا ببلاش. بالله عليك عمرك شفت مصيبه زي دي؟

وطابت لسيد اللعبة فتمادى فيها:

- إلا بالمناسبه، سمعتك ذات مرة تروي قصة المرأة التي تزوجت الخليفة معاوية بن أبي سفيان. هلا ذكرتني بها؟

وطاب لحامد أن يطلب إليه زميله أن يروي إحدى القصص العزيزة على نفسه، ويا طالما طُلب إليه في السهرة الرمضانية أن يرويها، فتنحنح وقال:

- تجصد ميسون بنت بحدل؟ أما دي مره يا شيخ سيد**!** كانت بديعة الحسن، وتزوجها الخليفة معاوية رضي الله عنه، وأسكنها القصر منعمة مكرمة، ولكنها اشتاقت إلى حياتها في البادية. شوف ازاي بنت الأصول. ودخل عليها الخليفة ذات مرة فسمعها تنشد:

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إليَّ من قصر منيفِ

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إليَّ من لبس الشفوفِ

وأكل كُسيرة من كسر بيتي أحب إليَّ من أكل الرغيفِ

وأصوات الرياح بكل فج أحب إليَّ من نقر الدفوفِ

وكلب ينبح الطراق دوني أحب إليَّ من قط ألوفِ

وخرق من بني عمي نحيف أحب إليَّ من علج عليفِ

خشونة عيشتي في البدو أشهى إلى نفسي من العيش الظريفِ

فما أبغي سوى وطني بديــلا فحسبي ذاك من وطن شريفِ

فطلقها بالثلاثة وأعادها إلى أهلها. بالله عليك عمرك شفت أبدع من كده؟ أو أجمل من سلوك أمير المؤمنين معاوية صاحب رسول الله؟

قال سيد:

- الله يفتح عليك. أمامك العبرة، إذن فاسمع واستجب. قل لي: كيف تروي هذا الشعر الذي يوصي بالتعفف والزهد، ومع ذلك تشكو وتترحم على أيام الزفر والمحاشي؟ أليس الأولى بك يا حامد أن ترضى بما يجود به الله من رزق مهما قل؟

وبهت حامد، ولم يفق من الصدمة إلا بعد لحظات:

- الحمد لله في جميع الأحوال؛ ولكن القليل الباقي لا يسد الرمق. إنت مش واخد بالك. أقسم لك بالله العظيم.. الفيران في البيت

جاعت يا شيخ سيد. حتى الفيران ما فيش أكل تاكله. تجوم تعمل إيه؟ ما عادشي جدامها غير البشر. إمبارح بالليل وأنا نايم واحد منها - الله لا يكسبه - كان هياكل صابع رجلي. صحيت لجيت ابن الحرام بيجرض فيه. وما اخبيش عليك، ما عادشي ليه نفس في الجصص والجصايد. رمضان جاي وما عادشي غير الصيام بالنهار والجوع بالليل. لكن نجول إيه: الشكوى لغير الله مذلة والواحد لازم...

وتوقف فجأة عندما أدرك أن الحديث طال ولم يصل إلى ما يريد، فقال:

- إلا بالمناسبه. إيه آخر الأخبار؟ سلامه لسه ما ظهرش؟

قال الشيخ سيد:

- تسألني عما ظهر وما لم يظهر؛ فأخبرك بما ظهر. كنت أقف ليلة الأمس أمام الجامع عندما رأيت نورا يأتي من ناحية عزبة الصوالحة. كشاف موجه نحونا. وأدركت أن «العدو» يتربص بنا. إبراهيم أبو حسين الذي هو من ذرية إبليس يسلط علينا كشافه، والخطر داهم. واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، ودخلت الجامع. وبينما أنا منصرف إلى الصلاة مد اللعين يده وزغدني في جنبي الأيمن.

قال حامد:

- ولكن إبليس يسكن المراحيض ولا يقترب من المصلى. إيه أخبار سلامه؟

- هو كذلك، ولكنه طويل الذراع؛ يمد يده من المراحيض ليوقع بي الأذى. ألا ترى أن إبراهيم أبو حسين وهو من ذرية إبليس يسكن بعيدا عنا ولكنه يصل إلينا بكشافه؟

وعاد الشيخ سيد إلى الهجوم:

- تعجبني قصة البدوية لأنها تدعو إلى الزهد. أما قصص وأشعار الفسق التي ترويها يا حامد...

وبهت الشيخ حامد مرة أخرى، وقال باستنكار:

- أنا يا راجل يا مفتري أروي جصص الفسق وأشعاره؟

- أراك تكثر من الحديث عن شعراء الغزل وأشعارهم في العشق؛ وفي ذلك مفسدة للشباب.

- صحيح.. بس أنا بحكي جصص الحب العذري.

- الشباب لا يميز بين ما هو عذري وما هو غير عذري. الشباب من نار. أسمعهم قصص العشاق وأشعارهم يشتعلوا. وما رأيك في البنات إذا انتقل إليهن مثل هذا الكلام؟ أنت تفتح مداخل لإبليس.

- يا راجل يا ظالم!

- أنا لا أظلمك. ما رأيك فيما حدث لابني سلامه مع بنت البحاروه؟ ألم يدخل بينهما إبليس بسبب الحب. تبدأ القصة بالحب العذري ثم تنتهي كما تعلم في غيط الدره و...

أخ... ها هو قد ورط نفسه في الحديث عن سلامة ومخازيه. وقرر حامد أن يتغاضى عن التهم التي وجهت إليه ويستغل الفرصة التي سنحت دون قصد لكي يدخل في الموضوع:

- الله يكون في عونك. هوه الولد لسه ما ظهرش؟

ولم يتلق عن سؤاله جوابا، لأن صاحبه عندما وصل إلى تلك النقطة من الحديث - غيط الذرة - أصابه اهتياج شديد وأخذ يتلفت يمنة ويسرة:

- إني أسمع دبيبا من هذه الناحية.

والناحية التي أشار إليها كانت على يمينه. بالفعل كان هناك دبيب، فقد نظر فرأى التراب يتحرك. لقد جاء «العدو» إذن. ها هو يزحف تحت التراب كأنه حية تسعى. ألا يكفيه ما فعل بالليل؟ وبصق على إبليس اللعين وأسرع إلى بلغته فلبسها ومضى مهرولا. انصرف دون أن يصغي لاحتجاج حامد: «انتظر يا راجل. اصبر إن الله مع الصابرين. الشاي جاي في الطريج».

يحاول حامد أن يتقدم عليه، ولكن هيهات! قضى في المعهد الديني بضع سنوات بينما جاور هو في الأزهر ثلاث عشرة سنة. ثلاث عشرة سنة أم أربع عشرة؟ لم يحصل على شهادة العالمية، ولكنه

هو مرجع أهل القرية والقرى المجاورة في الفقه، وهو يرجع دائما إلى الكتب المعتمدة. فماذا يقدم لهم الشيخ حامد؟ لا علم له بالفقه، وهو لا يستند إلى كتاب من كتب الأئمة ويتفوه بما ليس له به علم. بضاعته تقتصر على تحفيظ القرآن في كتابه (ولكنه هو وزوجته يستغلان التلاميذ في القيام بأعمال البيت مثل جمع الحطب والكنس وإطعام العنزة)، وتلاوة القرآن دون إتقان للتجويد، ورواية القصص والأشعار التي تلهي عن شؤون الدين. الصبية والشباب صاروا بسببه عرضة للفساد وصاروا مطمعا للشيطان. يراهم على السكة الزراعية وهم يرقبون البنات في طريقهن إلى الماء. وبعضهم يسير في الطريق مشمرا كمه. وهو ينصحهم برفق ويخبرهم أن كشف الفتى عن ساعده فتنة، ولكن أحدا لا يصغي لنصائحه. وهو ينهر البنات وهن في طريقهن إلى الماء لأنهن يتأودن تحت جرارهن، فلا يجد منهن إلا التضاحك والسخرية. فماذا سيحل بهذه القرية التي أصبح كبارها يغضون الطرف عن هذه الشناعات؟ وأسوأ شبان القرية على الإطلاق ابنه سلامة. لا يعرف معنى للتحشم. يراه أحيانا على الترعة يدير الطنبور وهو في فانلته وسرواله الذي يكشف عن ساقيه. وهو يتسلق النخل دون جلباب ولا يستر عورته سوى سرواله. لو أن أحدا نظر إلى أعلى ورأى ما رأى، لوقع الإثم. وقد أصابه الذعر منذ أيام عندما رأى ابنه يسقي الزرع في الصباح المبكر. كان يقف لا يستر نصفه الأعلى شيء وقدماه مغروستان في الطين. وهي ساعة تمر فيها الفتيات في طريقهن لملء جرارهن من الترعة. فماذا يمكن أن يحدث لهن عندما يتعرضن للفتنة؟ والولد لا يسمع كلامه. أمه دللته، وهو يعلم أنها ستقف إلى جانبه لتحميه من أي تقريع. ثم هذه الفضيحة التي انتشر خبرها في كل مكان. أهل القرية يستفتونه في شؤون الدين، ولكنهم قلما يصغون لما

يقول. والبعض يسخر منه إذا لم تسعفه ذاكرته بجواب عن سؤال وطلب إلى مستفتيه أن يمهله حتى يرجع إلى أقوال العلماء. هم في عجلة من أمرهم يريدون الجواب في كلمة واحدة بدلا من أن يستمعوا إلى المتن والشرح والحاشية حسب الأصول كما تعلم في الأزهر. وهم لا يصدقونه إذا حذرهم من «العدو». يسألونه في خبث: من هو العدو يا شيخ سيد؟ يتظاهرون بأنهم لا يعلمون، وكأنهم لا يعرفون أن للعدو وجهين. فهو أولا مستقر في بئر الجامع ومغطسه. لا يستطيع أن يدخل صحن الجامع حيث تقام الصلاة ويقوم المنبر. ومع ذلك فإن له ذراعا طويلة. أما الوجه الآخر فهو أنه متلبس بإبراهيم أبو حسين في عزبة الصوالحة الذي يرسل على القرية كشافات يستطيع بها أن يرى كل ما يدور ويرسل شره على من يريد. ولا بد أن له يدا فيما حدث لابنه سلامة. وهو يروي لهم ما أحس به في جنبه وما أبصره عند خروجه من الجامع ليلا - أجل فهو يرى الكشافات موجهة مسددة - ولكنهم يتضاحكون. ماذا سيكون مآل هذه القرية التي لا يتنبه أهلها لما يحيط بها من مخاطر؟

******

سار زكي في الطريق الذي يمتد من الجامع إلى السكة الزراعية ويقسم القرية بالطول إلى نصفين. من عادته كل يوم أنه عند الوصول إلى السكة الزراعية ينحرف إلى اليسار فيتجاوز الطنبوشة، فإذا بلغ الجسر المؤدي إلى عزبة الصعايدة في البر دكهه، عاد ليسير في الاتجاه العكسي مارا بدكان خليل إلى أن يبلغ جسرا آخر يؤدي إلى بلدة العمدة. وهو في هذه المسيرة يشرف على العزبة ويتفقد ما يجري فيها. ولكنه اليوم لا يجد في

نفسه رغبة في الإشراف أو التفقد. يشعر أن الزمام أفلت من يده. ولاحظ أن دكان خليل مغلق وأن عمته نفيسة أغلقت بابها، ولم يكن هناك أحد على الترعة، وتوقف طويلا تحت الجميزة التي تظلل الطنبوشة، وتنهد. كان في السادسة عشرة من عمره عندما قالت له أمه:

- والله كبرت يا زكي وبجيت راجل. لكن ليه مش عاوز تفرح أمك؟

- لسه بدري ع الجواز يا امه.

- جواز إيه يا واد؟ أنا كلمتك عن الجواز؟ أنا بكلمك عن الضيوف.

- ضيوف إيه يا امه؟

- مش تسترجل كده وترجع البيت معاك ضيف ولَّا ضيفين؟

- البركه في أبويا يا امه.

- إحنا ما لنا ومال أبوك؟ فين ضيوفك إنت؟

- عاوزاني ألم ضيوف من ع السكه الزراعيه؟

- ليه لأ؟ أي واحد يرمي عليك السلام امسك فيه واحلف عليه وهاته ع البيت ولَّا ع الصيره. جول له اتفضل. وخد حماره اربطه وهات له العلف. وتعال لامك وجول لها: «جومي يا امه

اطبخي» إن شا الله تكون الساعه عشره بالليل. ده يكون يوم الهنا. يومها أفرح بيك يا زكي واعرف إنك بجيت راجل.

كان ذلك أول دروسه في كرم الضيافة، وجرب أمه مرة ومرات، ولم تخيب ظنه قط.

ونزل عائدا إلى القرية، فمر بثلاثة بيوت إلى اليمين إلى أن وصل إلى الصيرة. ما زال يلعن اليوم الذي خطر فيه لبعض من لا يفهمون أن يبنوا بيوتهم أمام الصيرة فحجبوها عن العيون. في شبابه كانت الصيرة مفتوحة في اتجاه السكة الزراعية كأنها ترحب بالوافدين. مفتوحة ليل نهار تستقبل الزوار والمسافرين الذين هبط عليهم الليل وأرهقت مطاياهم. أين نحن الآن من أيام العز؟ لم يعد أحد يعرف متى بنيت الصيرة ولا لماذا أطلق عليها هذا الاسم؟ ولكنها كانت قائمة أيام طفولته، وكانت قائمة في حياة أبيه وعمته زينب وزوجها الحاج منصور. ويقال - والعهدة على من روى - إنها بنيت في عهد قاسم عندما قرر هو وأهله الاستقرار في هذه المنطقة وأنشأوا القرية. معنى ذلك أن عمر الصيرة من عمر عزبة القواسمة، وأن قاسم أراد ألا يستقر هو وأهله دون أن يوجد مكان لاستقبال الضيوف. وكانت هي والجامع معلمين تمتاز بهما العزبة وتحتل بهما مكانة عزيزة في الناحية. فسكان القرى المجاورة يأتون لأداء صلاة الجمعة والعيدين في الجامع، ثم يستضافون في الصيرة. ولا يكتمل يوم الجمعة المبارك دون صلاة الجماعة والغداء. ولم يكن للصيرة نظير في الناحية ولم يكن يباريها دوار العمدة ذاته، فكانت قبلة الضيوف والغرباء وشعراء الربابة والمداحين. مَضْيفة وقاعة للاحتفالات. ثم أخنى عليها الدهر كما أصاب حائط الجامع

بالتصدع. انظر ما آلت إليه. ولمن يشكو محنته؟ في نفسه كلام يريد أن يرفعه إلى الله، ولكن الكلام يقف في حلقه. يا سيدي أعنا وارفع مقتك وغضبك عنا. ودخل الصيرة.

******

شق خليل طريقه بين الحقول في اتجاه عزبة الصوالحة. كان بإمكانه أن يذهب إليها عن طريق السكة الزراعية بمحاذاة الترعة، ولكن السكة الزراعية لا تخلو من المارة حتى أثناء الليل، وهو يفضل ألا يراه أحد. السماء منبسطة في مواجهته ملأى بالنجوم، ولكن بصره مسدد نحو هدف واحد؛ بيت إبراهيم أبو زيد على الحافة البعيدة للعزبة. رجل غريب وفد إلى الناحية قبل أن يولد خليل وانتحى ركنا منها لا يزور أحدا من أهلها ولا يزوره أحد إلا لغرض خاص. لا يعرف الصوالحة من يكون أهله ولا من أين جاء. ولكنهم عرفوا مع مرور الوقت أنه تاجر مخدرات وشيخ منسر. سمع خليل منذ طفولته أن إبراهيم أبو زيد هو الذي خطط لحادثة نزلة علوان. هو فيما قيل من جمع أفراد العصابة وحدد لكل منهم دوره في العملية، أما هو فقد خرج من المصيبة التي وقعت كما تخرج الشعرة من العجين. عندما كبس البوليس على بيته وأخذ التحقيق مجراه تبين بالدليل القاطع أن صاحب البيت لم يغادر بيته ليلة الحادثة. وبعد أن افتتح خليل دكانه تلقى تحذيرات مشددة من أبيه ألا يذهب إلى بيت إبراهيم وألا يتعامل معه إلا إذا سعى هو إليه في غرض مشروع: «ممنوع الحشيش والزفت اللي بيشموه». ولكن ها هو رغم تحذيرات أبيه يسعى بقدميه إلى إبراهيم ويطلب مساعدته. وإلى من سواه يلجأ؟ وبمن سواه يستعين على ما فعله سلامة؟ لطخ

شرف أخته وقضى عليها إلى الأبد؟ ولا بد أنه فعل ما فعل معتمدا على أنه من أولاد قاسم. أولاد قاسم يعتقدون أنهم أفضل الناس، وأن الله خلقهم من طينة غير طينة البحاروة. وسلامة نفسه فقير معدم - لا أرض لديه ولا بقرة أو غنمة - يكسب رزقه كمرابع، ومع ذلك يمشي في العزبة شامخا بأنفه لأنه من القواسمة. كيف يعتدي على أخته؟ ولماذا لم تقاومه؟ ولماذا لم تستغث طلبا للنجدة؟ لو أنها فعلت لثبت أنه أراد اغتصابها. ولكن ما حدث حدث دون ضجة. ولولا أن الخبر شاع، لما علم بالأمر أحد. وهل يمكن لأخته الصغرى - البنت الخجولة «الغلبانة» - أن ترضى على نفسها هذه الوصمة؟ لا بد أن سلامة - وهو الفقير المعدم - يرى أنها بحراوية لا تستحق أن يصان شرفها. كان بصره مسددا نحو بيت إبراهيم، وكانت توجه نفسه رغبة واحدة: الانتقام. لو أنه استطاع الوصول إلى سلامة «لشرب من دمه»، ولكن كيف الوصول إليه؟ وفي الطريق إلى عزبة الصوالحة توقف أكثر من مرة. كان يسمع حركة بين عيدان الذرة، ويقول لنفسه: «يمكن ديب ولَّا تعلب». ثم يستأنف السير متحسسا الطريق بنبوته في الظلام.

وكان إبراهيم أبو زيد يهم بأداء صلاة العشاء عندما جاءته بنته باكية. فتوقف عن الصلاة وقال لها: «ما لك يا فريدة؟». ولم تستطع البنت أن تجيب من شدة النهنهة. وإبراهيم الذي يقول عنه الناس إنه «جتال جُتله» ويقول عن نفسه «ياما اندج ع الجلب هموم» لا يتحمل بكاء بنته. وها هو قلبه يرفرف في صدره إشفاقا على البنت. أبناؤه الكبار رجال بشوارب. أما هذه البنت النحيلة التي جاد الله بها عليه «على مكبر» من زيجته الثانية، فهي قرة عينه. وقال: «تعالي اجعدي جنبي هنا». وأخبرته فريدة

وهي تتهنه أن أمها ضربتها بالمقشة لأنها تلعب مع الصبيان. وربت على ظهر البنت النحيلة: «طيب ما علهشي يا حبيبتي». ونادى على الأم التي احتجت بأن البنت كبرت وأن الأوان قد آن لتكف عن مصاحبة الصبيان. وأصلح إبراهيم ما بين الاثنتين، ولكنه غمز لامرأته قبل أن تنصرف بما معناه «ما تدججيش. البنت لسه عيّله». وكفكفت فريدة دموعها، وأخبرته أن هناك رجلا يسمى خليل أبو راضي ينتظره في المندرة فابتسم. كان راضيا عن نفسه وعن صدق ظنه. خليل ابن البحاروة جاء ليراه. جميل. لقد أدرك منذ وصلته الأخبار أن البحاروة لا بد أن يلجأوا إليه. وإلى من سواه يلجأون ضد أولاد قاسم؟ البحاروة ناس مسالمون لا هم لهم إلا التجارة وتكويم الفلوس والأطيان، ولا يطلبون من الله غير الستر، ولا يستطيعون مواجهة أولاد قاسم «المفترين». ولا يستطيع أحد أن يستغني عن خدماته - وهو الغريب الوافد على الناحية من بعيد. أمضى فترة من شبابه في فلسطين يعمل مكوجيا لدى اليهود في تل أبيب، وكان له تعامل مع معسكرات الإنجليز في منطقة القناة، يبيع لعساكرهم الحشيش تارة ويسطو على معسكراتهم تارة أخرى. وعندما جاء إلى هذه الناحية نبذه الجميع - أولاد صالح وأولاد قاسم على السواء - ولكنهم جميعا يلجأون إليه. لا يستطيعون الاستغناء عنه. وأمر فريدة أن تطلب إلى الضيف أن ينتظره حتى يؤدي صلاة العشاء، واستوقفها قبل أن تنصرف: «إعزمي عليه بالشاي يا فريده».

واستقبل خليل بالعناق: «يا أهلا وسهلا. دي خطوه عزيزه يا سي خليل. يا مرحبا». وهم خليل بالكلام: «أنا جاي لك يا عم ابراهيم لأني طالب منك خدمه». فأوقفه إبراهيم قبل أن يكمل: «ما فيش كلام ولا سلام جبل ما تشرب الشاي. مش معجول ما تشربشي

شاينا. وطلبك مجضي بإذن الله». وقال خليل لنفسه: «شوف يا خويا الراجل - شيخ المنسر ده - ناعم ازّاي». وتجرع خليل الشاي الساخن قبل أن يقول: «أنا يا عم ابراهيم جاي لك في خدمه وجميله هتكون في رجبتي طول العمر. الواد سلامه...»، فقاطعه إبراهيم: «أنا سمعت اللي حصل، وطلبك مستجاب بإذن واحد أحد». قال خليل: «وانت عارف شرف البنت. يعني آني مش عارف أجول إيه؟». وتوقف خليل عن الكلام من شدة التأثر. فربت إبراهيم على يده: «آني عارف. والله أنا جلبي عليك وعلى أبوك. ربنا ينتجم من الظالم». وبعد لحظة من الصمت قال: «شوف يا سي خليل. إنته شايف فريده بنتي دي؟ آني ما استحملشي إن حد يلمس شعره في راسها. وانا فاهمك جوي». ونظر إلى خليل نظرة ثاقبة: «وزكيه أختك زي بنتي». واهتز خليل: ها هو الرجل قد دخل في صميم الموضوع. وقال إبراهيم: «أقسم بالله العلي العظيم إني شفجان عليك وعلى أبوك، الراجل الصالح اللي عمره ما ضر حد. يجوم سلامه أبو سيد يعمل كده؟». وشعر خليل بارتياح عميق: الرجل فاهم تماما. فسأله عن رأيه. قال إبراهيم: «إحنا ما نجدرشي نيجي ناحية زكيه. ربنا ينتجم من اللي آذاها. أما سلامه.. أما سلامه، فلينا معاه كلام تاني». قال خليل: «عداك العيب يا عم ابراهيم. خلينا في سلامه. بس احنا مش عارفين سلامه راح فين. بجاله أسبوع مستخبي الله أعلم فين». قال إبراهيم: «ويعني هيروح فين؟ لازم مستخبي عند جرايبه. يا إما في كفر صجر يا إما في الشّرفا جنب ابو كبير». وسأله خليل: «طيب نطوله ازاي؟». فابتسم إبراهيم: «سيب الموضوع ده لعمك ابراهيم». وأطرق خليل مهموما. قال: «بس آني خايف يا عم ابراهيم». بقي في نفسه سؤال لا يستطيع النطق به. إذا قتل سلامة في كفر صقر أو في الشّرفا أو أي مكان آخر،

ألن يتمكن البوليس في النهاية من معرفة من أوعز بالجريمة؟ ألن يتمكنوا من تتبع الموضوع حتى باب بيتهم؟ ولكن إبراهيم طمأنه: «ما تخافشي من حاجه. إحنا لينا رجاله في كفر صجر وفي الشرفا. وحيجوموا باللازم بعيد عنك وعني. عركه هتجوم كده ولَّا كده واحنا مالناش دعوه بيها. واحنا مش هنجتله على أي حال. الرجاله هناك هيضربوه علجه ما ينساهاش طول حياته ويتسببوا له في عاهه مستديمه. وبالمناسبه: هوه نفسه مش هيجول إيه اللي حصل له ولَّا مين اللي ضربه. ما يستجريش. هيه العمله اللي عملها شويه؟». وبعد لحظة من الصمت قال إبراهيم: «بس انت عارف يا سي خليل، الرجاله دول لازم نراضيهم».. وسكت، ولكن خليل فهم المراد. فوضع في الكف المفتوحة جنيهين: «دول جرشين تحت الحساب».. وابتسم إبراهيم ابتسامة عذبة: «إللي تشوفه يا سي خليل. والله ما أفاصل معاك. أنا ما اعزش عليك حاجه». وسار مع خليل حتى باب الخروج ليقول: «بس آني عاوز أجول لك حاجه برضه بالنسبه لزكيه. خلِّي بالك إنها ما خرجتشي م العزبه». ودهش خليل: «وإيش عرفك؟». قال إبراهيم: «بنت زي دي هتروح فين يعني؟ هتروح عند الصعايده؟ معجول؟». وسأله خليل: «طيب في العزبه فين؟ مستخبيه عند مين؟». قال إبراهيم: «الله أعلم. لكن لازم تكون عند حد من ولاد جاسم». وبهت خليل، ولم ينطق بعدها بكلمة.

وفي طريق العودة كانت رأسه تكاد تشتعل من شدة القلق. تبخرت الطمأنينة التي شعر بها في البداية عندما سمع الحل الذي ارتآه إبراهيم وعرف أن سلامة سيلقى الانتقام الذي يستحقه دون أن يقع عليه أو على أبيه أي لوم. ولكن إبراهيم قضى دون أن يدري

على تلك الطمأنينة عندما خمن - ويبدو أن تخمينه في محله - أن زكية لم تغادر العزبة. في أي بيت من بيوت القواسمة يمكن أن تكون؟ لا يمكنه تفتيش بيوت القواسمة بيتا بيتا بحثا عنها. بل هو لا يريد أن يفعل ذلك ولا يتمنى أن يجدها بأي حال من الأحوال. العثور عليها سيكون مصيبة كبيرة. وماذا يمكن أن يفعل بها أو لها؟ كان من الأفضل أن تذهب وتختفي إلى الأبد بحيث لا يبقى لها أثر. سلامة يروح في ستين داهية، أما زكية؟ إذا لم تقتل، ماذا يمكنهم عمله من أجلها؟ لن يتقدم لها خاطب، ولن يقربها أحد أبدا. ستكون وصمة عار.. أسوأ من العانس أو المطلقة أو الأرملة. هل يمكن حبسها في الدار فلا تظهر على أحد في الخارج؟ كان يعتقد - ويعتقد معه أبواه - أنها هربت، رحلت عن العزبة تماما. وكان في ذلك حل - نوع من الحل - للمشكلة. إلى أن أشار إبراهيم أبو زيد - الرجل الثعلب - أنها مختبئة في مكان ما من العزبة. وطرق خليل الأرض بنبوته: في هذه الحالة لن يكون تكسير عظام سلامة هو نهاية العذاب. لوث أخته التي هي من لحمه ودمه وقضى عليها إلى الأبد. وكلما دارت في نفسه الفكرة التي لا تحتمل- أخته التي هي من لحمه ودمه - ود لو أنه تمسك لدى إبراهيم أبو زيد بقتل النذل الجبان.

* * *

خفق قلب سلامة عندما تعرف في الظلام على خليل أبو راضي. كان في طريق عودته من مخبئه عند أقاربه في كفر صقر، ورأى أن يتخذ إلى قريته طريقا ملتوية فيتسلل إليها بين غيطان الصوالحة. ولكن يشاء ربك أن يصادف خليل في مكان ما كان ليتوقعه فيه. لماذا يأتي خليل إلى عزبة الصوالحة، وسالكا هذه

الطريق في ظلام الليل؟ من حسن الحظ أنه لمح خليل من بعيد، فغطس بالقرب من قناة. لو أنه تمهل لحظة واحدة لرآه خليل، ولحدث ما حدث. واشتد وجيب قلبه عندما توقف خليل للحظة. يبدو أنه سمع حركته بين عيدان القطن. وظل سلامة لفترة طويلة قابعا في مكمنه حابسا أنفاسه إلى أن تأكد من أن خليل قد ابتعد. وبقي الآن أن يصل إلى قريته - وإلى الصيرة على وجه التحديد - دون أن يراه أحد. لا يريد أن يراه أحد من أهله قبل أن يقابل عمه زكي في الصيرة. لا بد أن يمر به قبل كل شيء. هو الوحيد الذي يمكن أن يحميه، وعليه أن يرضى بحكمه وعقابه أيا ما كان. لو أنه استطاع أن يستميله إلى جانبه لهان أمر بقية الناس، بما فيهم خليل وأبوه وسائر عشيرة البحاروة. يستطيع أن يواجه الجميع إذا كان زكي في صفه.

وعندما وصل إلى الصيرة وجد الشيخ زكي دافنا رأسه بين ذراعيه وركبتيه. ولم يتنبه للسلام الذي ألقي عليه. وخيل إلى سلامة أنه نائم، ولكنه في الحقيقة كان مستغرقا في التفكير. كان الزوار والغرباء يترجلون عن مطاياهم قبل أن يهبطوا إلى القرية. يلقون السلام على من يجدونه بالقرب من الطنبوشة. وقد يسألونه عن أهل القرية فيقال لهم: «القواسمة». ويسألون عن كبير أهل القرية، فيقال لهم: «الحاج زكي»، فيقولون: «أنعم وأكرم». ويصحبهم من يلقونه عند الطنبوشة - سواء أكان رجلا أم طفلا - إلى الصيرة. وهنالك ينتظرون حتى يخرج إليهم من يحسن استقبالهم ويقوم بالواجب. الجميع يعرفون أن الوافدين إلى الصيرة ضيوف على أهلها جميعا، وأن هؤلاء يساهمون كل على قدر حاله في إكرام الضيف، وإن كانت المسؤولية الكبرى تقع على كبير العائلة: عمه منصور في البداية، فلما توفي تولت

المسؤولية زوجته الحاجة زينب بمعاونة أبيه؛ فلما انتقلا بدورهما إلى رحمة الله، أصبح هو القائم - وحده تقريبا - على رعاية الوافدين وتنظيم المناسبات وتوزيع الأدوار على كل من يستطيع القيام بدور. كان الجميع راضين برئاسته لولا أن ضاقت به الحال. ثم جاءت تلك الظلمة المستقرة في أعماقه. وهناك أيضا تلك الأصوات الغريبة التي يسمعها توشوش في أذنه. آلت إليه المسؤولية، ولكن لم يعد بمستطاعه القيام بمثل تلك الواجبات. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. أما تلك العبارة التي لا تفتأ تناوشه...

لا يدري أحد متى جاء قاسم وأهله إلى تلك الناحية، ولا يدري أحد على وجه اليقين من أين جاءوا. ولكن آلت إلى أهل القرية روايات تقول إن قاسم وأهله كانوا عربا جاءوا من الشرق في زمن بعيد يرجع إلى ستة أو سبعة أجيال. ويقال إنهم في بادئ الأمر ضربوا خيامهم واشتغلوا بالرعي وتربية الخيل إلى أن استقروا في النهاية في بيوت من الطين واشتغلوا بالزراعة. فمتى كان ذلك التحول؟ لا أحد يعلم. زكي نفسه لا يعلم، ولم يكن أبوه يعلم. إن هي إلا نتف من روايات يكتنفها الغموض. الزمن القديم تحيط به سحب من الظلمات.

لم يحضر زكي عصر عمه منصور، ولكن أباه روى أن منصور كان واسع الثراء؛ فكانت الساحة المواجهة للبيت الكبير تعج بإسطبلات الخيل وحظائر الماشية. وكان يقول إن أولاد قاسم ظلوا حتى عصر منصور يحافظون على تقاليدهم في تربية الخيول العربية الكريمة. أما زينب، فكانت قوية شديدة البأس. يروى عنها أنها استيقظت ذات ليلة عندما سمعت حركة غريبة في الحظيرة في ظهر البيت. لا بد إذن أنه أحد لصوص الماشية

أو ذئب جاء يبحث عن فريسة. ولما رآها الذئب المقتحم قادمة وفي يدها فأس اختبأ في ركن مظلم. ووجدته في الركن واقفا على رجليه الخلفيتين فلم تفزع - كانت أشجع من أي رجل - بل هوت عليه بالفأس. تقول الروايات إنها كانت في شبابها رائعة الجمال، وإنها ورثت جمال طلعتها عن «سدّينه»، وهي فتاة لا يعرف عنها الناس إلا القليل. يقال إنها كانت بنت قاسم الجد الأكبر، وإنه زوجها لرجل لا تريده. وهم يشعرون بالروعة كلما ذكرت. لا تولد لهم طفلة جميلة إلا وقالوا: «جميله زي سدّينه»، ويشعرون بالحزن لما وقع عليها - هي الجميلة - من ظلم.

الزمن لا يرحم. أصاب زينب في آخر العمر ما يصيب الشيوخ: تقوس ظهرها، ولم تعد تستطيع السير إلا معتمدة على عكاز، وفقدت بصرها. ولكنها لم تفقد هيبتها؛ لا يمر بها - حتى وهي عمياء - رجل على ظهر مطيته إلا وترجل. وإذا مرت بجماعة وهي تتوكأ على عكازها، ساد الصمت إلا أن يهمس أحدهم: «سبحان الله! أهي دي اللي جتلت الديب». وظلت الصيرة في عهدها مزدهرة كما كانت في سابق العصر والأوان؛ لم يؤثر عليها ما أصاب السيدة الجليلة من وهن. وكان شعراء الربابة يأتون في كل عام ويحيون في القرية ليلتين أو ثلاثًا في إنشاد الملاحم. وكانت زينب تطبخ اللحم في دستين ضخمين يقوم كل منهما على جانب من بوابة البيت الكبير، ثم تجمع حول صواني العشاء قرابة ثلاثين شخصا ما بين رجل وامرأة وطفل. وأخبره أبوه أنه كانت تحتل الأرض الممتدة بداية من واجهة البيت الكبير إلى «الخليج» أبراج للحمام وخلايا للنحل ومزرعة للخضروات، وكل ذلك قد زال. كما يذكر أنه وهو طفل يلعب مع رفاقه خلف الجامع والبيوت المجاورة له كان يرى نباتات متسلقة تغطي

ظهور المنازل، وخمائل مزهرة. ولم يبقَ من ذلك شيء. أم أنه رأى تلك المشاهد في المنام؟

وما إن رفع رأسه حتى أسرع سلامة فانكب على قدمي عمه وهو يقول: «أنا في عرضك يا عم. أبوس على رجلك، أنا طالب عفوك». ولم تكن هذه بالبداية السيئة في نظر سلامة. وقرر ألا يزيد على ما قال كلمة واحدة ويترك للرجل زمام المبادرة. ثم نهض فجأة كأنما تذكر شيئا نسيه وبدأ يعد الشاي كعادته بعناية فائقة، وكأن شيئا لم يحدث. صف القوالح في المنقد وأشعل النار وأخذ ينفخ فيها حتى انقشع الدخان واندلعت ألسنة اللهب صافية ثم هدأت لتسمح بوضع البكرج على القوالح المتلظية. وسلامة فنان في إعداد الشاي. يغليه حتى يسودّ كالحبر ويضيف إليه كثيرا من السكر فيصبح سميكا شهيا كالعسل، وحين يصبه في الفناجين يرفع البكرج لتطفو على سطح الشاي الرغوات: تلك هي الأصول.

ولم يكن لدى زكي ما يقوله. هَمَّ أكثر من مرة بأن يقول: «إيه الحكايه يا سلامه؟» ولكنه كان يتوقف لأنه يعرف الحكاية المطينة ولا يريد أن يسمعها تروى عليه مرة أخرى. الأهم من سماع الحكاية من جديد أن يطفئ نار الغيظ المتوقدة في صدره ويجد العقاب المناسب «لابن الكلب» الذي جلب عليه وعلى القواسمة العار. وسلامة يتمنى أن يبدأ عمه الحديث ويستجوبه إذا شاء لكي يتضرع إليه أن ينزل به العقاب الذي يريد على أن يصفح عنه في النهاية. وهو يريد أن يبكي بين يديه ويستعطفه ويشكو له الشيطان: «الشيطان شاطر يا عم». ولكن صمت عمه الرهيب ينذر بالخطر. كيف يمكن أن يشرح لعمه الحكاية؟ لا

يجرؤ على ذلك، ولا يمكن للرجل التقي المستقيم أن يتفهم جنون العشق على أي حال. ولن يسمح له بالخوض في مثل ذلك الحديث المخزي.

متى بدأ حبه لزكية؟ يعلم الله أنه لا ذنب له فيما حدث في البداية. كانت البنت ما زالت طفلة لم تبلغ بعد. وكانت تجمع القطن مع غيرها من الأنفار مقابل خمسة قروش في اليوم. وكانت مثل غيرها من البنات والصبيان تجيء وتروح في غيط القطن دون أن يلتفت إليها. كانت كغيرها من الأنفار: تتحزم بحبل وترفع الجزء الأعلى من ثوبها فيكون لها عبّ تلقي فيه بالقطن الذي تجمعه. وكلما امتلأ عبها ذهبت إلى الكيس على حافة الغيط لتفرغ فيه حمولتها. ويبدأ الجمع وملء العبّ من جديد. وكان الأنفار يعملون بجد في بعض الأحيان وبخاصة عندما تغني الفتيات وتشحذن الهمم. ثم يحدث الفتور، فكان بوصفه رئيسا للأنفار يهش عليهم بعود من الحطب ليحثهم على الإسراع في العمل. وذات مرة هش بعوده على زكية - هش عليها ويعلم الله أنه كان خالص النية لا يعني شيئا - فاستدارت نحوه لتقول: «اضرب يا سلامه. اضرب يا سلامه». لماذا قالت البنت ذلك الكلام وهو لم يستخدم عوده قط في ضرب أحد؟ وضحكت صديقتها سعاد بخبث: «اضرب يا سلامه. ما هو ضرب الحبيب زي أكل الزبيب». هل بدأ الحب يومذاك؟ البنت كانت ما زالت طفلة، ولكنه رأى في عينيها الواسعتين نظرة غريبة وهي تقول له ما قالت. هل كانت تسخر منه أم تعاتبه؟ وما هي حكاية ضرب الحبيب هذه؟ ثم نسي الموضوع بأكمله. قال لنفسه: «لعب عيال».

ولكن الطفلة التي كان صدرها يبدو مسطحا من فتحة العنق هي نفسها الفتاة التي أشعلت النار في أعصابه بعد ذلك بسنوات عندما رآها تجلس إلى طشت الغسيل عند جدته نفيسة. كان خراط الصبا قد خرطها. رأى ساقيها منفرجتين بينهما الطشت ورأى سروالها البرتقالي ينحسر من جانب ليكشف عن منطقة من الظل تعلق بها بصره.. بل تعلقت بها روحه. ورأت هي أين يتجه بصره فسارعت إلى جذب ذيل ثوبها لستر ما انكشف. وخيل إليه أن ابتسامة عابرة مرت على وجهها. بعدها لم يعرف النوم الهنيء إلا لماما. كانت صورة الفرجة الظليلة تفاجئه وهو يعزق أو ينثر البذور أو يهوي بالفرقلة على الجاموسة في مدار الطنبوشة؛ وكانت البنت كثيرا ما تأتيه في المنام ولا تفارقه حتى تخرجه من فراشه ليذهب إلى مغطس الجامع ليتطهر. وكان يتردد على بيت جدته نفيسة لعلها تطلب منه قضاء مصلحة لها فيجد زكية عندها. فإذا وجدها تلكأ بعد تبادل التحية والذي منه. وجوده بالقرب منها كان يبث الراحة في نفسه، وكان يتمنى أن يطول.

وهي أيضا كانت تتلكأ قليلا عندما تأتي إلى الغيط تحمل بعض ما تجود به «جدته»: رغيفين وخرطة جبن أو رغيفين وبيضتين مسلوقتين. فكانت تجلس وتدردش، ولكنها كانت تتلفت طيلة الوقت أو تتحاشى التقاء عينيها بعينيه. ثم تنهض فجأة وتلملم طرحتها وتقول: «فتك بعافيه يا سلامه». وقد تتوقف أحيانا لتقول: «وانت راجع آخر النهار ما تنساش تودي المشنّه للحاجه نفيسه».

وكان يطرب عندما يسمعها تنطق باسمه. ثم اكتشف ذات يوم أن البيض الذي تحمله إليه لم يكن دائما من عند نفيسة. حدث ذلك

عندما قال لنفيسة ذات مرة إن البيضتين اللتين أرسلتهما كانتا كبيرتين كأنهما بيضتا بطة، فأخبرته أنها لم ترسل إليه إلا الرغيفين وخرطة من الجبن وبصلة. وقالت: «بيض إيه يا ولدي؟ سلامة عجلك يا حبيبي». عندئذ انشرح صدره وابتسم. كانت البيضتان هدية إذن من عند زكية. وهي لا بد سرقتهما من بيض أمها.

وشعر ذات يوم أن قلبه يتصدع عندما قالت له نفيسة: «زكيه ما عادتشي بترضى تاخد لك الحاجه. إبجى فوت انت خدها». وانقطعت زياراتها تماما. ولم يعد يراها إلا بين حين وآخر عندما يجدها في بيت نفيسة أو وهي مع غيرها من البنات وهن في طريقهن إلى الترعة لملء جرارهن. وكان يشعر بالحزن الشديد عندما يلاحظ أنها تتحاشاه فلا تنظر إليه بينما تحييه صاحباتها عند مرورهن به أو يتحدثن إليه. لماذا خاصمته؟ آه لو أنه استطاع أن يراها وحدها فيعاتبها ويشكو إليها ما به.

وقال لنفيسة:

- الحب حرام يا ستي؟

فقالت:

- ومين اللي حرمه يا بني؟ بتحب مين يا نور عيني؟

ولم يجبها فسألته:

- مين يا حبيبي اللي بتحبها نخطبها لك؟

وعندما خاطب أمه في الأمر صرخت:

- يا لهوي. حد الله. تجوّز بحراويه؟ تحرم عليك.

- وإيه يعني لما تكون بحراويه؟ هم البحاروه مش بني آدمين؟

- بني آدمين ولَّا بني شياطين. مش حتتجوز زكيه. سامعني؟

وقامت القيامة. فقد ذهبت أمه إلى أم البنت وردحت لها ما شاء لها الردح، وأمرتها أن «تربط بنتها السايبه».

واختفت زكية تماما ولم تعد تظهر حتى مع صاحباتها عند ملء الجرار. ومرت شهور على هذه الحال. ونفد صبره، وعرف الناس ما به عندما رأوه يسير متجها نحو بيوت البحاروة ثم يتوقف في منتصف الطريق قبل أن يصل إلى غايته.

حتى كان يوم نزل فيه إلى بئر الطنبوشة ليصيد قرموطا رآه يتلعب في الماء، قرموطا ضخما طويل الشوارب مراوغا. كلما هم بالإمساك به تلقى طعنة في يده وسال دمه في الماء. حدث ذلك ثلاث مرات قبل أن يتمكن من الملعون. وكان يحاول الصعود نحو نور النهار عندما رأى عينين واسعتين تطلان عليه. هي زكية! وكانت تهمس: «سلامه». هل هناك في الدنيا صوت أعذب من هذا الصوت الهامس باسمه؟ فلما بلغ سطح الأرض ألقى بالقرموط جانبا ولم يفه بكلمة. بل أمسك بيد الفتاة، وشدها إلى صدره، فلانت له. فرفعها على ساعديه، ولم يعد يدري ماذا حدث له على وجه التحديد. كأنه لم يكن في وعيه؛ كأن قوة ما

تلبسته ودفعته دفعا إلى حمل البنت والاختفاء بها بين أعواد الذرة. لا بد أنه ...

وأخيرا نطق والدموع في عينيه:

- الشيطان شاطر يا عم.

فقال زكي والشرر يتطاير من عينيه:

- شيطان إيه يا إبن الكلب؟

صحيح. ما لنا ومال الشيطان؟ كان يريد أن يقول لعمه: «أنا كنت ميت شوج. أنا لما طلت عليه البنت بعينيها طار عجلي. ما دريتشي إيه اللي جرا لي. ما كنتش في وعيي. خدت البنت في حضني. لكن أروح بيها فين والكل واخد باله منا؟ ما لجيتشي غير غيط الدره يسترنا. يا عم هوه أنا مش بشر من لحم ودم؟ بجالي سنين أشوف البنت رايحه جايه وعارف إن احنا بنحب بعض. من يوم ما جالت: «اضرب يا سلامه». حب من غير كلام، حب من بعيد لبعيد، ربنا عالم. حبيت أجول لها يا زكيه أنا بحبك، أنا عاوز اخطبك. ما لنا احنا بالجواسمه والبحاروه؟ بين بيتنا وبيتكم خطوتين. وما فيش حد أحسن من حد. عمالين يتهموني فيك. مش عارفين إنك أغلى عليه من حبابي.. عينيه، وإني لا يمكن أضرك أو أشمّت الناس فيك. وافرضوا يا عالم إني غلطت. غلطت، سامحوني. أنا انكويت سنين بحبها. ما جدرتش أتحمل نظرة عينيها. ما جدرتش أتحمل حرماني من رؤيتها شهور. وهيه الرؤيه حرمت ولّا السلام حرم؟ ما كنتش عايز أكتر

من كده. وهوه آني مش بشر؟» ولكن عمه لا يمكن أن يستسيغ هذا الكلام. حب إيه وهباب إيه؟

وكان يشعر أنه تعيس الحظ. أراد أن يتجنب عيون الناس حينما حمل البنت واختفى بها بين أعواد الذرة. وتلفت حواليه قبل أن يفعل ذلك. فمن الذي تمكن من رؤيتهما وقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة؟ من الذي وشى بهما؟ وكيف دار الخبر في أنحاء القرية قبل أن يصبح النهار؟

لم يكن يعلم أن عمه لا يدري ماذا يفعل، تكاثرت عليه الهموم ولا يجد لنفسه منها مخرجا. ولكنه يعلم - وبخاصة عندما يعود الهدوء إلى نفسه - أن عليه إذا أراد أن ينجو أن يعالج تلك المشكلات، يمسك بها «واحده واحده». يشعر أن القبض على تلك المشكلات بيديه - وهو يشد عندئذ على قبضته - هو الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها منع ما يحدث داخل نفسه. وماذا يحدث داخل نفسه؟ وبجهد جهيد رأى شيئا غريبا بسبيله إلى الحدوث إن لم يتداركه الله برحمته. شيئا يشبه انشقاق الأرض عن حفرة بلا قرار. وما هي المشكلات التي عليه أن يمسك بها؟ كثيرة ولا يستطيع أن يحصيها. ولكن يتبادر إلى ذهنه أول ما يتبادر تصدع جدار الجامع؛ وسوء حالة الشيخ حامد؛ وتدهور الصيرة. ثم هذا الشاب الذي جلب على أهله العار. كل هذه المشكلات تبدو مستعصية. بعضها لا حل له إلا بتوافر الفلوس، والفلوس ليست متوافرة. ولكن المصيبة الكبرى هي اعتداء سلامة على بنت البحاروة. كيف يواجه هذه المشكلة؟ هنا يحل الظلام وتسودّ الدنيا في عينيه. آه لو كانت زينب ما زالت على قيد الحياة! كانت ستقول له - كما كانت تقول له دائما - «اجمد يا زكي»، فيجمد. كانت امرأة ولا

عشرة رجال. كانت ترعى الجامع والصيرة والكتاب. كانت ترعى حامد وأولاده وتستأجر بعض هؤلاء للعمل عندها مساعدة لأبيهم. وكانت تقول إنها لا تفعل إلا القليل مما كان يفعله منصور زوجها. وكانت تروي عنه أنه كان دائم الاستشهاد بالآيات الكريمة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾. واتضحت الفكـرة في

رأسه كأنها برق لامع يعقبه صوت الرعد - فكرة الراعي الأكبر للضعفاء والمساكين - ففاضت الدموع في عينيه. وانتفض سلامة عندما سـمع صوت عمـه يتلو من سورة الضحـى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾. تلا الآيات بخشوع أعقبته صرخة خرجت من جوف الرجل تدل على الفزع والفجيعة: «ما تسيبنيش لوحدي، ما تتخلّاش عني». وتلفت سلامة.. لم يكن في الصيرة أحد سواهما. من هو الشخص الذي يخاطبه عمه؟ ولم يجرؤ على سؤاله.

******

لا تطيب الحياة لشبانة إلا في الجرن. والجرن فضاء فسيح يوجد في واجهة العزبة، ويطل على السكة الزراعية والترعة. ويبدو خاليا وموحشا معظم أوقات النهار والليل إلا في أيام الحصاد، أو ساعات اللعب، أو انعقاد مجالس شبانة. في موسم الحصاد ينشط النورج - بعد أن بقي لوقت طويل معطلا يثير منظره الحزن -

فتجره دابة (حمار أو بقرة أو جمل) ليدور بعجلاته الحديدية الحادة على عيدان القمح ليدرسها. وفي الليل يحلو السهر حتى الساعات الأولى من الصباح ومراقبة المذراة وهي تلتهم الدريس لتفصل الحب عن القش. ويلذ لشبانة أن يشاهد على الهامش مباريات «الكحشة» (نسخة ريفية من الهوكي). عندئذ ينقسم اللاعبون من كبار الصبية إلى فريقين يضرب كل منهم الكرة بعصا غليظة لتسجيل الأهداف في مرمى الفريق المنافس، ويكثر الجري والصياح والجلبة. وفي الليالي القمرية يلعب صغار الأطفال «الطاجيّه في العبّ»، فيجلسون صفا أحدهم خلف الآخر ممدود الساقين حتى تلتصق قدماه بمؤخرة من يتقدمه، ويبقى أحدهم واقفا خارج الصف ليكتشف من أخفى الطاقية في عب جلبابه. فإذا اهتدى إليها وأخرجها من عب حاملها انضم إلى صف الجالسين، وعندئذ يقع دور البحث عن الطاقية على من اكتشفت في عبه. وأسعد الأوقات في الجرن هي التي يصل فيها الفرج على شكل فص الأفيون. للفص سحر لا يتكشف إلا بعد استحلابه مع رشفات من القهوة المرة. وعندما يحدث الفص أثره - وهو سريع التأثير - إذ تبدو الحياة في حالة من الزهزهة، ولا يسمح لأي شيء بتعكير صفاء البال. وصفاء البال حالة يسميها شبانة «راحتي والسلام». وسيان عنده في تلك الحال إذا جلس الصبية إليه (فيتسقط آخر الأخبار ويستمع إلى كلامهم الفارغ ويحدثهم حديثا ما أنزل الله به من سلطان) أم لم يجلسوا؛ فهو قادر بعد وصول الفص على الجلوس وحده والسباحة في «الملكوت».
وأحب الأوقات إليه بعد موسم الحصاد شهر أمشير في أواخر الشتاء. فأمشير هو أيام الخير. فيه تخضر الأرض بالبرسيم، وتشبع البهائم وتدر الحليب بغزارة. وتنزع النساء عن المتارد طبقة سميكة من القشطة فيظهر اللبن الرائب، ويصنع الجبن في

حصيرة معلقة ينز منها شرش اللبن إلى أن يتجبن. سبحانك يا رب. واللبن الرائب هو طعامه المفضل لأنه لأمر ما يتفق مع الأفيون.

إلا أنه اليوم ليس معتدل المزاج. الجرن اليوم مقفر وموحش وكئيب. أرسل ابنه إلى نزلة مندور ليشتري له فص الأفيون الذي لا حياة له بدونه. وها هي الشمس تغطس شيئا فشيئا خلف نخيل عزبة الصعايدة دون أن يظهر للولد أثر. كان منذ قليل يتصبر بالحديث إلى الصبية ساخرا من القواسمة لأنهم ما زالوا يفخرون بأصولهم العربية ويتمسكون بأمجاد أسلافهم؛ والله أعلم إن كانت صحيحة أم كاذبة. ولكن تشتت انتباه الصبية عندما سمعوا صوت شخشيخة وبدأوا يتلفتون يمنة ويسرة. ثم ظهر على السكة الزراعية عاشور بائع الحلاوة السكركر. كان يحمل عصاه الطويلة التي يلف عليها الحلاوة تحت غطاء من الشاش حماية لها من الذباب. وهز عصاه فجلجلت الشخشيخة من جديد، وانقطع الحديث، وأخذ الصبية ينفضون الواحد تلو الآخر؛ كل منهم يريد أن يذهب إلى أمه لإحضار ثمن الحلاوة. وعبثا حاول شبانة أن يثنيهم عن الهروب: «يا واد استنى انت وهوه. الكلام لسه جاي. حلاوة سكركر إيه وكلام فارغ إيه؟ دي شوية سكر ولمون بيطبخها ابن الكلب عشان تمسك وتلزج والنسوان تنتف بيها». قال أحدهم: «ما لناش دعوه. إحنا بنحب الحلاوه السكركر». وذهبوا. ولكن ماذا حدث للولد الذي ذهب ليشتري الأفيون؟ ألم يجد التاجر؟ هل رفض التاجر الخمسة تعريفة وأخذ يتدلل ويساوم؟ هل انهارت الحمارة في الطريق ورفضت النهوض ولم تستجب لنداء ولا ركل؟ شبانة بدون فص الأفيون لا يستطيع رفع رأسه. عيناه تدمعان، ويحمر أنفه، ويسيل مخاطه، وتسود الدنيا

في وجهه. وفجأة ظهر مدحت ومعه كلبه. وجلس في مواجهة شبانة بهدوء بينما أخذ الكلب الأسود يبصبص بذنبه. وقال الطفل هامسا:

- آبا شبانه. أجول لك على سر؟

ورفع شبانة رأسه قليلا وبصعوبة لأنها تكاد تسقط من على كتفيه:

- ممنوع الكلام. ما تجولليش حاجه.

ولكن ذلك لم يردع مدحت:

- الواد سلامه الخلبوص ...

ونهره شبانة:

- يا بني مش عاوز اسمع حاجه. دماغي تجيله تُجل الرحايه.

قال مدحت:

- إنت حر. ذنبك على جنبك.

شبانة في حالة لا تمكنه من الاستماع إلى أي شيء. عيناه دامعتان لا يكاد يستطيع فتحهما، «عليهم غشاوة» كما يقول في مثل تلك الحالات، وأنفه أحمر ضخم لا يتوقف مخاطه. أما الصداع فيشبه طرق المطارق على الرأس. كان موعد فص الأفيون قد جاء (جاء البارحة في الواقع) وفات. وها هو ينتظر عودة ابنه ومعه

العلاج. أرسله قبل أذان العصر وها هي الشمس قد أوشكت على المغيب دون أن يظهر له أثر. أرسله على ظهر الحمارة فكأنه أركبه نملة.

ثم هلّ الفرج وانشرح الصدر. ظهر الولد على ظهر الحمارة - كانت تعرج - على السكة الزراعية. وأصبح فص الأفيون في متناول اليد. وما إن ترجل الغلام وسلم «الأمانة» حتى أمره أبوه بالذهاب إلى البيت: «روح ياللّه ع البيت وجول لأمك تعمل الجهوه، وهاتلي الكنكه بحالها». وعندما يبدأ الفص في الذوبان يشعر شبانة أول ما يشعر بالراحة ثم يتلوها السلام.

ولما جاء مدحت للمرة الثانية ومعه كلبه كان شبانة قد جفت دموعه وبدا متورد الخدين:

- جلت لي إيه يا مدحت؟ الواد سلامه الخلبوص عمل إيه؟

وجلس مدحت بهدوء، وقال:

- إيدك أولا على تمن الحلاوه السكركر.

وعبثا حاول شبانة أن يتملص. ولم يبح مدحت بالسر إلا بعد أن أعطاه شبانة مِلّيما، وتنحنح مدحت:

- صلِّ على النبي.

وصلى شبانة على النبي، وقال الغلام:

- شوف يا سيدي. أنا كنت نايم عند الطنبوشه، وصحيت لجيت الواد سلامه الخلبوص شايل بنت البحاروه على دراعاته.

وقال شبانة بتلهف:

- شايل مين يا وله؟

فشخط فيه الطفل:

- آبا شبانه، بتستهبل ولَّا إيه؟ يعني مش عارف بنت البحاروه مين؟ هتكون مين غير جليلة الحيا زكيه؟ غايته، شفت الخلبوص شايل البنت على دراعاته وداخل بيها غيط الدره.

فهتف شبانة:

- يا نهار أبوه اسود، دخل بيها غيط الدره؟!

- أي والله، دخل بيها غيط الدره، ولازم سخمطها.

- أعوذ بالله. شفته ازاي يا وله في غيط الدره؟ يعني دخلت وراهم؟

ولم يرد مدحت، بل قام بسرعة وابتعد هو وكلبه، وناداه شبانة:

- واد يا مدحت. السر في بير يا وله. إحلف ما تجيب سيره لحد.

وعاد الصبي أدراجه وحلف:

- عليه الطلاج بالتلاته ما اجول لحد. أهو فريد شاهد عليه.

قالها وهو يشير إلى كلبه مبتسما. وانصرف ابن الخمس سنوات الذي كانت تتدلى من طاقيته تميمة تقيه شر العين. وقهقه شبانة قهقهته المعهودة.. طويلة وممدودة ولا تخلو من نبرة الفحش. وفكر فيما حدث، فخطر له أن سلامة معذور، وأن البنت معذورة. هناك لحظة.. لحظة ما يقع فيها ما يقع. لعل زكية رأته يدير الطنبور أو واقفا في الغيط يغرس شتلات الأرز عاري الصدر في سرواله، ولعله رأى البنت تخطر تحت الجرة وطرف طرحتها يتدلى على مؤخرتها. هذا يكفي لانطلاق شرارة، والشرارة تندفع - بقدرة قادر - في الاتجاهين، فيشتعل الفؤادان. الولد معذور والبنت معذورة. أما الواد العفريت ده، تجولشي جرد مسلسل؟ ولَّا شوف الكلب اللي اسمه فريد! حد يسمي كلب «فريد» كأنه بني آدم؟

* * *

رفض راضي الأكل عندما سألته زوجته إن كان يريد أن تعد العشاء. لم يعد يصيب من الطعام إلا أقل القليل منذ أن اختفت زكية. وقالت سكينة: «يا سيدي هتفضل صايم لغاية إمتى؟ والجوع هيعمل إيه؟!» وسألها عن خليل، فأخبرته أنه خرج. قال: «فين راح والدكان مجفول؟»، فلم تجرؤ أن تخبره أنه ذهب إلى عزبة الصوالحة ليقابل إبراهيم أبو زيد. وأجابت بعد تردد: «مش عارفه راح فين». لو أنها أخبرت زوجها أين ذهب ابنهما لعرف على الفور أنها هي التي أوعزت إلى خليل بفكرة الانتقام من سلامة، ولجن جنونه وأفسد الخطة. فقد كان لها حديث طويل مع

زوجها، ولم تستطع إقناعه بأن ينتقم لشرف ابنته. كان محتقن الوجه جاحظ العينين وصدره يعلو ويهبط، كأنه على وشك الإصابة بسكتة قلبية. فسارعت إليه بقُلة الماء. وكان العرق يتصبب منه فساعدته على خلع عمامته وطاقيته وأسندت ظهره إلى الجدار. وكان يردد:

- هيه دي نهاية المشوار يا سكينه؟

مشوار طويل. عندما جاء جده مع أهله من البحيرة إلى هذه الناحية كانوا فقراء معدمين، فأكرمهم منصور المالك الكبير. أسكنهم واستأجر جده وبعض أبنائه للعمل في أراضيه. وكان راضي في الثانية عشرة من عمره عندما أرسله منصور ليجاور في الأزهر الشريف مع أربعة آخرين: فهمي وربيع ولديه، وسيد ابن أخيه، وفاضل ابن عبد وأمة أعتقهما. وكان من المفهوم ضمنا - ومن المقبول لديه ولدى أبيه - أنه هو وفاضل سيكونان في القاهرة بمثابة الخادمين لولدي المالك الكبير وابن أخيه. ولكن لم ينجح في الدراسة من بين الخمسة الموفدين إلى القاهرة إلا فاضل ابن الأمة، فهو الذي حصل على شهادة العالمية وأصبح قاضيا شرعيا. أما فهمي أكبر الجميع سنا وأعلاهم مقاما، فقد جد في الدراسة بضع سنوات إلى أن ضاق بها. فأمضى فترة يسير في ركاب المغنين والمشخصاتية والراقصات، ويصحبهم في جولاتهم في الأقاليم. ويروى أنه «رافق» إحدى المغنيات فصرفته عن الأزهر. ثم اختفى تماما. قيل إنه اشترك في ثورة سنة 91 وطلب القبض عليه، ففر إلى بلاد الشام ولم يعد. أما ربيع وسيد وراضي، فقد يئسوا من الأزهر والعالمية، وعادوا إلى القرية جميعا الواحد تلو الآخر. «شراجوه امخاخهم ناشفه» كما قال

منصور مسلما أمره إلى الله. ولم يحزن راضي طويلا على فراق الأزهر والقاهرة. واستقر بسرعة بين أهله يجني رزقه في البداية عن طريق تلاوة القرآن في المآتم وعن طريق الزراعة. استمر ذلك بضع سنوات إلى أن اكتشف أن التجارة هي باب الثروة الحقيقي. فربى الماشية لبيعها في أسواق الناحية وتاجر في الغلال. وتاجرت زوجته في الدواجن والبيض والزبد. كانت تقف في الصباح المبكر على السكة الزراعية يوم السوق لبيع بضاعتها. وكان كفاحهما طويلا؛ يحرمان نفسيهما مما ينتجان لكي يضعا القرش فوق القرش. ثم انفتح باب الثروة على مصراعيه عندما أخذ يتاجر في القطن، وأصبح لديه من المال ما يمكنه من شراء الأطيان بداية من القراريط حتى الأفدنة. وهكذا أصبح ابن الأجير المعدم في عداد الملاك، بل أصبح أكبرهم في القرية ونواحيها، وأشدهم نفوذا وهيبة. إذا عرضت للبيع قطعة من الأرض، كانت له الأولوية في الشراء. كان المشوار طويلا.. عندما كان يتلو القرآن في المقابر كان أجره من الفطائر التي تخبز ترحما على الميت. ولم يكن صوته جميلا فينافس غيره من المقرئين المشهورين الذين تدفع لهم أجور جيدة. وتوقف منذ زمن طويل عن تلاوة القرآن لقاء أجر، كما توقفت سكينة عن بيع بضاعتها على السكة الزراعية (وإن لم تتوقف عن التجارة في بيتها: يأتيها زبائنها حتى باب الدار). وأصبح لخليل دكانه على السكة الزراعية. أكرمهم الله وغمرهم بأفضاله، ولكن ها هي زكية قد وضعت نهاية لمشواره، ولن تقوم له بعد اليوم قائمة.

يئن ويتوجع كالمريض: «أودي وشي فين يا سكينه؟». مضى أسبوع على اختفاء البنت، أسبوع وهو مشلول لا يستطيع عمل شيء. عاجز تماما، لا يستطيع أن يتقدم ببلاغ إلى البوليس. ماذا

يقول لمأمور المركز - الذي يعرفه شخصيا - عن بنته؟ لا يستطيع أن يطلب إليه - أو إلى سواه - أن يبحث عنها. وماذا يفعل بها أو لها إذا عثر عليها؟ وهو في غيابها لا يستطيع أن يداري فضيحته. اختفت البنت، ولكن الفضيحة تواجهه أينما ذهب. الناس في الجامع ينظرون إليه في أسف وإشفاق، فانقطع عن الصلاة خارج البيت. ولن يتغير شيء حتى لو اختفت البنت إلى الأبد. سيظل ما حدث لها في ذاكرة الناس دائما لأن ما حدث لا نظير له في تاريخ القرية والناحية. لم يحدث قط أن اعتدى رجل على بنت بكر، وأن يُرى - فلا بد أنه رُئي - وهو يحملها إلى غيط الذرة. وكلما تخيل راضي بنته محمولة إلى غيط الذرة أحاط رأسه براحتيه، لأنها تكاد تنفجر.

وعندما قالت له سكينة: «جوم روح كلم زكي»، هتف في دهشة: «وأجول إيه لزكي؟»، فأجابت: «إلا تجول إيه؟ هو ده كلام يا ابو خليل؟ سلامه ابنهم، وهمه مسؤولين عنه، وهوه اللي ودا البنت في داهيه». وقال راضي: «يعني عاوزاني أتذلل لزكي، أتوسل إليه، أبوس على رجله؟»، فقالت: «تبوس على رجله إيه؟ بدل ما تبوس على رجله، روح هدده. جول له يا إما يتصرف في ابنهم يا إما ناخد طارنا منه. نشرب من دمه». وتلفت راضي مستنكرا: «نشرب من دمه يعني إيه؟ عاوزانا نجتل سلامه ولّا إيه؟ يعني احنا بتوع جتل يا سكينه؟ الجواسمه ممكن يجتلوا. دول عرب. لكن احنا؟ احنا ناس غلابه على باب الله. إنتي ناسيه إن الجواسمه خيرهم علينا، إن منصور أكرمنا وكان سبب علامي؟ أجوم أنا - حامل كتاب الله - أجتل؟ وأجتل مين؟ ابن منصور. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وذهل الرجل عندما رأى زوجته في مشهد لم يعهده من قبل. نهضت فجأة لتواجهه في غضب:

«فضك م الكلام بتاع زمان. احنا ولاد النهارده. الجواسمه ما هماش أحسن منا، ولا همه أغنى منا، وبناتهم مش أحسن من بنتي. روح يا راجل هدده». تتحدث وهي تضرب على صدرها بيدها. ثم هدأت قليلا فخفضت صوتها: «إذا التهديد ما نفعش، نجتل. ما نجتلشي ليه؟». نظر إليها زوجها في ذهول، لم يسمع في حياته كلاما من هذا القبيل. البحاروة أناس مسالمون لا يمكن أن يفكروا في القتل مهما حدث. وقال مستنكرا: «يعني إنتي عاوزاني أجتل؟». فردت على الفور: «تجتل ليه إنت؟ ما تكري اللي يجتل نيابة عنك». ولم يكن يعلم أنها عندما قالت ما قالت كانت تفكر في تكليف إبراهيم أبو زيد بأداء المهمة، وأن الفكرة وصلت إلى خليل. فقالت: «اعمل حسابك.. إذا ما رحتش لزكي، أنا اللي هروح له في الصيره واعمل جرسه».

وعندما استقبله زكي بعبارات المودة المألوفة، نسي - وهو ما يناسبه - ما قالت سكينة عن التهديد والثأر، فقال:

- احنا يا زكي جيران وإخوة، وأنا لا يمكن أنسى أفضال عمك منصور علينا. فلازم نحل المشكلة سوا، واللي تجول عليه أنا راضي بيه.

وتعجب زكي وشعر في أعماق نفسه بشيء من الشماتة. «اللي تجول عليه أنا راضي بيه»! سبحان مغير الأحوال! راضي الذي رفض أن يستمع إليه عندما رجاه متوسلا أن يمتنع عن شراء أرض أخيه يأتيه الآن ليطلب رأيه ويخضع له. ودارت في رأسه فكرة ما زالت تلح عليه منذ سنوات، وهي أن الزمن غدار. يأتيه راضي اليوم مكسورا بعد أن كان متصلبا. ولكن غدر الزمن

بأولاد قاسم أشد وأنكى. كانوا هم السادة أصحاب الأرض وكان البحاروة أجراء عندهم. ولكن كفة الميزان صارت تتحول لصالح المعدمين. أصبحت أرض القواسمة تئول إليهم ملكيتها بالتدريج. أمسكت زينب بزمام الأمور بعد وفاة زوجها وأدارت شؤون الأرض ببراعة وحزم. ولم يكن أحد من أبنائها الثلاثة يجرؤ على المطالبة بميراثه. فلما انتقلت إلى رحمة الله قسمت التركة على مستحقيها وتفتت الملك. أصغر الأبناء الثلاثة - أمين - مات ذات ليلة تحت وطأة المخدرات، وانتقل نصيبه إلى ولديه. وباع الأخوان الآخران - فهمي وربيع - ميراثهما وانتقلا كل مع زوجته إلى بلدها: أحدهما إلى الزقازيق والآخر إلى منيا القمح. وآلت الأرض بأكملها في النهاية إلى راضي، اشتراها قيراطًا فقيراطًا وفدانًا ففدانًا. وهو لا يشبع ولا يحمد الله على ما أوتي من نعمة. ولم يبق أمامه إلا أن يشتري نصيب أخيه محمود في الميراث. كم توسل إليه أن يرفض الصفقة، وكم توسل إلى أخيه ألا يبيع أرضه: «يا ابني لأ خلينا مع بعض وآديك بتاخد اللي انت عاوزه. عمري حشت عنك حاجه يا محمود؟ عمري رفضت لك طلب؟ مش أنا جوزتك وأهلتك وولادك همه ولادي؟ حتة الأرض بتاعتك لوحدها مش هتكفيك، وهتبيعها وتصرف الفلوس. طيب وبعدين؟»، ولكن الكلام مع المخ الناشف ليس له جدوى. بيعت قطعة الأرض، ولم يكن المشتري سوى راضي.

وها هو يأتيه خاضعا يريد أن يستمع إلى رأيه. ليكن إذن، سيسمعه رأيه. وبعد شرب الشاي زالت لهجة المودة والتآخي، وقال زكي بحزم:

- اسمع يا شيخ راضي. سلامه غلط لكنه ابننا واحنا نربيه. أما بنتكم...

وبعد فترة من الصمت رفع رأسه باعتداد:

- لو كانت زكيه بنتنا كنا ربيناها؛ لكنها بنتكم وانتم أحرار فيها.

قالها بلهجة توحي بأن القواسمة لا يتورعون عن القتل دفاعا عن شرفهم. أما البحاروة.. ماذا يمكن للبحراوي أن يفعل في مثل هذه الحالة؟ البحاروة أناس مسالمون يريدون أن يعيشوا في أمان الله، وليس لهم ميراث يفخرون به ولا أصول مجيدة. لا يريدون إلا الستر. ولكن ها هم قد انكشفوا أمام الخلق.. «بنتكم وانتم أحرار فيها». هكذا وضعه زكي بين المطرقة والسندان. إما القتل أو وصمة العار إلى الأبد. كلا لا يستطيع الإقدام على القتل أو استئجار من يقتلها نيابة عنه. وإذا عثر عليها، فلن تستطيع الخروج من عتبة الدار. هل يحبسها في الدار فلا يراها أحد حتى تموت؟ أليس قتلها إذن أهون من ذلك السجن المؤبد؟

- رأيك إيه يا سكينه؟

لم تنطق سكينة بكلمة واحدة. عندما سمعت ما رواه زوجها عن لقائه بزكي، رأت ألا جدوى من الكلام. كانت تعرف أن البنت تحب سلامة؛ لذلك حاولت منعها من الوجود في طريقه تلافيا للفضائح ولكي يفهم أن من يرغب في البنت لا بد أن يذهب إلى أهلها. وهي في حقيقة الأمر تخفي في نفسها أمنية لا تستطيع إعلانها، وهي أن يفتح الله عليهم بالزواج من أحد أولاد قاسم،

وليكن سلامة. عندئذ تتساوى الرءوس ويكسر الحاجز الذي يفصل هؤلاء عن أولئك. حاجز لا يُرى وإن لم يستطع أحد أن يتخطاه من قبل. ولن يستطيع أحد أن يتخطاه بعد أن حدث ما حدث. ما رأيها؟ لا جدوى من الكلام. الرجال - كما قالت لنفسها - أجبن أحيانا من النساء. كانت قد عقدت عزمها على القيام بالعمل المناسب.

* * *

القواسمة عرب لا يستحبون الزواج من الفلاحين ولا الأغراب إلا إذا كانوا من العائلات العريقة ذات الأملاك. والبحاروة الذين يساكنونهم في نفس القرية أغراب وفلاحون أجراء رغم أنهم أقاموا بين القواسمة لأجيال وصاروا ملاكا «على آخر الزمن». ولكن وجدت في تاريخ القواسمة الطويل حالتان استثنائيتان يضرب بهما المثل. ففي الزمن القديم يروى أن «سدّينه» (بنت قاسم فيما يقال) تزوجت من أبو جاد. وهو رجل لا يعرف عنه سوى أنه كان من الأغراب، وكان فيما تقول أغنية موروثة يرتدي طرطورا:

سدّينه ما تاخدي آبو جاد اللي طرطوره خوف الولاد

كان الجميع يعترض على زواج البنت التي كان يضرب بها المثل في الجمال لأبو جاد، ولكن قاسم أصر على زواجها من الرجل الغريب. فلماذا كان إصراره على ذلك رغم رفض البنت واعتراض أهلها؟ ولماذا جعل من بنته ضحية لزواج كريه ما زالت تضرب به الأمثال بعد عدة أجيال؟! ذلك ما لا يعرفه أحد. ولكن لشبانة نظرية يخالف بها القواسمة ويستنكرونها لأنه يبرر بها سلوك قاسم. يقول: «أنا مش داخل دماغي حكاية سدّينه دي. معجول شيخ العرب جاسم يجوز بنته لواحد فلاح بطرطور؟ آني في رأيي إن أبو جاد كان من كبار الملاك في الناحية وجاسم كان زعيم سياسجي؛ يعني الجوازة دي تمت لأسباب سياسيه». ولما سئل: «يعني إيه أسباب سياسيه؟»، قال: «زي ما الرسول عليه الصلاة والسلام إجّوز ماريا الجبطية. بعتها له ملك النصارى هديه عشان يبجوا صحاب. وانا بيتهيأ لي والله أعلم إن جاسم كان محتاج حتة أرض - جول مية فدان - يبني عليها العزبه ويزرع الباجي، وإن أبو جاد باع له الأرض بملاليم كأنها مهر لسدّينه». ويقول مخاطبا من كان حاضرا من القواسمة: «أمال عاوزين إيه؟ يعني الراجل كان يعمل إيه؟ ما هو لولا الجوازه دي، ما كنتوش تجدروا تجعدوا هنا وتبنو بيوت بدل الخيم وتزرعوا وتجلعوا. ما كانشي يبجى فيه عزبه». وإذا سئل: «طيب والطرطور؟»، أجاب: «آه. جالكم الكلام. الطرطور كان في الأصل طاجيه وبر طويله من اللي بيلبسها جيرانكم الصوالحة لحد النهارده وبكره لاجل العياجة. لكن الطاجيه بجت في الغنيوه طرطور».

ولكن أحدا من القواسمة لم يقتنع بنظرية شبانة. وظلوا على اعتقادهم أن ما فعله قاسم ظلم لا يغتفر وأن البنت ذبلت وذوت وماتت من شدة القهر بعد زواجها البائس بثلاث سنوات. يقولون: «عمرها انجصف»، وما زالوا يغنون أسى عليها عبر العصور:

سدّينه يا خدود رمـان يا ملاك من عند الرحمن

سدينه يا عيون الحور ما توافجي يا بنت الأسياد

دا جوازك من أبو طرطور ظلم ما يرضي رب العباد

أما الحالة الاستثنائية الثانية، فهي زواج فوزية بنت الحاجة زينب من حسن الجمّال من أولاد الصوالحة. فقرية القواسمة لا تبعد عن قرية الصوالحة إلا بمسافة كيلومترين على أكثر تقدير، ومع ذلك فإن موافقة زينب على زواج بنتها من فلاح ابن فلاح كانت حدثا لم يتوقعه أحد ولم يحلم به أولاد صالح. القريتان تواجه إحداهما الأخرى لا يفصل بينهما إلا طريق ضيق يطل على «الخليج» - وهو قناة ضيقة - ويمتد بموازاة أملاك أولاد قاسم ثم يتعامد على «خليج» آخر وطريق ضيق آخر يحددان بداية أملاك أولاد صالح. ومع ذلك فقد كانت هناك بين الطرفين مسافة اجتماعية هائلة يحترمها كلا الجانبين. فالقواسمة عرب والصوالحة فلاحون. فارق ما بين السماء والأرض. تتبادل الطائفتان الزيارات وحضور الأفراح والمآتم والمناسبات؛ وفي بعض الأحيان كان الصوالحة - شأنهم شأن أهل القرى الأخرى المجاورة - يأتون لصلاة الجمعة في جامع القواسمة (فهو بمثابة الجامع المركزي في الناحية)، ويقوم القواسمة بالواجب مثل

إطعام الوافدين في الصيرة. وكانت هناك بعض العلاقات التجارية. فالقواسمة يشترون من الصوالحة القثاء والبصل (للاستهلاك المحلي) والقطن (لأن الشيخ راضي يتاجر فيه). والصوالحة يأتون ببقراتهم إلى عزبة المناصرة ليعشرها ثور الطلوقة («الشاب» كما يسمونه). ثم هناك إبراهيم أبو زيد - رجل غريب لا أصل له ولا فصل جاء إلى عزبة الصوالحة واستقر بينهم، وهو يصل على نحو ما بين القريتين بما يقدمه للفاسدين والطائشين من أولاد قاسم من خدمات غير قانونية. أما التزاوج واختلاط الدماء بين الفلاحين الرجال من الصوالحة وبنات القواسمة، فهو أمر مكروه ومحظور وحد فاصل بين العالمين. فالقواسمة يعتقدون أنهم أشرف وأرقى من الصوالحة. هؤلاء أناس ملتصقون بالأرض لا يعرفون إلا العزق والحرث والحصاد. لم يعرفوا الخيل - فهم أصحاب جمال- ولم يكن لهم في يوم من الأيام عبيد. ولم يحدث أن أرسلوا أحدا من أبنائهم إلى الأزهر الشريف. بل لا يوجد عندهم كُتّاب، أبناؤهم يأتون إلى كتاب القواسمة. معظمهم يلبس الجلباب على اللحم، وينام في أي مكان. وفي الصيف ينام بعضهم فوق أسطح البيوت أو على مصاطب خارج البيوت، وفي الشتاء ينام بعضهم مدفونا في أكوام القش. وليس لهم تاريخ يعتزون به. وليس لديهم أوهام عن أجدادهم؛ «ناس إيدك والأرض» كما يقولون. وطعامهم سيئ (خبزهم أسود خلط فيه دقيق القمح الأبيض - علامة اليسر - بأنواع وضيعة من الدقيق مثل الذرة والحلبة)، ولا يأكلون في الغالب إلا لحم الجمل والقنفذ إن وجد. ورغم أن أغلبية القواسمة انتهوا مع مرور الزمن إلى حالة من الفقر، فما زالوا يعتقدون أن الفقر وقف على أولاد صالح. ورغم أن اللحم أصبح شيئا نادرا في حياة تلك الأغلبية، فكانوا يتندرون على جيرانهم لأنهم

يصنعون الكفتة بالذرة بدلا من اللحم المفروم. بل كانوا يدعون أن الصوالحة لهم أمراض خاصة بهم: القراع والاستسقاء، وسرطان المثانة. فكيف استطاع حسن الجمّال أن يتخطى تلك الحواجز ويتزوج فوزية بنت الحسب والنسب؟

يقول الناس إن الله جل جلاله عندما يهيئ الأسباب، فلا راد لقضائه. حدث ذات صباح مبكر أن استيقظت فوزية على جلبة خارج الدار. كانت أمها ما تزال نائمة، ولكنها خمنت أن حسن الجمّال قد بكر في العودة من الطاحونة بالدقيق. فهو منذ خمس سنوات يحمل قمحهم إلى الطاحونة ويقضي الليل أمامها حتى يأتي دوره في الطابور الطويل، ويعود بالطحين في الصباح. فنهضت البنت وفتحت باب الدار فتبين لها صدق ما خمنت. وأناخ حسن جمله وحط عنه أحماله. ولم تدر فوزية لأول وهلة ماذا تفعل. ولما أخبرته أن أمها ما تزال نائمة هم بالانصراف. فسألته لم لا يبقى حتى تأتيه بالفطور، فرفض بأدب. كان خجولا كعادته لا يجرؤ على رفع نظره إلى وجه البنت. ولكن الجمل رفض النهوض، وأراد حسن حثه بضربه بالعصا على عنقه فاكتفى بالإرغاء والإزباد. فلما ألح عليه بعصاه استدار غاضبا - والجمل إذا غضب توحش - وعض صاحبه في ساعده. صرخ حسن صرخة مدوية، وذعرت فوزية عندما رأت الدم يسيل من ساعد الفتى، فهرولت إلى داخل الدار لتعود بما تيسر من إسعافات أولية. فطهرت الجرح وحشته بالبن بدلا من رماد الكوانين «السكن»، ولفت حوله شريطا من القماش. وقالت: «حرام عليك يا حسن، الجمل جعان». وجاءت للجمل بعلف وماء. وعندئذ فقط قبل حسن الدعوة إلى الإفطار. واستيقظت زينب فرأته جالسا على المصطبة يشرب الشاي مطأطئا رأسه.

الولد مؤدب (زي البنت الكسُّوفه) وعفيف النفس. يأخذ ما تعطيه من أجر دون مساومة. فإذا سألته: «مبسوط يا حسن؟»، كان جوابه: «كلك خير وبركه يا جده». وطالما قالت عنه: «الولد لسانه حلو وما هواش جلنف زي ولاد صالح». وسرها أن بنتها قامت بالواجب. رب البيت هو الذي يؤدي هذه المهمة، فإذا غاب ناب عنه أحد أبنائه ولا سيما الابن الأكبر، فإذا غاب الابن خرجت الزوجة لاستقبال الضيوف، فإذا غابت خرجت لاستقبالهم البنت، وعليها عندئذ أن تتصرف كالرجال. عندئذ تكون بنت أبيها بحق. تلك هي الأصول، ووفقا لذلك الترتيب.

وعندما عاد حسن إلى أهله أخبرهم أنه يريد الزواج من فوزية. فأذهلهم بطلبه الجنوني. قالوا: «أهبل زي جدوده». كانوا يعرفون رأي زينب فيهم. قال أبوه: «يعني ما لجيتشي إلا بنت زينب؟ ما البنات ماليين الدنيا». وهو ما أكده عمه. وأقسم حسن: «يمين بالله ما اجوّز واحده غيرها». وكثر الكلام واللغط، فاستيقظ جده ورفع رأسه من تحت الحمل الصوف الثقيل ليقول: «إيه لزوم الدوشه دي؟ يا عالم وجعتم دماغي. رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. ما انت عارف يا حسن إن احنا مش جد المجام». وهنا تدخلت هنية زوجة سعيد عم حسن: «يا جماعه ليه عاوزين تسدوا نفس الجدع؟ جاعدين هنا وعماليين تفتوا؟ هوه حد منكم سأل زينب رأيها إيه؟». قالوا جميعًا: «ما احنا عارفين رأيها». فوجهت الكلام إلى الجد: «بجالك عشر سنين تنام وتصحا ع المصطبه. لا شغله ولا مشغله. ما فيش غير الأكل. جال إيه أنا تعبان، أنا عيان. اطبخوا لي فرخه آكلها واشرب شوربتها. بروني في اليومين اللي فاضلين من عمري. أنا رايح وانتو جايين». فقال الجد: «يعني واحد في سني يا هنيه عاوزاه يعمل إيه؟»، فردت

هنيه: «جوم اتعكز على عصايتك وروح اخطب للولد. يمكن زينب ترأف بيك، تنكسف تجول لك لأ». وغطى الجد وجهه بالحمل وهو يتمتم: «بنت كلب.. لسانها طويل.. مفتريه». ولكن هنية لم ترتدع. اقترحت عليهم أن تذهب إلى زينب لتجس نبضها، فرحبوا على الفور حتى تعفيهم من الحرج. وعادت هنية لتخبرهم بأن زينب غيرت الموضوع عندما فاتحتها فيه. فقال زوجها: «جالك الكلام إذن؟ مش جلنا لك يا بنت الناس؟»، ولكن هنية كان لها تفسير آخر: «آني متفائله خير، يمكن يكون السكوت علامة الرضا».

والواقع أن سكوت زينب كان تعبيرا عن الحزن والتردد. هي تعلم أن بنتها ترى الولد وهو يتردد عليهم طيلة سنوات، فهل يا ربما يكون بينهما شيء؟ الولد طيب و«زوج»، ولكنه فلاح ابن فلاح. وفاتحت بنتها في الموضوع، وقالت: «آني مش راضيه عن الجوازه دي يا فوزيه؟ وأبوك لو كان عايش كان رفض. إيه رأيك؟»، قالتها وكانت ترجو أن تكون بنتها عاقلة فتسمع كلام أمها وتقول: «اللي تشوفيه يا امه». وخيل لزينب أن ذلك ما سيحدث عندما طأطأت فوزية رأسها ولم تنطق بكلمة. إلا أن البنت عندما رفعت رأسها في النهاية كانت الدموع تهطل من عينيها، ونطقت بعبارة نفذت إلى فؤاد أمها: «يعني انتي عاوزه في الآخر تجوزيني واحد ما ليش غرض فيه زي ما جوزوا سدينه؟». وانزعجت زينب انزعاجا شديدا، فكأنها رأت أمامها سدينه وقد بعثت من موتها لتشكو ما وقع عليها من ظلم. وحسم الأمر. ولم يمضِ أسبوعان على حادثة الجمل إلا ووجدت زينب ببابها وفدا من الصوالحة: الجد - الذي لم يغادر موقعه على المصطبة لعشر سنوات - على عكازه وأبا حسن وعمه. ولم

تتردد طويلا في القبول. وبعد ذلك التوفيق سارت القصة بين الناس. وقد يختتم الراوي روايته بقوله: «لولا عضة الجمل ما كان حسن طال فوزيه. لكن تجول إيه؟ الصبح كان بدري، والبنت عطفت على الولد، وزينب جلبها رج لبنتها الوحيده. ربك هيأ الأسباب. ربك أذن». ويعقب السامعون بقولهم: «ونعم بالله». وكل هذه الأقوال كان مؤداها أن زواج فوزية من حسن كان حادثة استثنائية لا يقاس عليها ولا ينبغي لها أن تتكرر. لذلك لم تقتنع أم سلامة بوجاهة زواج ابنها من بنت البحاروة. كانت تقول: «زينب عملت اللي عملته، وراحت. أنا مش زينب. وحسن أي نعم فلاح، لكنه مش بحراوي. وفوزيه ما هياش زكيه. زكيه دي واحده فاجره، فضلت ورا ابني لما وجّعته في الغلط».

* * *

زغردت ناعسة فعرفت فوزية على الفور أن المولود ذكر. وقالت: «هنسميه مدحت». وتساءلت ناعسة: «وليه مدحت يا ست الكل؟ أبوه مش هيرضى. ما نسميه أحمد ولَّا عبد الحميد؟ بسمع الناس بتجول: (خير الأسماء ما عُبد وحُمد)». قالت فوزية: «ما لناش دعوه.. هنسميه مدحت وخلاص. الترك بيسموا مدحت». وفهمت ناعسة، فالترك الذين انتهى حضورهم منذ زمن بعيد ما زالوا مشهورين لدى أولاد قاسم بالبياض والوسامة والزعامة. غير أن فرح فوزية بوليدها لم يدم طويلا. فعندما جاءتها الداية به صدمها مرآه وأشاحت بوجهها عنه، وقالت في أسى: «الولد شين يا ناعسه». قالت ناعسة: «يا ختي استني عليه شويه، الولد لسه نازل من بطنك». وبكت فوزية: «يا ميلة بختي، الولد ميت يا ناعسه». وبهتت ناعسة، ولم تدرِ ماذا تقول. لقد

بذلت جهودا مضنية في إخراج الطفل - كانت الولادة متعسرة بدأت بعد منتصف الليل وها هو أذان الظهر قد ارتفع - ولكنه لم يصرخ ولم يصدر عنه صوت أو حركة. يبدو أنه ميت بالفعل؛ هذه مشيئة الله. ولم تجد ناعسة ما تفعله سوى غسل الوليد ولفه بعناية ووضعه تحت مشنّة الخبز إلى أن يقرر أهله دفنه. وانصرفت وفي قلبها حسرة: «الله يكون في عونك يا فوزيه». وعندما عادت إلى بيتها وجدت ابنها يصرخ جوعا، فأرضعته حتى غلبه النعاس شبعا. عندئذ خطر لها خاطر فجأة: «إيه حكاية الولد اللي نازل ده من بطن أمه لا صرخه ولا همسه؟» ، فأنزلت ابنها عن صدرها وعادت مهرولة إلى بيت فوزية. ورفعت الغطاء عن الطفل ووضعته في قروانة من الماء الدافئ ودلكت جسمه وأطرافه طويلا حتى رأت عرقا ينبض في بطنه، فأطلقت زغرودة ثانية كانت طويلة ومجلجلة.

زغرودة أسعدت الجميع، وإن لم يهنأ الأب طويلا بسعادته، فقد توفي بسرطان المثانة بعد مولد الطفل ببضعة شهور. أما الأم، فقد ظلت شقية بدمامته إلى أن توفيت وهو في الثالثة من عمره. بل ويبدو أنها أثناء حياتها تركته لأمها ولناعسة التي أرضعته سنتين مع ابنها إسماعيل الأبكم الأصم. ولما توفيت الجدة عندما كان الطفل في الرابعة من عمره، آلت رعايته إلى ناعسة. إلا أن مدحت لم يفتقر قط إلى من يرعاه. فبالإضافة إلى جدته زينب - طالما بقيت حية - ومرضعته، كانت هناك هنية امرأة عمه في قرية الصوالحة: فهي تدفع لناعسة أجرها كما حددته زينب، وتحرص على أن يحمل الطفل إليها مرة كل أسبوع لتراه. كان لها عدة أبناء - ثلاثة ذكور وبنتان - ولكن مدحت كان «ابنها» أيضا. ألم تخطب أمه لأبيه وكسرت بذلك الحظر المفروض على

الزواج بين العشيرتين؟ وكان باستطاعة الطفل إذا شعر بالجوع أو التعب أن يلجأ إلى أي بيت من بيوت أولاد قاسم فيجد من يطعمه أو يئويه. وهي مزايا اكتسبها لأنه يتيم الأبوين، ولأنه في نهاية المطاف ابن زينب.

وكان لهنية بيت كبير باباه الأمامي والخلفي مفتوحان طيلة النهار، وباستطاعة كل من شاء أن يدخل من كلا الجانبين دون استئذان. وكانت الدار تستقبل صغار الحيوانات من الماعز والغنم. أما الكلاب فلم يكن مسموحا بدخولها ولعق المواعين أو لمس سكان البيت؛ فهي في حكم الشرع نجسة ولمسها ينقض الوضوء ويستبعد من ثم جواز الصلاة. وهي بصفة عامة كلاب ضالة تتوالد بعيدا عن العيون في الحقول أو الخرابات، ولا يستأنسها أحد أو يدللها، إلا أن تفرض نفسها لتؤدي خدمة دون أن يطلب إليها ذلك. إذ يحدث أحيانا أن يفرض كلب نفسه على من يرعى الغنم فيتقبله الراعي كحارس للقطيع، وتقتصر العلاقة بينهما على أداء الخدمة عن بعد مع إطعام الحارس كيفما اتفق. ثم ظهر كلب أسود ضخم فرض نفسه على بيت هنية وتقبلته العائلة على نحو ما. لم يكن مسموحا له بدخول البيت، وكان والحق يقال يعرف حدوده. يظهر في مواعيد الأكل فيقف صابرا غير بعيد من الآكلين الملتفين حول طبلية الطعام أمام البيت إلى أن ينهره أحد فيمضي إلى حال سبيله، أو يلقي إليه بشيء من الطعام. وظل الكلب الأسود يأتي ويذهب إلى أن صاحبه مدحت. أصبح يتقاسم طعامه معه أو يطلب إليه نصيبا، بل ويشاركه في بعض تصرفاته الكلبية كأن يمشي على أربع أو يقعي وينبح. فالطفل يعتقد أنه من فصيلة الكلاب، ويثير ضحك هنية ويجعلها مكتوفة الأيدي بإزاء هذه العلاقة الغريبة. ثم قرر الطفل ذات يوم أن يطلق على

صاحبه اسما كأسماء البشر. سماه «فريد»، وكانت تلك هي أول مرة في تاريخ القرية التي يطلق فيها اسم على كلب، ناهيك عن اسم من أسماء بني آدم. قد يفوز الحيوان بصفة أو لقب بصفة استثنائية، مثل جاموسة هنية التي وصفت في فترة الحمل بـ «المبروكة» وقاية لها من شر الحسد وحفظا للجنين، ومثل وليدها العجل الصغير الذي سمي لفترة وجيزة «رزق» على سبيل الفكاهة ولأن مولد العجل رزق من عند الله وعلامة من علامات الخير. أما أن يطلق اسم دائم على حيوان، ويصبح بفضله فردا متميزا أو شخصا يعمل له حساب، فهو أمر لم يُسمع به من قبل، ولم يستحدثه لأول مرة إلا مدحت أبو حسن.

في لحظة واحدة تغيرت حظوظ الكلب في الحياة عندما قدمت هنية لمدحت سلطانية من اللبن وقطعة من الخبز، فسألها:

- وفين نايب فريد؟

تلفتت:

- فريد مين يا وله؟

ودهشت عندما أشار مدحت إلى الكلب:

- ما هو جاعد جدامك أهوه.

ولكنها استوعبت ما حدث بسرعة وقالت وهي تضحك:

- يعني الكلب بجا له إسم يا مدحت؟

وعادت هنية بنصيب الكلب من الطعام. وفي البداية ظنت أن التسمية ليست إلا نزوة عابرة، ولكن مدحت كان جادا تماما ومتسقا تماما في استخدام اسم «فريد» إلى أن اعتمده سائر الناس. ولم تعترض فريدة بنت إبراهيم أبو زيد على إطلاق اسم مشتق من اسمها على الكلب؛ كانت تعلم أن مدحت فعل ذلك حبا فيها. وأصبح الكلب يرافق الطفل أينما ذهب؛ فهو يتنقل مثل صاحبه بين أولاد قاسم وأولاد صالح، وأصبح أهل القريتين يتقبلونه عن طيب خاطر لأنه يحرس الطفل الضئيل - «زي الجرادة» كما يقولون - في تجواله في الحقول حيث تكمن الثعالب والذئاب. ورغم أن زينب كانت أكثر من هنية تشددا فيما يتعلق بنجاسة الكلاب، فقد تقبلت الكلب واعتمدت تسميته، وبدأت تقدم له معاملة خاصة - كأن يكون له نصيب في الطعام مثله مثل مدحت - على ألا يدخل البيت. كانت سعيدة لأنه أصبح حارسا شخصيا للطفل يتبعه أينما ذهب. وما أكثر جولات مدحت هنا وهناك منذ وقف على قدميه. فهو لم يُضع وقتا طويلا في الحبو ومحاولة النهوض. بل نهض دفعة واحدة - بين يوم وليلة - وأخذ يمشي. وعندئذ لم يعد هناك ما يحول بينه وبين السير في كل اتجاه. بدأ يتجول مع مجموعة من الصبيان الذين يكبرونه سنا: يعبر معهم الترعة إلى بلاد الصعايدة ويقتحم معهم أدغال البوص وأحراج الصبار (لجمع ثمار التين الشوكي) وسرقة البلح. وعرف طريقه إلى قرية أعمامه مع غيره أو وحده. حتى أسمته جدته «البراوي» (نسبة إلى البرية) أو «الجبلاوي» (نسبة إلى الجبال). إلى أن ظهر فريد كحارس للطفل فتنفست الجدة الصعداء: تستطيع الآن أن تطمئن على سير الطفل بين الحقول.

كان لديها أكثر من سبب للقلق على الطفل البراوي، فهو الابن الوحيد لابنتها الوحيدة، وهو معتل منذ ولد، وهو لا يقبل على الطعام، ولا يلقى كثير اهتمام من أمه. وأصبح يلقى من جدته عناية خاصة لا يحظى بها أي من أحفادها. لم تكن تكتفي بإطعامه مع غيره من الأطفال، فهو لا يستطيع أن يجاريهم بشهياتهم «المفتوحة». فكانت تأخذه إلى غرفة في البيت وتقدم له ما يحبه من الطعام مثل الموز والملبن. وحدث ذات يوم أن مرض بالدفتيريا، وكان العلاج هو الكي أسفل الإبط من ناحية الظهر. صحيح أن الناس يرددون القول السائر «آخر الطب الكي»، فقد كانت لديهم أشكال أخرى من الطب الشعبي: حلاق الصحة يتولى أمر الأسنان والختان وأمراض العيون، وتضميد الجروح؛ وهناك أخصائيو الحجامة (فصد الدم) والجبارة (علاج كسور العظام)، بالإضافة بطبيعة الحال إلى ممارسي السحر وكتابة الرقى والتعاويذ. ولكن الدفتيريا - قاتلة الأطفال - أعيت الطب المعروف، ولم يكن لها من علاج إلا الكي، فهو من الناحية العملية الحل الأول والأخير. وجاء أخصائي الكي فشمر عن ساعديه وأوقد النار وأحمى مسمارا غليظا مما يستخدم في الحدادة حتى تلظى وتحول لونه إلى البياض، وسمى الرجل بسم الله الرحمن الرحيم تمهيدا لإنزال المسمار على موضعه المناسب. وكانت زينب ترقب ما يجري بصبر واهتمام إلى أن رفع الطبيب المسمار المتلظي لكي يهوي به على جسم الطفل، فصرخت: «حد الله. إبني ما ينكويش بالنار»، وحالت بينه وبين المريض. قال الرجل: «أمال نعمل إيه يا حاجّه؟»، فقالت: «إبني هيروح للدكتور في أبو كبير». ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يُكوى فيها أحد أحفاد السيدة برضاها. إلا أنها لم تحتمل أن يلقى ابن

بنتها نفس المعاملة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها طفل إلى طبيب بحق وحقيق في أبو كبير.

واعترضت بعض النسوة في قرية القواسمة على الصداقة التي تربط مدحت بفريدة:

- يعني ما لجيش إلا بنت الحرامي يصاحبها؟

فقالت زينب:

- سيبوا الولد في حاله، مسكين لا ليه أخ ولا أخت.

ولكن مدحت رغم انعدام الإخوة والأخوات كان تحت حراسة من عالم الغيب مثله مثل جاموسة هنية. كان إذا تعثر فوقع قالت ناعسة:

- إسم النبي حارسك وضامنك.

أما زينب، فكانت تقول:

- إسم الله عليك. أختك تحرسك.

وكانت الأخت المعنية توأما تسكن تحت الأرض وتتدخل لحماية الطفل إذا أصابه مكروه. أما فريدة، فكانت بمثابة الأخت الكبرى. ضمت مدحت إلى «عصابتها» من الأطفال، وكانت أكبرهم سنا وأشدهم جرأة وأكثرهم مهارة في بعض الأمور، فكانت هي القائد في اللعب والحكم في التنافس والمسابقات. وكانت لها مزايا

أخرى في نظر مدحت لأنها كانت تخصه بالاهتمام وتلعب معه أحيانا على انفراد وعندئذ تطلعه على ما لم يكن يعلم من حقائق الحياة.

******

توافد إلى الصيرة عدد من القواسمة: الشيخ حامد والشيخ سيد أبو سلامة والست نوال أمه وشبانة عمه، وأبدى كل منهم رأيه فيما حدث. قال شبانة:

- آني مش فاهم إيه المشكله. سلامه غلط، يصلح غلطه؛ يجّوز البنت، وكان الله يحب المحسنين.

فهتفت الست نوال:

- حد الله. ابني ما يجّوزش بحراويه.

ورد عليها شبانة قائلا:

- إيه حكاية الجواسمه والبحاروه دي؟ ما كلنا مسلمين. سيدنا محمد جال: «تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة».

واحتجت الست نوال بقولها:

- البنت فاجره؛ هيه اللي لعبت بعجل ابني، هيه...

وقاطعها سلامة:

- يا امه حرام عليك.. البنت ما لهاش ذنب، أنا اللي غلطان.

وأكد الشيخ سيد ما قال ابنه:

- سلامه غلطان. يبدو أنه ارتكب الفاحشة، ولكن يجب التحقيق - هل قبّلها، أم فاخذها، أم أولج فيها؟ - واستدعاء الشهود إذا وجدوا.

وصاحت فيه زوجته:

- يا خويا ما توديش الولد في داهيه، بلا أولج بلا ما أولجش. إيه الكلام ده؟

وتدخل الشيخ حامد:

- ما حدش بيلومه على إنه حب زكيه، كان واجب عليه يخزي الشيطان ويتعفف. الدين لا يرفض الحب العذري. قال الرسول عليه السلام: «من أحب فعف فكتم ومات مات شهيدا»، وأحسن جميل بثينة عندما قال:

وإنـي لأرضى من بثينـة بالذي لو ابصره الواشي لقرّت بلابله

بـلا وبألا أسـتطيع وبالمـنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله

فيه إيه أحسن من كده؟

وتدخل زكي بلهجة حازمة ليحسم الجدل:

- أنا جلت للشيخ راضي إن احنا مالناش دعوه ببنتهم.. يربوها بمعرفتهم، واحنا نربي ابننا، ولازم نربيه.

وعاد الشيخ سيد إلى الهجوم:

- إذا ثبتت عليه الفاحشة عن طريق الاعتراف أو الشهود يقام عليه الحد مائة جلدة.

فقالت الست نوال:

- ما حدش يلمس ابني، ابني مش غلطان.

وانبرى شبانة لأخيه:

- إحنا عمرنا ما شفنا حد بينجلد لأنه زنا أو تنجطع إيده لأنه سرج. المسلمين بطلوا العادات دي من زمان.

واستعاذ أخوه من الشيطان الرجيم وقال:

- إياك أن تنكر الحدود وإلا كفرت.

ووجه سلامة الكلام إلى الشيخ زكي:

- أنا غلطان يا عم، وأنا راضي باللي تجول عليه.

عندئذ نهض زكي وتناول فردة من فردتي بلغته وانهال بها ضربا على عنق سلامة وكتفيه بينما أخذ سلامة يصيح:

- إضرب يا عم.. إضرب.. أنا أستحج كل اللي يجرا لي.

وضربه زكي حتى كلت يده. ثم أمر الجميع بالانصراف. وقال لسلامة:

- ده مش آخر حسابي معاك. تمشي مع ابوك وامك، وما تخرجشي م البيت إلا أما أديك إشارة...

وأمر الجميع بالانصراف يأسا. كان يعلم أن عشرين أو ثلاثين ضربة بالبلغة لا تكفي، وأنها ليست هي «التربية» التي يستحقها سلامة جزاء على الجريمة التي ارتكبها. ولكنه لم يكن يعلم ماذا يفعل عدا ذلك. لو أنه كان في حالة أفضل، لو أنه كان في حالته الطبيعية، فلربما وجد للمشكلة حلا. ولكن عقله مشوش، وفي نفسه شعور عميق بالهزيمة والعجز. شعور بأن قدرته على الحسم قد فارقته. واستنجد بآل البيت الذين يزور أضرحتهم في القاهرة: «مدد يا حسين.. أنا طنيبك يا زينب».

وأطلت نفيسة، فلم يتعرف عليها لأول وهلة. رأى عجوزا بدينة ترتدي ملابس سوداء وتسير بصعوبة.

- مسا الخير يا زكي.

ولكنه لم يرد، بل ظل ينظر إليها مذهولا كأنه يرى شبحا. ولم يتعرف عليها إلا عندما ألقت عليه تحية المساء للمرة الثانية. عندئذ مسح بكفه على وجهه كمن ينهي دعاءه وقال: «وانت من أهل الخير يا عمه.. اتفضلي».

وقالت نفيسة:

- جتني حميده من شويه وحالتها عيضه وجالت لي كلام زي الهباب مش عاوزه اعيده. تجول اللي تجوله، معذوره. زكيه بنتها وإنت عارف جلب الأم.

وهز زكي رأسه:

- عارف يا عمه، لكن احنا صالحنا إيه؟ هيه بنتهم.. يعملوا اللي همه عاوزينه.

- إزاي يا زكي؟ ده كلام برضه تجوله؟ يعملوا اللي عاوزينه إزاي يا حبيبي؟ أمال إنت فين؟

- بتسأليني عن رأيي؛ البنت تستحج الجتل.

- ليه عملت إيه يا حبيبي؟

- إلا عملت إيه؟ بتسأليني آني؟ ما سمعتيش الكلام اللي داير في العزبه؟

- كلام إيه يا زكي؟ هو حد كان مع سلامه والبنت وهمه في غيط الدره؟ حد شافهم كانوا بيعملوا إيه غير ربنا؟

بوغت زكي بالسؤال، وقال بعد تردد:

- ويعني إنت كنت معاهم يا عمه؟ شفتي عملوا إيه؟

- لأ ما شفتش. لكن آني عارفه البنت كويس، وعارفه سلامه كويس. عاوزه أجول لك حاجه: إن بعض الظن إثم، وهوه الجتل حاجه سهله يا زكي؟ تجتل بنت في عز شبابها عشان بتظن؟

ثم ساد الصمت إلى أن قال زكي:

- وازاي يتمسح العار يا عمه؟

فأمسكت بيده:

- الكلام ده ما لهوش لزوم يا زكي ...

وصارت تبكي:

- ربنا يلين جلبك يا زكي. إسمع كلامي. أنا زي أمك. أنا ربيتك يا حبيبي، وياما شلتك على دراعاتي دي.. وسلامه عندي في مجام هاشم، وزكيه زي بنتي.

وأدار زكي رأسه:

- أهي غارت في ستين داهيه.

قالت نفيسة وهي تجفف دموعها:

- البنت حكت لي كل حاجه، وانا مسدجاها.. سلامه حضنها وباسها. وإيه يعني؟ الدنيا خربت؟ دا كله لعب عيال.

وسألها زكي:

- تستحج الجتل ولَّا ما تستحجوش. إحنا مالنا؟ إنتي بتشيّليني الهم ليه يا عمه؟ ما هي غارت في ستين داهيه.

وقالت وهي تهم بالانصراف:

- ما غارتشي ولا حاجه، البنت عندي في البيت.

وقال زكي في ذعر:

- عندك يعني إيه؟ الله يخليك اجعدي، ما تمشيش.

- هيه هتهرب تروح فين؟ جت عندي، وانا جافله عليها ما تشوفشي حد ولا حد يشوفها. وما حدش هيلمس شعره فيها بدام دخلت بيتي.

وسألها زكي بأسى وهو يكاد يبكي:

- ليه يا عمه عملتي كده؟

فأجابت:

- جت واستنجدت بيه. ما انجدهاش؟ لو كانت زينب عايشه وجت لها زكيه، تفتكر كانت تطردها؟

وقال بصوت خافت:

- البنت في بيتك يعني أصبحت دلوجت في رجبتنا، نعمل إيه يا عمه؟

فأجابت وهي تنهض واقفة بصعوبة:

- نعمل إيه؟ عاوزني أنا أجول لك تعمل إيه يا زكي؟ فين عجلك يا حبيبي؟ أنا والله زعلانه منك... ساعد البنت الله يخليك.

وظل جامدا لا يطرف له جفن، فانحنت على يده تريد تقبيلها:

- هات إيدك إما احب عليها، بس ساعدها.

فسحب يده منزعجا:

- معاذ الله يا عمه، أنا أبوس على إيدك وعلى رجلك بس ما تطلبيش مني الطلب ده.

وتوقفت عند الباب لتتوسل إليه «بالعيش والملح والمحبة»، فلم يحرك فيه كل ذلك ساكنا.

* * *

هو الآن في مصيدة. كان قد استراح كما استراح الجميع لأن زكية اختفت، فباختفائها انحصرت المشكلة في تأديب سلامة، وسلامة «يتجدر عليه»، سيرضى بأي عقاب يرتضيه عمه. ولكن ها هي العجوز قد أفسدت كل شيء عندما أخذت البنت تحت جناحها. وضعتها بذلك أمانة في عنق القواسمة، وفي عنقه

هو شخصيا. كأنه ليس لديه ما يكفيه من أعباء ومسؤوليات. وأثقل أحماله أنه يشعر منذ فترة أن كل شيء إلى زوال، وأن القواسمة لم يعد لهم نفوذ، وأن سلطته هو نفسه إلى زوال، وأنه أصبح غير قادر على دفع الأذى عن نفسه ناهيك عن دفع الأذى عن غيره. «فين عجلك يا زكي؟» صحيح فين عجله؟ عجله أصبح لا يطاوعه. العجوز ترى أن عليه أن يزوج سلامة لزكية. لم تصرح بذلك. لكن هذا هو ما ترمي إليه. وهذا هو ما رآه شبانة الأفيونجي. وسيقال له إن هذا هو الحل الذي كان سيرضي زينب، وإنه الحل الذي يرضي الله ورسوله. ولكنه لا يمكن أن يوافق عليه: «أنا آسف يا عمه، آسف يا زينب، آسف يا جماعه. ما اجدرش، كله إلا ده». شبانة الأفيونجي - الذي يأتي إليه ليستشهد بأقوال الرسول في التناكح والتناسل - لا يستحق إلا القتل. فاجر يشرب الخمرة - في أبو كبير، فأخباره تأتيه - ولا يتورع عن ارتكاب المعصية، ولا يهمه إلا أن يكون مسطولا. يجمع حوله الصبية في الجرن ليشككهم في كل شيء ويسخر من القواسمة ويهدم كل ما بنوا. وراضي يأتيه متذللا ومتوسلا ويتحدث عن الجيرة والأخوة، وهو الطماع المتجبر الذي لا يهتم بشيء إلا بمصلحة نفسه. لم يعرف عنه في يوم من الأيام أنه أغاث ملهوفا أو أكرم ضيفا أو عطف على مسكين؛ لم يفتح كيسه ليتبرع من أجل ترميم الجامع، ولا يريد أن يساهم في إعمار الصيرة، وحين طلب إليه ذلك، قال: «الدنيا اتغيرت يا زكي، والصيره راحت عليها. حد دلوجت بيفتح باب ع البهلي للضيوف ولكل عابر سبيل؟». هذا رغم أن الله لم يبخل عليه: أعطاه بالطول والعرض. يتاجر في القطن والغلال، وامرأته تتاجر في الدواجن والبيض والزبد، ولابنه دكان على السكة الزراعية. يبيعون الهواء إذا استطاعوا. ولم يتوقف عن التهام أملاك أولاد قاسم. يتودد لزينب

طيلة حياتها لأنه يخشى بأسها. ولكن ما إن تنتقل إلى رحمة الله حتى يتوغل ويتوسع فيما تركت. اشترى أملاك أبنائها الواحد بعد الآخر. ولم يكفه ذلك ، بل استدار إلى أخيه الأصغر ليغريه ببيع نصيبه في الميراث والانفصال عن أخيه الأكبر. وظل يغري أخاه بزيادة السعر حتى وقع الأهبل في أحابيله. ولا يكفيه أنه أصبح يتحكم في كل شيء. يريد الآن أن يصاهر القواسمة لكي يصبح جزءا منهم... سلامة حمار وعلى نياته. إذا تزوج منهم سينسى أهله.. سيخضع لزوجته وحماته وحميه، ويصبح أبناؤه أبناء أخوالهم البحاروة. ويصبح البحاروة هم أهل البلد، ويصبح أولاد قاسم أجراء عندهم.. هذه نهاية الزمان. سيموت وسيشتري راضي أرضه من أولاده. وإذا مات راضي قبله - فهو أكبر منه سنا - سيتولى المهمة ابنه خليل نيابة عنه، ويكون ذلك نهاية الزمان.. «آسف يا عمه، آسف يا زينب، آسف يا جماعه. ما اجدرش. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها».

وكان يشد على قبضته كأنما يريد استجماع كل قواه في رفضه لما يراد منه، عندما سمع حركة في الركن المجاور للباب. ورفع رأسه بعد إطراق فرأى زكية، وأصابته رجفة: كيف برزت من الظل شاحبة الوجه حاسرة الرأس لا تكاد ثيابها الممزقة تسترها؟ ماذا تريد البنت منه؟ وصاح فيها: «إيه اللي جابك يا زكيه؟ إنتي مش وسّطتي عمتي؟ مش كفايه؟». ورآها تفتح فمها بكلام لم يسمعه. فصاح فيها مرة أخرى: «عاوزه إيه يا بنت؟». وأخيرا وصله الكلام، نطقت بعبارة واحدة: «آبا زكي. أنا في حماك». قالتها - وعيناها مسددتان عليه - ثم ذهبت كما جاءت. تراجعت، انسحبت، وابتلعها ظلام الركن كما انشق عنها. واشتد انزعاجه، وفرك عينيه: أهي زكية بلحمها ودمها أم أنه رأى والعياذ بالله

شبحا؟ هناك قوة خفية أحكمت قبضتها على قلبه، تعمل على تصدعه، تريد كسره. فسجد في اتجاه الركن القريب. وكان ينتحب: «إن كانت هذه مشيئتك، فلتكن. لكن لا تتخلَّ عني، نحن جميعا في حماك».

وكان الليل قد انتصف عندما أرسل إلى راضي يستدعيه على عجل، وجاء راضي مضطربا ممتقع الوجه متوجسا، وقال بصوت لا يكاد يسمع:

- خير إن شاء الله يا شيخ زكي.

قال زكي:

- أجعد. أنا عاوزك تطمّن على زكيه. البنت بخير وهيه في الحفظ والصون.

وسأله راضي متلهفا:

- هيه فين؟

فأجابه زكي:

- جبل ما أجولك هيه فين عاوزك تعمل فيه جميله الله يخليك.

- اللي تجوله يا زكي أنا راضي بيه.

- زكيه بنتي وهيه في بيتي، كأنها في بيتك.

- طبعا يا زكي، عداك العيب.

- إحنا طالبين منك الجرب في زكيه لابننا سلامه، جلت إيه؟

وأطرق الشيخ راضي ليخفي دموعه. وقال زكي:

- هات إيدك نجرا الفاتحه.

وقرآ الفاتحة. ثم قال:

- والبنت لازم يكون لها مهر. ده زي ما انت عارف حكم الشرع. والمهر عليه...

- طول عمرك جدع يا زكي. ربنا يطول عمرك. لكن فين البنت؟

وضحك زكي:

- ما جلتلك اطّمن. كأنها في بيت أبوها. بكره الصبحيه هتكون عندك في البيت معززه مكرمه، وبعد صلاة المغرب تيجي مع المأذون ونكتب الكتاب. والفرح بعد شهر الصيام بإذن الله.

وابتسم زكي بعذوبة عندما خطرت له فكرة أخيرة راقت له، وقال:

- وبالمناسبه يا شيخ راضي. يعني انت أكبرنا سنا وأكترنا علما. فإنت أخونا الكبير والبلد ما تستغناش عنك. عاوزك الله يخليك تاخد بالك م الجامع.

ورد راضي على الفور:

- أنا تحت أمرك.

فقال زكي:

- صيانة الجامع لازمها فلوس الله أعلم كام، لكن نسأل. إيه رأيك؟

وقال راضي:

- أنا مستعد.

وشاع في نفس زكي شعور بالرضا. ها هو قد بدأ يمسك بالمشاكل واحدة واحدة. فاستأنف الهجوم:

- وبعدين إنت ما يرضيكشي حال الشيخ حامد. الراجل هوه وولاده بعد وفاة زينب أصبح في حاله يرثى لها. كانت واخده بالها منه. وزي ما انت عارف من غيره ما فيش كتّاب ولا علام للصغار. معجول؟ إيه رأيك نعمل له مرتب شهري؟ يعني جرشين يمشي بيهم حاله على ما ييجي موسم الغله ولّا الدره.

فقال راضي:

- اللي تجول عليه ماشي يا شيخ زكي.

وجاءه الرد:

- طيب نجول جنيه في الشهر.

وقال زكي كأنما تذكر شيئا أخيرا:

- الله يرحمك يا زينب. كانت بتوالي الصيره دايما. الصيره يا سيد العارفين محتاجه فرش، ولازم تكون دايما جاهزة للضيوف يعني عدة الجهوة والشاي، والعيش والملح والميه. أمّال الغريب اللي بييجي بالليل والناس نايمين ياكل إيه ولّا يشرب إيه؟ وكله بثواب عند الله. فالحاجه دي نص عليه ونص عليك. إيه رأيك؟

وبعد أن وافق راضي على هذا المطلب الأخير اتجه نحو الباب بهدوء وحذر، كأنه لا يريد أن يأتي بحركة - أي حركة - قد تفسد الاتفاق الجميل الذي توصل إليه مع زكي. لقد كتب الله له عمرا جديدا، وكل ما يريده الآن أن ينجو به، أن «ينفد بجلده». شرف بنته مصون - لك الحمد والشكر يا رب. ولأول مرة في التاريخ تكسر الحواجز بين القواسمة والبحاروة، وعليه الآن أن يطير إلى البيت ليزف الأنباء السارة إلى زوجته وابنه. ولكنه كاد يتعثر عند الباب فيقع وهو يلبس بلغته عندما سمع الشيخ زكي يجأر: «ليه خذلتني؟». كان زكي في هذه الأثناء قد رأى حفرة تنشق في جوفه وأن قلبه يسقط فيها، أو أنه هو نفسه يسقط فيها. واستدار راضي وهم بأن يقول: «أنا خذلتك يا زكي؟ ما انا نفذت طلباتك. جلتلك سمعا وطاعه». ولكنه لم ير من زكي إلا ظهره. كان منكفئا على نفسه في مواجهة الركن، فلمن كان يوجه الكلام؟ هناك شيء يوحي بالشر. غير أن راضي آثر ألا يتمهل. في يديه صفقة ينبغي ألا يضيعها مهما حدث، وخرج مهرولا. يكفيه ما فاز به. سيأتي غدا ومعه المأذون والفلوس.

* * *

اشتدت الحركة ذات صباح أمام الصيرة وفي داخلها، وشهدت عزا لم تشهده إلا في أيام مجدها عندما كان منصور وزينب على قيد الحياة. فقد كنست وفرشت أرضيتها والساحة المقابلة بالحصير. وفي يوم العرس بدأت بشائر الاحتفال مبكرا، فظهر ساعة الضحى فهمي الحلاق على حماره ومن خلفه أخوه سعيد الذي يعمل صبيا له، وكان هناك إقبال شديد على خدماتهما. وكان هناك زحام شديد عند مغطس الجامع، فكثير من رجال القرية وشبابها يريدون الاستحمام بعد الحلاقة، ولا يعنيهم في شيء أن المغطس «مسكون». وهم على أي حال لا يأبهون بساكنيه حتى في غبش الفجر عندما يريد أحدهم أن يزيل آثار الجنابة أو الاحتلام قبل استيقاظ الخلق. وجاء عطية بائع الخضروات وكان نداؤه «حمرا يا طماطم.. ريان يا فجل» يتردد في أرجاء القرية. وعطية لا يأتي عادة إلا قرب وقت الظهيرة، ولكن في هذا اليوم المشهود لم يرتفع أذان الظهر إلا وكانت بضاعته - حمل حمارين - قد نفدت. وأمام بيوت البحاروة قرع الطبل ونقر على الدفوف وصفقت الصاجات عندما جاءت حسنية الغجرية في ثياب برتقالية زاهية هي وابنها محمود الطبال وزوجته شهيرة الغزية. وقيل يومها - وهو صحيح - إن الشيخ راضي «فك الرباط عن كيسه». فقد استدعى من أبو كبير طباخًا وعددًا من المساعدين، وأشعلت النار في الأفران والكوانين في عدة بيوت، وكان الطباخ يدور بين مواقع الطهي ليصدر تعليماته ويتحقق من حسن تنفيذها. وافتقدت طاهيات البيوت «عمتهن» نفيسة - فهي قائدة لا تنافس في مثل تلك المناسبات - ولكنها غابت عن مكانها الطبيعي. وتساءل الناس عن سر غيابها، وهي التي كانت بمثابة

الأم الثانية للعروس. وقبل الغروب بقليل كانت المفاجأة الكبرى؛ إذ هل من أبناء الصوالحة جمع غفير لم ير مثله من قبل. بدوا فارعي الطول في جلابيبهم الفضفاضة وطواقيهم العالية وكوفياتهم التي تتدلى من أكتافهم وتكاد تلامس الأرض. وقفوا جامدين إلى أن قرعت الطبول فدبت الحركة فيهم وانتظموا على شكل دائرة. وبدأت الرقصة بتصفيق بطيء لا يكاد يسمع ثم أخذ يشتد ويتسارع فسخن الجو وسرت في المشاهدين رعشة مست الجميع. وأخذ أبناء الصوالحة الراقصون يرددون في تناغم مع إيقاع التصفيق «الدح يوه.. الدح يوه». عبارة لا يعرف أحد معناها، ولكنها صارت اسما للرقصة التي انتقلت بين الصوالحة من جيل إلى جيل، وصاروا هم أفضل مؤديها في أرجاء الناحية. وعندما تندمج أصوات الرجال في صوت واحد لتردد الصيحة على ذلك الإيقاع، «تنخلع الجلوب» كما قال شبانة، وكأنما سرى تأثير الصيحة في جسم شهيرة الغزية، فانسلت دون أن يدري أحد بين الرجال واحتلت مركز الدائرة بعد أن تحزمت بكوفية أحدهم - فلم يمانع ولم يمانعوا رغم أن الرقصة وفقا للتقاليد المرعية وقف على الرجال - واهتز ثدياها وردفاها فاشتعل حماس المشاهدين وضم بعضهم صوته إلى أصوات الراقصين.

وفي المساء حملت الصواني النحاسية الكبيرة بكميات من الطعام - هبر اللحم والثريد بصفة خاصة - لم تشهد لها القرية مثيلا. وأكل الناس ما شاءت لهم شهياتهم. وبعد العشاء اجتمع المحتفلون في الصيرة: صف للنساء والأطفال في جانب وصف للرجال في الجانب الآخر. تماما كما كان يحدث في الماضي عندما يهبط شعراء الربابة على القرية ليقيموا فيها ليالي تولم فيها الولائم وتنشد الملاحم إلى ما بعد منتصف الليل. وقرب منتصف الليل لم

يعد شبانة يحتمل تأثير هزات شهيرة، فاختطف الطبلة من يد زوجها وأصبح هو الطبال، فلم تمانع ولم يمانع الزوج، وتضاحكت النساء وصفقن. وعلا التهليل واشتد التصفيق عندما رأى المتفرجون كيف استجابت الغزية الغجرية لتطبيل شبانة؛ فأصبحت تعدو راقصة بين صفي المتفرجين وهي تصفق صاجاتها وتنشر شعرها كأنها مهرة تزهو بشبابها الرائع.

حادثة واحدة أفسدت جو الاحتفال والبهجة الغامرة عندما ظهر زكي. لم يره المحتفلون إلا ساعة الطعام، كان بإمكانه أن ينضم إلى أي مائدة ويأكل كما يشاء، ولكنه بدلا من ذلك ظل يحوم زائغ العينين ويتنقل بين صينية وأخرى ويخطف شيئا من هنا وشيئا من هناك ليلتهمه واقفا أو ليضعه في جيبه. ورفع بعض الآكلين أيديهم عن الطعام، وتوقفت اللقمة في حلوق البعض الآخر دهشة وغما. حز في نفوسهم وعز عليهم أن يروا الرجل الذي عرفوه شهما يقوم على خدمة ضيوفه يتصرف على ذلك النحو المهين. وظل زكي يتنقل بين الصواني إلى أن نهض شبانة واقتاد ابن عمه إلى بيته وبقي معه حتى رفعت صواني الطعام.

وأصبح أولاد قاسم يرددون في أسى أن جمع رأسي سلامة وزكية في الحلال كان آخر عمل صالح قام به زكي، وذلك أن زكي بعد تلك المأثرة تحول إلى شخص لا يعرفونه. لم يمض يومان أو ثلاثة أيام على إتمام مراسم العقد في الصيرة حتى بدأ يتصرف بطرق لم تعرف عنه من قبل. وكانت البادرة الأولى عندما مر بأسرة اجتمعت حول الطبلية أمام البيت استعدادا لإفطار رمضان، فانضم إليهم دون أن يدعوه أحد بل ودون أن يلقي عليهم السلام. قال رب البيت بعد أن تغلب على ذهوله: «يا أهلا ومرحبا يا شيخ

زكي»، ولكن زكي كان قد بدأ الهجوم على الطعام دون أن يلتفت إلى أحد ودون انتظار لأذان المغرب الذي يبيح الإفطار. وأخذ أفراد الأسرة يتبادلون نظرات الاستغراب أو الامتعاض إلى أن أشار لهم الأب بالتزام الصمت. كان زكي يلتهم الطعام التهاما؛ هو الرجل الذي عرف بعفة النفس والكبرياء، هو الرجل الذي كان إذا جلس إلى مائدة ضيفا أو مضيفا ينتظر حتى يبدأ الجميع؛ وكان إذا وجد في وضع المضيف أقل الآكلين نصيبا من الطعام، فواجبه ومتعته أن ينال كل ضيف ما يستحقه وزيادة.

ثم أخذت علامات الانهيار تظهر بوضوح وتنتشر أخبارها، ورُئي الشيخ الوقور يأكل ويشرب أثناء النهار في ساعات الصيام - رآه الناس مستلقيا على بطنه عند حافة «الخليج» يعب من الماء الجاري - وانقطع عن الصلاة في الجامع، وأصبح يهيم على وجهه في الطرقات والحقول وهو يردد: «ليه خذلتني؟»، لا يتوقف إلا إذا وجد جماعة يأكلون؛ عندئذ يشاركهم طعامهم رضوا أم لم يرضوا. في البداية كان الناس يشفقون عليه ويقولون: «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله»، أو: «ارحموا عزيز قوم ذل»، ويشركونه في طعامهم. ولما أعيتهم شراهته ونفرتهم، بدأوا يصدونه ويطردونه؛ ومنهم من كان يلقي إليه ببعض الطعام قبل أن يقترب، فيلتقط ما يجودون به كأنه كلب وينصرف؛ وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة للتخلص منه. ولم ينته رمضان ويتم الاحتفال بعيد الفطر إلا وكان الصبية يتجمعون خلفه ويزفونه وهم يتغنون بعبارة «ليه خذلتني؟» فيصيبه اهتياج شديد، فيرددها بدوره بإيقاع لا يفتأ يتسارع حتى يصاب بالإعياء ويتحول سؤاله إلى أنين ونهنهة تثير ضحك الأطفال.

وامتدت الضربة التي أصابت زكي إلى عمته نفيسة، فلم تقم لها قائمة منذ ذلك الحين. تغيبت عن العرس - وهي التي وضعت العروس تحت حمايتها ودفعت زكي إلى الموافقة على الزواج - ومرضت مرضها الأخير الذي أودى بها في النهاية حزنا على ابن أخيها والبقية الباقية من عصر «الكرام». ورغم أنها كانت تقول إن كل شيء بيد الله، فإنها ظلت تردد أن ما أصاب زكي نتيجة لزواج لم يكن يريده، وأنه فقد عقله من شدة الشعور بالقهر: «الراجل المسكين جه على نفسه جوي». وتساءل الناس عن مغزى تلك العبارة التي صار يهذي بها. إلى من يوجه الرجل المسكين عتابه؟ في لقاء جمع بين الشيخين الفقيهين حامد وسيد تداولا في الأمر فرأى الشيخ حامد أن زكي يعاتب بالعبارة أخاه لأنه لم يستمع إلى نصح أخيه الأكبر بألا يبيع نصيبه في الميراث. وأما الشيخ سيد، فقال: «أخوه إيه وبتاع إيه؟ أنا ما زلت أحذركم منذ زمن بعيد من أن «العدو» يتربص بكم ويرسل عليكم كشافاته، ويزحف عليكم. وها هو قد أصابكم في مقتل، فزكي أفضل رجل فيكم، وبسقوطه سقطتم في حضيض الهوان والخذلان. اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله». ومال جميع الناس تقريبا إلى رأي الشيخ حامد. كلهم تقريبا إلا الشيخ راضي - الذي شاهد زكي وهو ينطق بالعبارة لأول مرة منكفئا على ركبتيه في مواجهة الركن - وشبانة. ولكن راضي لم يطلع أحدا على ما شاهد. أما شبانة «أبو دماغ ناشفة»، فكان يقول: «الكلام ده ما يدخلشي عجلي. زكي ابن عمي ما ينجنش عشان أخوه باع حتة أرض هايفه». «أمال إيه يا ابا شبانه؟». هكذا كان يسأله الصبية في الجرن، فيقول وهو يلوك فص الأفيون: «الله أعلم». ولكنه كان يعلم.

* * *

لم يقتصر الاحتفال على الصيرة، بل كانت هناك حفلات جانبية في عدد من المواقع. كانت هناك مثلا غرفة لتعاطي الحشيش والذي منه في بيت شبانة، وكـان يتمنى أن يسطل «علي» الطبال حتى يفقد الوعي فيخلو له الجو مع زوجته الغزية، ولكن شهيرة للأسف كانت تحت الحراسة؛ حراسة حماتها. وخصصت في بيت البحاروة غرفة للنساء اللاتي يفضلن الاحتفال كما يحلو لهن بعيدا عن أعين الرجال. ولم يكن مسموحا لهؤلاء بدخول البيت، وكان فريد يقف في الخارج بالقرب من الباب وهو يبصبص بذنبه وفي عينيه شعور بالدهشة وخيبة الأمل لأنه هو أيضا غير مسموح له بالدخول. لم يكن في الغرفة من الذكور إلا مدحت الذي كان يراقب ما يجري من موقع مرتفع. فقد وضعته ناعسة فوق أكياس للقطن مصفوفة لصق الحائط.

ولم يستطع الطفل في موقعه ذاك رفع عينيه عن شخصين غريبين: الزائرة «الخواجاية» التي يقال إنها من معارف البحاروة، والطفلة «البندراوية» التي جاءت بصحبتها. ومما أثار انتباه الطفل ودهشته بصفة خاصة أمور عجيبة مثل حمرة شعر البنت والنمش المتناثر على وجهها. ظل يرمق الضيفتين تارة ويحملق في الشعر الأحمر تارة حتى غلبه النعاس. وجاء الدور على ناعسة لكي تساهم في الاحتفال. كانت الفتيات اللاتي يطبلن ويغنين يلحون عليها أن تتحزم وترقص - لأنها كانت تجيد الرقص - ولكنها أخذت تتمنع إلى أن مالت عليها السيدة «الخواجاية» ورجتها أن ترقص؛ قالت: «علشان خاطري»، ولم تستطع ناعسة أن ترد للضيفة طلبها، فتحزمت وبدأت ترقص

على إيقاع الطبل والغناء. واستيقظ مدحت فرأى أمه في الرضاع تتحرك وتهز أجزاء جسمها على نحو لم يألفه من قبل. وفتح حدقتيه دهشا، ولأمر ما لم يحتمل المنظر فارتفع صوته بالبكاء. وتوقفت ناعسة عن الرقص كما توقفت البنات عن التطبيل والغناء. وهرعت ناعسة إلى الطفل - كان يبكي بحرقة وخيل إليها أنه رأى كابوسا - فحملته وصارت تهدهده. ولكنه لم يهدأ إلا بعد أن جلست به في ناحية لتهمس في أذنه وتطيب خاطره. وعندما استسلم للنوم على صدرها أعادته إلى مكانه فوق أكياس القطن، ولكن دورها في الاحتفال كان قد انتهى.

وأثار وجود الزائرة في القرية كثيرا من الاهتمام والحفاوة؛ فلم تشهد القرية في كل تاريخها حدثا مماثلا. لم يحدث قط أن جاءهم أجنبي - رجل أو امرأة - ناهيك عن أن يقضي بينهم عدة أيام يجالسهم ويؤاكلهم ويتكلم بلغتهم. وقيل إنها كانت زوجة لأحد أقارب أم العروس - سالم من عائلة أبو حسين - يعيشون في سراية كبيرة فيما بين الغابة وفاقوس. والتف حولها في صبيحة اليوم التالي جمع من النساء والأطفال عندما وجدوها جالسة على كرسي في الساحة المقابلة لبيت زينب. وكانت ترتدي فستانا أزرق عليه نقاط بيضاء كبيرة وتلف خصرها بحزام عريض أبيض أبرز اكتمال صدرها، وتضع على أظافرها المونيكير، وتلبس حذاء عالي الكعب.

وكان شبانة يجلس القرفصاء غير بعيد مسندا ظهره إلى حائط البيت، ويرقب ما يجري باهتمام شديد. أتى ليشكر الخوجاية على ربع الجنيه الذي أرسلته إليه تحية لتطبيله الذي أعجبها. مبلغ يكفيه عدة أيام ليحصل على حصته المعلومة من الأفيون. ولكنه

لا يستطيع الوصول إليها. وهو يسمع منذ سنوات أخبارا يتناقلها الناس عنها في أبو كبير، عن بنت الخواجة بطرس صاحب خمارة كان يتردد عليها سالم أبو حسين، وعندما رفض الخواجة تزويجه البنت اختطفها. وكم أسف لأنه لم يشهد تلك الخمارة، ولم يشرب فيها لأنها فيما يقال لا تستقبل إلا أبناء الذوات مثل سالم أبو حسين. وكم أثنى على سالم لأنه اختطفها.

ثم تمر الأيام، وها هي تجلس أمامه وهو مسمر في مكانه، يوجه بصره إليها ثم يعود فيدفن وجهه بين ذراعيه متأسفا على ما فاته. وجاء أحد الصبية ليجلس إلى جانبه، فقال: «شايف يا واد ازاي الست الخواجايه بيضه وطريه وبسامه؟ لابسه جزمه كاشفه كعابها، وكعابها نضيفه ومنوره زي البنور مش زي كعاب نسوانا الخشنه.. الله يكون في عونا». فقال الصبي: «ما يا عم شبانه، إنت زعلان ليه؟ النصارى ليهم الدنيا واحنا لينا الآخره». فزجره شبانة: «اخرس يا ابن الكلب، إنتو فاكرين ان الخواجات حيروحوا نار جهنم وانتم هتروحوا الجنه؟ طيب ابجو جابلوني هناك. والله ما انتو ساطعينها، ولا ليكم دنيا ولا آخره».

وكانت الخواجاية تتفرس في وجوه الأطفال الذين تجمعوا حولها؛ أطفال كثيرون، سمر، بعضهم عراة أو في جلابيب قذرة. ثم ظهر مدحت من بعيد: كان يسير مع كلبه ويده في يد البنت البندراوية ذات الشعر الأحمر. وقالت له الزائرة: «أنا اسمي ماريكا.. وانت اسمك إيه؟». ثم سألته: «كنت بتعيط ليه امبارح؟»، فاكتفى مدحت بهز رأسه ولم يرد. فأجلسته في حجرها، ومسحت مخاطه بمنديلها. وقالت: «إيه رأيك تيجي معايا الاسماعيليه؟» هنا فقط

خرج عن تحفظه. قال: «هيه الاسماعيليه أرياف ولّا بندر؟»، فقالت ماريكا: «دي بندر تمام».

وتردد مدحت طويلا، الإغراء كان شديدا، ومما زاده شدة تلك البنت - سلوى - التي أقبلت عليه دون سائر الأطفال - ربما بسبب كلبه - والتي يتدلى شعرها الأحمر حتى خصرها، وترتدي فستانا ذيله مزركش «دايرن داير» بزهور متفتحة. ولاحظت ماريكا تردده واهتمامه بالبنت، فقالت: «وهتكون مع سلوى، إيه رأيك؟». وبذلك حسم الأمر. قال مدحت: «أنا معاكي، إيدي على إيدك»، وضحكت الخواجاية. رأت على ركبتيها مخلوقا غريبا في حالة مزرية.. لم يستحم منذ فترة، وثيابه قذرة، ولا يلبس سروالا، وهو مع ذلك يتكلم بطريقة تفوق سنه، ورأته يسير يدا في يد مع سلوى.

* * *

ذهب شبانة يوم السوق إلى أبو كبير، فأودع حماره في الوكالة («جراج» الحمير كما يسميها)، وأسرع إلى المقهى الرئيسية («البورصة»)، حيث يلتقي التجار والمتسوقون من أبناء البلد والوافدين من البلدان المحيطة. وقضى وقتا طويلا يتلفت يمنة ويسرة ويتفحص الوجوه لعله يجد من يعرفه. لم يأتِ لبيع أو شراء، ولا لعقد صفقة من أي نوع، ويعلم الله أن ما في جيبه لا يكفي إلا لأجرة الوكالة وشراء القهوة وكرسي المعسل، وشراء شاي وسكر للبيت. الفلوس شحيحة. جاء «لتغيير الجو» ولعله يجد مزيدا من المعلومات عن الخواجاية الزائرة، وهو يتفحص وجوه الداخلين والخارجين والمارين العابرين فلا يجد من يعرفه.

وكاد ييأس. ثم انفرجت أساريره عندما ظهر صاحباه موسى وبهاء ابنا العمدة. ونهض واقفا: بالأحضان إذن. كم يحب هذين الشابين! يزورهما بين حين وآخر فيدعونه إلى الغداء، فيتدلل، فيلحون فلا يلين حتى يحلفوا عليه أن يبقى إلى أن يأتي الغداء أو العشاء كيفما كان الأمر. وهو لا يهتم بغداء أو عشاء لأنه قليل الأكل بطبيعته، ولكنه يحب البقاء لأسباب أخرى. فهو أولا يحب صحبة الشابين «لوجه الله» لأنهما خفيفا الظل ويحبان الفكاهة ويحبان صحبته؛ ولا مانع بعد الحب لوجه الله أن تكون هناك فوائد أخرى، ولم لا؟

من بين هذه الفوائد أن موسى وبهاء إذا لقياه يوم السوق يدفعان عنه الحساب في المقهى ويوفران بعض ما في جيبه للأفيون. وقد يكون هناك غداء والذي منه. وذلك بالضبط ما حدث، فقد انتقل الثلاثة إلى مطعم الشبراوي الكبابجي في الشارع المجاور للمقهى، وهو يتكون من دكان صغير يشوي فيه الشبراوي كبابه، ومائدتين لا ثالثة لهما في الشارع يهب على الجالسين إليهما دخان الشواء ورائحته الزكية. ولكن المهم في نظر شبانة ليس هو الكباب، بل «الذي منه» أو ما يأتي معه من زجاجات البيرة السوداء التي يسمونها «ستاوت»، فلها مرارة يستعذبها وتأثير لذيذ يستريح له الجسم، وهو عندئذ يستزيد منها، يطلب فيجاب.

ودار الحديث أمام مطعم الشبراوي فتبين أن موسى وبهاء على علم بقصة الخواجاية مع سالم أبو حسين لأن عائلته تربطها علاقة مصاهرة بعائلة العمدة. وتوالت التفاصيل مع توالي الزجاجات السوداء. روى الشابان أن أباها الخواجة بترو (أو بطرس كما يسميه الأهالي) كانت له خمارة يتردد عليها سالم.

وهناك رأى ماريكا وأحبها وهامت به الفتاة حبا، ويشاع أنه اختطفها عندما رفض الخواجة بطرس تزويجها إياه. ولكن الحقيقة فيما قال الشابان هي أن سالم تزوج الفتاة برضا أبيها وأمها. هنا هتف شبانة: «معجول الكلام ده؟ ده كلام ما يدخلشي الدماغ»، فقال له موسى: «اصبر جاي لك الكلام». وجاء الكلام: وافق الوالدان على مضض عندما علما أن سالم زير النساء أغوى بنتهما. وعاد شبانة ليسأل: «بس ازاي؟ كان بيشوفها في الخماره، مفهوم. لكن طالها ازاي؟». وكان الجواب هو أن الله أعلم. قال شبانة: «بس ده واد سبع، راجل من ضهر راجل صحيح! اطلب لنا يا بهاء شوية بيره تاني لأن الكلام احلو». وتساءل: «طيب فين الخماره؟». قال موسى وهو يشير إلى موقعها: «الخماره انتهت. لكن تعدي المزلجان فتسيب المحطه ومكتب التلغراف على إيدك اليمين وتمشي على إيدك الشمال تلجى سجَر دجن الباشا. هناك كانت خماره بطرس». وقال شبانة في أسى: «أنا عمري ما سمعت إن فيه خماره في أبو كبير. يعني انا طول عمري رايح جاي بين ابو كبير والجواسمه، ولا انا دريان إن فيه خماره، نايم على روحي. أما دي مصيبه! طيب الخواجه بطرس راح فين؟ هوه مات ولّا إيه؟»، فقيل له إنه انتقل هو وزوجته إلى الإسماعيلية ليكونا بالقرب من بنتهما.

فهل يتجه نحو الخمارة ليعاين بنفسه؟ تردد طويلا قبل أن يحسم الأمر، ويقرر أنه ليس هناك ما يدعو إلى الأسى على ما فات- سبحان من له الدوام - وإفساد حالة الصفاء التي أصبح يتمتع بها بعد الصحبة الجميلة والغداء العامر، وقال لنفسه: «احنا ولاد النهارده. بس ازاي سالم ابو حسين وصل للبنت؟ أما دي حكايه!».

* * *

الحمارة تعرف طريقها إلى العزبة. سارت به إلى أطراف أبو كبير من ناحية الغابة، وعبرت به المزلقان لتسير في اتجاه كفر صقر، وعندما رأت ترعة الصادي انحرفت يمينا كما ينبغي، ثم أسرعت السير من تلقاء نفسها دون أن تؤمر أو تلكز بالكعب. تركها على هواها، فهي تدرك الآن أنها اقتربت من مقصدها. ست زجاجات كاملة من الستاوت نزلت على قلبه بردا وسلاما. الأشيا معدن والدنيا صفاء. آه لو استطاع أن يجد تموينا مستمرا من تلك البيرة! ولكن محال أن تدخل العزبة، فهي غالية وهي محرمة. آه لو علم أخوه الشيخ سيد بما يفعل وأخرج له حكم الشرع في شارب الخمر! القواسمة لا يشربون إلا الماء؛ ماء النيل من الترعة أو المياه الجوفية («الميه المعْيَن») عن طريق الطلمبة. وهم في كثير من الأحيان لا يشيرون إلى الخمر باسمها، بل يقولون عنها «الميه» ويفهم من السياق ما يعنون، ويلمحون إلى شاربها بقولهم «بيشرب ميه» ليميزوه عن غيره من البشر.

وعندما أحضر خليل إلى دكانه كازوزة «سباتس» وصار يبردها في ماء الزير (إذ لا يوجد الثلج إلا في أبو كبير)، كان ذلك حدثا تاريخيا. وماذا يشرب النصارى في قراهم القريبة؟ دينهم يبيح لهم شرب الخمر، فماذا يشربون منها؟ من المستبعد أن يكونوا قادرين على دفع ثمنها. فأغلبيتهم فلاحون معدمون مثلهم مثل أغلبية المسلمين.

غاية الكلام أن الأفيون هو الملاذ الوحيد لشبانة إلى أن يسمح الحظ فيقابل موسى وبهاء في أبو كبير. وعاد يتساءل: كيف تمكن

سالم أبو حسين من الوصول إلى بنت الخواجة؟ الناس في أبو كبير يعرفون ويراقبون بعضهم البعض، وليس هناك مكان يمكن للعشاق الاختلاء فيه. رآها في الخمارة، أي نعم. ولكنها في الخمارة كانت تحت رقابة أبيها وأمها. فكيف اختلى بها واستولى عليها؟ لم يستطع هو نفسه الاختلاء بشهيرة الغزية مع أنها كانت قريبة منه في نفس الغرفة. شعر منذ البداية، منذ أن رقصت على إيقاع تطبيله أن بينه وبينها شيئا. رأى ذلك الشيء في هزات ردفها ورجرجة ثدييها، ولم يبق مجال لأي شك عندما رآها في غرفة التحشيش ليلة العرس. كانت تجلس خلف حماتها، وتسترق النظر إليه، فإذا لمحها انكسر طرفها، ترمقه ثم تكسر طرفها، ترمقه ثم... وتدور الجوزة على الجميع باستثنائها. وانسطل الزوج وأصابه الإعياء حتى أسند رأسه إلى الحائط مستسلما للنوم، ولكن أمه بقيت صامدة مفتوحة العينين («زي البومة») تشد النفس تلو النفس ولا يطرف لها جفن. لم ينل الحشيش منها - أعوذ بالله!- رغم أنه نال منه هو نفسه. فصار يتخيل أنه خرج بشهيرة إلى الحقول وراء الجامع، فلما وصلا إلى تلك البقعة المهجورة من الأرض بالقرب من البركة التي يعتقد أولاد قاسم أنها مسكونة طرحها أرضا واعتلاها دون أن يراهما إنس ولا جان.

وفاض به الوجد، ففك عمامته وأرخاها على كتفيه، وأمال الطاقية إلى جانب وغنى الموال التالي:

ظهر الجميل سايج الدلال يتْهادى

نظر كسير الطرف لكن صاب، يا هادا

هو الجَتِل في شرعكم أصبح حلال؟

ضحك وجال: الحب ما يتهادى

الحب يُدفع له تمن - بالموت - إن جادا

وخاطب «الجميل»: «أنا ميت صبابه يا شهيره. أجسم بمن رفع السماوات بلا عمد، أني لن يهدأ لي بال حتى...». ثم انقطع حبل أفكاره فجأة عندما لمح زكي. رآه من بعيد بالقرب من الترعة، فتعكر مزاجه على الفور، وتبدد أثر البيرة، وعندما اقترب من ابن عمه ترجل وسلم عليه وعانقه. زكي هو مصدر همه ليل نهار. طالما انتقده الرجل بسبب الأفيون وما يقوله للصبيان في الجرن، ولكنه رجل مستقيم ومحترم ولا غنى للقواسمة عنه، وما حل به «يصعب ع الكافر». يكاد قلبه ينفطر كلما رآه، وكم يتمنى أن يكون ما أصابه حالة عابرة يعود بعدها إلى رشده، وهو لم يفقد الأمل بعد، فعقل ابن عمه يكفي عشرة رجال، وليس من المعقول أن يفقده تماما؟ وسأله:

- إيه رأيك يا شيخ زكي في موضوع مدحت؟

وجاءت الإجابة لتبشر بالخير:

- ما له مدحت؟

- عاوز يروح الاسماعيليه مع الست الخواجايه.

فرد زكي بقوله:

- يروح الاسماعيليه ليه؟ لازم نبحث الموضوع. فوت عليه في الصيره.

الله أكبر! هذه هي الحكمة التي عرف بها زكي: «نبحث الموضوع». وبدا لشبانة أن نور العقل لم يفارق ابن عمه، فقبض على يده: «طيب تعالى معايا ع الصيره نبحث الموضوع». ولكن كم كانت دهشته وكم كان حزنه عندما وجد رأس زكي تهوي على صدره، وسمعه يقول شاكيا:

- يعني يرضيك كده؟ كده يخذلني؟

- مين اللي خذلك يا زكي؟

ولم يجب زكي عن السؤال، بل قال:

- يعني أنا عملت اللي عليّه، كل اللي جال عليه نفذته، يجوم يسيبني كده؟

وأخذ يبكي.

* * *

وجد في الصيرة أخاه الشيخ سيد متأبطا كالعادة كتابه، والشيخ سعيد عم مدحت، والشيخ حامد وابنه الذي يسحبه. كما وجد - لدهشته - عددا من النساء: الست الخواجاية مع البنت التي تصحبها، وهنية زوجة سعيد، وناعسة. جاءوا جميعا ليناقشوا ما

إذا كان ينبغي السماح لمدحت بالذهاب إلى الإسماعيلية، وكانوا في حيرة لأن «حكماءهم» غائبون. قال الشيخ حامد:

- لو كان الشيخ زكي معانا كنا رضينا بحكمه. لكن نجول إيه في مشيئة ربنا؟

وقالت ناعسة:

- أنا والله جلبي ما هو مطاوعني أسيب الولد يمشي. يعني لو كانت الحاجه زينب موجوده، كانت هيه اللي تجول يروح ولّا ما يروحش. وحتى نفيسه لو كانت موجوده، كانت ...

وسئلت عن صحة نفيسة، فقالت: «ربنا ياخد بيدها».

وكانت هنية متحفزة، فهي تعد مدحت ابنها؛ لذلك قالت وهي تشير إلى زوجها:

- سعيد كان عاوزني ما اجيش. لكني جلت والله لآجي واجول رأيي. أنا يا جماعه ما افرطشي في ابني... أنا عندي تلات ولاد وبنتين، لكن ما افرطشي في مدحت، إزاي يسيب أهله؟

وتشجع الشيخ سيد بعد قليل من التردد والنظر إلى الخواجاية:

- يعني معجول نسيب الولد يروح مع نصرانيه؟

واستدرك قائلا وهو يوجه الخطاب إلى ماريكا:

- يعني أنا لا أذم النصارى، فالرسول أوصى بأهل الكتاب خيرا، ولكننا نريد لابننا أن يتربى في حظيرة الإسلام.

فردت ماريكا بقولها:

- عداك العيب يا شيخ سيد. لكن يا جماعه أنا جوزي سالم ابو حسين مسلم وموحد بالله ومتخرج من الأزهر...

ثم توقفت لتوجه الخطاب إلى هنية (أدركت أنها أقوى شخصية بين الموجودين):

- يعني يا ست هنيه أنا رأيي ما نكبرشي الموضوع. الولد شبط في سلوى، وعاوز يروح معانا الاسماعيليه. ماشي.. خليه يروح من نِفسه. مش هيقعد معانا على طول.. كلها أسبوعين ولّا تلاته ويرجع لكم.

وقالت وهي تشير إلى سلوى التي كانت تقف بجانبها:

- ما هي سلوى قدامكم أهه؛ شبطت فيه وأمها خلتها تيجي معايه.. ما فيهاش حاجه. وأنا بصراحه ما عنديش قدره أربي مدحت.. أقول لكم إيه بس؟ أنا مش عاوزاه يقعد معانا.. مستحيل، وإذا كنتم شايفين إنه ما يروحش، يبقى ما يروحش.

وهنا تدخل شبانة ليؤيدها:

- أنا رأيي يروح، وزي ما جالت الست ماريكا: «كلها أسبوعين تلاته ويرجع».

ولانت هنية:

- أنا والله ما احب ارفض لمدحت طلب، ما احبش ازعله. نفسه يشوف البندر، نخليه يروح أسبوعين ولّا تلاته ويرجع.

والتفتت إلى زوجها:

- ولّا إيه رأيك يا سعيد؟

فوافقها زوجها لأنه لا يخالف لها رأيا، وهكذا حسم الأمر.

أما مدحت، فكان قد حزم أمره دون مراعاة لأي مداولات، وأصبح يدور بين عزبة القواسمة وعزبة الصوالحة ليخبر الجميع - بما فيهم فريدة - أنه ذاهب إلى البندر مع الست الخواجاية، وأنه سيتزوج البنت «الحمرا». ولم تعترض فريدة على فقدان أحد أفراد عصابتها، واعترفت بالهزيمة عن طيب خاطر عندما رأت سلوى وقالت: «يا لهوي على حلاوتها!».

* * *

وقف مدحت عند باب الجامع يرقب باهتمام وشعور بالرهبة رجلين يرفعان النعش ويسيران به إلى الطرف الآخر من القرية ليضعاه أمام بيت نفيسة. ورأى كثيرا من النساء يدخلن ويخرجن، وسمع أصوات العويل والنحيب الآتية من الداخل. واشتدت الضوضاء وتكاثر زحام الناس وتدافعهم عند الباب، وتعالت أصوات النساء عندما ظهرت نفيسة ملفوفة لا يظهر منها شيء على كتفي الرجلين. والغريب أنها كانت تتلوى داخل اللحاف

الذي لفت فيه وهما يحاولان إنزالها في الصندوق الخشبي المستطيل. كان الرجلان ينوءان بها وكأنها كانت تقاوم دخول النعش. وظهرت زكية. ها هي البنت التي لم يكن قد مر على عرسها أكثر من يومين تقود موكبا من النائحات يرتدين جميعًا السواد، وبعضهن حاسرات الرءوس. منظر استنكره الطفل واقشعر له بدنه. البنت تلطم خديها، وتندفع نحو النعش وهي تعوّل بصوت يصم الآذان: «سايبانا ليه يا غاليه؟ دا احنا من غيرك ما نسواش حاجه». ويحاول البعض تهدئة النائحات اللاتي خرجن عن طورهن بقولهم: «يا جماعه وحدوا الله»، و«الموت علينا حق» دون جدوى.

وقال مدحت لشبانة:

- آبا شبانه الناس اللي بيشيلوهم في النعش بيودوهم فين؟

فأجاب شبانة:

- بياخدوهم الترب عشان يدفنوهم.

- وليه بيدفنوهم؟

فصاح فيه شبانة محتجا:

- أنا عارف إنك عاوز تكسر دماغي، لكن معلهش. الناس لما بتموت لازم تندفن، والعوض على الله.

وغنى: «يا ميت ندامه ع اللي راح ولا جالشي». ولكن ذلك لم يثن مدحت عن الإلحاح:

- يعني اللي بيندفن ما بيرجعش؟

قال شبانة بأسى:

- ما بيرجعش يا بو دماغ تخينه.. فهمت؟

- أمال بيروح فين؟

- إلا بيروح فين؟ اسمع يا مدحت ما تكسرشي دماغي. إنت مالك ومال اللي بيموتوا؟

وأجابه مدحت:

- بدي أفهم.

- طيب شوف. اللي بيموت بيروح عند ربنا.

- وربنا فين؟

وأشار شبانة إلى السماء:

- فوج في السما. وخلاصة الكلام اللي بيموت ربنا بيتكفل بيه، واحنا ما لناش دعوه بيه.. حل عن نافوخي.

ولكن مدحت لم يتزحزح، فسأله شبانة كأنما خطرت له فكرة مفاجئة:

- إنت لك كام أم يا وله؟

ونظر مدحت إلى شبانة باستغراب:

- آبا شبانه، إنت حكايتك إيه النهارده؟ ما انت عارف.. أم واحده وماتت.

ولكن الإجابة لم تقنع شبانة:

- طيب عد معايا.. أمك فوزيه ماتت الله يرحمها، آدي واحده.. وناعسه اللي رضعتك، آدي اتنين.. وستك زينب الله يرحمها، آدي تلاته.. وهنيه مراة عمك، آدي أربعه. أربعه يا طماع يا ضلالي! إنت ما شبعتش أمهات؟

واحتج مدحت:

- الظاهر انت ما خدتش فص الأفيون النهارده.

فقال شبانة:

- بس انا فايج جوي.. عاوز أجول لك يا مغفل إنك انفطمت من زمان، مش كده؟ ووجفت على رجليك من زمان بعد ما كنت بتحبي، ولّا انا غلطان؟ يعني آن الأوان انك تمشي. ولّا هتفضل شابط في النسوان والنسوان شابطين فيك لغاية ما يكسحوك؟

وآدي انت رايح الاسماعيليه؛ يعني تسيبك من اللي مات واللي عاش.. ما لكشي دعوه.

ولم يقتنع مدحت:

- ما ليش دعوه ازاي؟ مراة عمي هنيه عماله بتجول: اللي ما لوش خير في أهله ما لوش خير في حد.

واحتد شبانة:

- إوعى تسمع كلام النسوان: «كلها أسبوعين تلاته وترجع». ما ينفعش. الاسماعيليه معناها إنك تروح المدرسه، وتبجى بني آدم، وانك ما ترجعش. المدرسه هيه أمك وابوك.

وعلا صوته:

- ما تفهم يا حمار.. ما ترجعش.

غير أن مدحت أصر على الذهاب إلى المقابر ليرى أمه وجدته - فيما قال - قبل أن يسافر، فلن يسافر حتى يفهم. وتقدم هو وكلبه ناعسة وهنية في طريق متعرج طويل. فبعد السير على السكة الزراعية عبروا جسرا نقلهم إلى الضفة الأخرى للترعة. ثم بدأ الطريق يتلوى بين الحقول ضيّقا تارة ومنفرجا تارة أخرى. وكانت المرأتان الجسيمتان تلهثان لتلحقا بمدحت والكلب وهما يسيران عدوا أو قفزا. أصبح الطفل يضيق بناعسة لأنها لا تقدم له جوابا شافيا عن سر غياب جدته وأمه. كلامها فارغ. تدعي أن جدته ذهبت لزيارة أقاربها في الحسينية بالقرب من فاقوس، ولكن

الناس يذهبون لزيارة أقاربهم ويعودون بعد أيام. وهي تدعي أن أمه ذهبت إلى السوق لتشتري له الحلاوة وعيش البندر، وهو يرى الناس يذهبون إلى السوق في الصباح ويعودون آخر النهار. وهو لم يفهم ما قاله شبانة عن ذهاب الأموات إلى الله وتكفله بهم، أما الآن وهو في طريقه لزيارة أمه وجدّته، فيبدو أنه سيجد لديهما الجواب الشافي. وهو لا يفتأ يردد: «لازم اروح الترب واشوف بعيني».

وعبروا جسرا ثانيا يمتد فوق مصرف آسن المياه عطن الرائحة. وساروا في اتجاه «نزلة خيّال» التي يوجد فيها مقر العمدة. فلما صارت البلدة تطل عليهم من بعيد بقبابها البيضاء ونخلها الكثيف وبلغوا نهاية الأراضي الزراعية، انبسطت أمامهم أرض خلت من الزرع إلا من نخلة هنا ونخلة هناك، وتكاثرت فيها المقابر. وتوقفوا عند نخلة عجفاء تتدلى منها أعذاق شعثاء تحمل بلحا أصفر «ما ينفعشي حتى للمعيز» كما قال مدحت بعد أن عاين الثمار الحزينة وقارنها ببلح نخيل الصعايدة. وتوقفت ناعسة وهنية عند مقبرة مربعة مبنية بالحجر وعليها شاهد. وقالت ناعسة: «آدي أمك نايمه هنا مع ستك». مقبرة لا يميزها شيء عن غيرها من المقابر إلا قربها من النخلة المتقزمة. ولم يقتنع مدحت بما قالته ناعسة لأن الميت فيما يفهم لا ينام ولا يصحو ولا يعود. وتدخل الشيخ حامد فقدم شرحا مختلفا وإن زاد الأمر تعقيدا. كان يجلس غير بعيد بانتظارهم هو وابنه الذي يقوده. وطلب إليهم قراءة الفاتحة على روحي السيدتين. وبعد أن قالوا «آمين»، تلا ربعا من القرآن وتلقى فطائر «الرحمة» التي خبزتها هنية. وفي تلك اللحظة ظهر بين المقابر شيخان آخران جاءا غير مدعوين من بلد العمدة، فلم تبخل عليهما هنية ببعض

الفطائر وصرفتهما برفق. ولكن الشيخ حامد كان يرى أن الشيخين الدخيلين يعتديان عليه، فهو أحق منهما لأنه جاء بناء على دعوة، فضلا عن أن الفقيدتين من أقاربه. ونهض واقفا - كأنما قرر أن يثبت أهمية دوره - ودار برأسه يمنة ويسرة وأطرق لبرهة قبل أن يلقي خطبة قال فيها إن الميت بعد دفنه وانصراف المشيعين عنه يفيق من سكرات الموت ويصبح بين يدي خالقه «الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم». ويواجه الميت عندئذ حسابا - قبل حساب اليوم الآخر - أمام ملكين من ملائكة الله ينزلان إلى قبره. فإذا كان شريرا أصبح قبره قطعة من جهنم والعياذ بالله. أما إذا كان خيّرا فيصبح قبره روضة من رياض الجنة. وتهدج صوت الشيخ وهو يقول: «ألا فأبشروا يا إخوتي. زينب وبنتها كانتا من الأخيار؛ وهما بإذن الله في نعيم مقيم حتى يوم القيامة عندما ينفخ في الصور ويبعث الخلق أجمعين، ويأتي كل منهم ليقف ممسكا بكتابه أمام الرحمن، ويقام الميزان. يوم يفر المرء من أمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. ويقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا. وأوصيكم يا أحبابي بأن تصلوا كل يوم بعد صلاة المغرب سبع ركعات نافلة هن مؤنسات القبر، يضئن ظلامه - وظلام القبر رهيب - ويزلن الوحشة عن نفس المتوفى. واغفر الله لنا ولزينب وبنتها، ونجنا من عذاب القبر يا رحمن يا رحيم. اللهم آمين».

كان منظر الشيخ مهيبا وهو يخطب. نفذت إلى ذهن الطفل صورته وهو يقف مستندا إلى النخلة العجوز وبيده عصا يضرب بها الأرض بين حين وآخر لتأكيد كلامه، تماما كما يفعل أثناء خطبة الجمعة وهو يقف على المنبر ملوحا بسيف من خشب داعيا الله أن ينصر «أمير المؤمنين» على «أعداء المسلمين». وتقدم

منه مدحت وانحنى على يده ليقبلها فدعا له الشيخ بأن «يفتح الله عليه». وسأله مدحت: «يعني يا سيدنا ستي وأمي شايفينا؟»، فأجاب الشيخ: «أمال؟ شايفينا وسامعينا وواخدين بالهم مني ومنك. آدي انت فهمت أهوه».

إلا أن مدحت عند عودته من المقابر لم يتورع عن إيقاظ خاله شبانة من غفوة لذيذة:

- آبا شبانه.

وفتح شبانة عينيه ليسمع مدحت يقول:

- دا الموت ده شغلانه. آني ما عدتش فاهم حاجه.

وتجمع على السكة الزراعية أناس كثيرون لتوديعه. لم يكن فيهم من الرجال سوى عمه سعيد، وشبانة، وسلامة. أما البقية، فكانوا من النساء - بما فيهن هنية وناعسة - وجمع كبير من الصبية. وضاق مدحت بكثرة العناق والقبل. فلم يكن آسفا على مفارقة أقاربه ومسقط رأسه. وكان متشوقا نافد الصبر يريد الإسراع إلى البندر. وتشبثت ناعسة به وهي تبكي، ولم يخفف من حزنها أن هنية ظلت تذكرها بقرب عودته: «يا اختي كلها أسبوعين تلاته ويرجع»، وأن ماريكا دست في يدها ورقة نقدية. وجاء إسماعيل مترددا فعانق «أخاه» وحاول كعادته أن يصارعه من باب المحبة، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن لكزته أمه في كتفه ونهرته: «مش وجته يا سماعين. سيب أخوك». وما إن انفك عنه عناق إسماعيل حتى أخذ يتلفت: «أمال فين فريد؟» وكان فريد نافد

الصبر بدوره، فهو يحاول اختراق الصفوف الملتفة حول صاحبه دون جدوى. وهو يقفز هنا وهناك ويتعالى نباحه حتى يفسح له الطريق. وتلقاه صاحبه بلهفة ولف ذراعه حول عنقه وربت على رأسه، وانحنى الكلب مستسلما ليستزيد من ذلك الحنان. وعندما فاز بقبلة على فمه، هدأ واطمأن وتدلى لسانه علامة الرضا. لكن الشعور بالطمأنينة لم يدم طويلا، فقد رأى الطفل يستقل السيارة ليجلس بجانب البنت البندرواية والخواجاية ويغلق عليه الباب. هنا جن جنونه. وتعالت صيحات احتجاجه وظل يطارد السيارة في انطلاقها نحو أبو كبير حتى أصابه اليأس، فتحول نباحه إلى عواء خفيض وأنين.

خلع سالم طربوشه وارتسمت على وجهه ابتسامة رضا. حي الإفرنج هادئ بعد الواحدة صباحا، وفي هذا الجزء من حي الإفرنج حيث يوجد مكتب البريد، يخلو الميدان من المارة، وأنوار أعمدة النور حالمة، وهناك نسمة رطبة تداعب أوراق الشجر. السهرة في بيت أحمد صفوت كانت ممتازة. أكثر من ممتازة. الحشيشة طرية طيعة بين الأصابع؛ تفتلها على صفحة الكف فتصبح مطاطة ولا تتفتت، ويكاد الزيت ينز منها، وإذا مست النار انتشر عبيرها. والصحبة في غاية الأنس، والغناء رائع: أبدع الأستاذ صالح الميقاتي وهو يغني بعض أدوار الشيخ زكريا أحمد. والرحلة إلى البيت في الساعات الأولى من الصباح ممتعة لأنه يعلم ما ينتظره عند عودته. ما زالت بعض أنوار المقاهي ساطعة في شارع الثلاثيني، ولاعبو الطاولة ما زالوا يقذفون بالزهر. وماريكا لا بد قد عادت من الأرياف، وهي تنتظره. وسينال منها ما يريد، فهذه ليلة الجمعة المفترجة. كم كان الفراش الخالي محزنا في غيابها!

ثم فوجئ بمنظر طفل غريب في فراشه: «مين ده؟ وليه جايبا لنا المصيبه دي من البلد؟» فروت له القصة على طريقتها وهي تساعده على خلع ملابسه: «ولد غلبان. يتيم الأم والأب، وشبط فيّه أنا وسلوى». ورأت الامتعاض واضحا على وجهه وهي تساعده على خلع ملابسه، فقالت: «كلها أسبوعين أو تلاته ويرجع لأهله. مش هتعجبه العيشه هنا، وانا بصراحه ما فياش حيل أربي عيال». ويبدو أنه اطمأن من هذه الناحية، فعاد ليسألها: «وليه حاطاه في وسط السرير؟»، فأجابت بقولها إنها تخشى عليه أن يسقط على الأرض إذا وضعته على الطرف. وأفهمته أن ذلك ترتيب مؤقت حتى تجهز له فراشا في الغرفة المجاورة. وسألها مرة أخرى: «طيب وليه ما ينامشي جوه السرير جنب الحيطه؟»، فردت بسرعة كأن الإجابة كانت لديها جاهزة: «لأني عاوزه أطوله إذا صحي. الولد لسه بيبي. ما يغركشي إنه خمس سنين وزياده». واقتنع سالم – على مضض - لأن الطفل كان ضئيلا، كأنه ابن ثلاث سنوات. ورقد في الداخل بينما رقدت زوجته على الحافة. كان ممتعضا لأن تخطيطه انتهى إلى الفشل، ولكنه لم يعد يجد ما يقوله. والغريبة أن ماريكا كانت في حالة مزاجية جيدة وأخذت تثرثر كأن الأمر لا يعنيها. نقلت إليه سلام راضي وزوجته، وأفاضت في وصف ما حدث في العرس: العشاء الرائع والغناء والرقص – ورقصة الدح يوه بالذات - وشبانة الأفيونجي وهلم جرا. وهو لا يريد أن يسمع. في ذهنه هاجس واحد، هو أن هذا الفلاح الغريب أفسد عليه الليلة وبدد آثار التعميرة التي كان يعلق عليها الأماني. وها هي امرأته ترقد غير بعيدة عنه ولكن تفصلها عنه هذه العقبة. لا يستطيع حتى أن يحتضنها وهو الذي تعود ألا يغمض له جفن إلا وهي بين ذراعيه. فإن لم يكن الجماع، فعلى الأقل وجودها في حضنه

وجها لوجه أو ظهرها ملاصق لصدره وساقاها بين ساقيه: «عاشق ومعشوق» كما كان يقول لنفسه دائما. فهكذا يريدها، كأنما يريد أن يطمئن إلى أن هذه اليونانية ملكه إلى الأبد، فينام قرير العين. أعطته نفسها وهي صبية، ولكنه ما زال يريدها ولا يطيق عنها فراقا ولا يهدأ له بال إلا وهما ملتحمان. وهو في بعض الأحيان لا يفهمها. لماذا أصرت على حضور العرس بينما كان في إمكانها أن تتجاهل الدعوة؟ لم يكن يريد لها أن تذهب، ولكنها أصرت. «هتقول إيه في عقل النسوان؟». وسمعها تسكت فجأة لتبدأ التنفس بعمق. ها هي تتهيأ للنوم. وقالت وهي بين النوم واليقظة: «تصبح على خير». أما هو، فقد استعصى النوم عليه بسبب وجود هذا الجسم الغريب في فراشه. ولم تقترب منه بوادر النعاس إلا بعد أذان الفجر. ومد ذراعه ليربت على خصر حبيبته قبل أن يستدير لمواجهة الحائط. أراد أن يقول باللمس: «تصبحي على خير». وخف شعوره بالامتعاض وأصبح وهو يتهيأ للنوم يشفق عليها. مسكينة ماريكا. لا ولد ولا بنت. تعشق الأطفال. تجمع أولاد الجيران وتطعمهم وتخرج بهم للنزهة وتشتري لهم ما يريدون. أحن عليهم من أهلهم. أوروبية وإن كانت تتفوق على الشرقيات في حنانها وقدرتها على العناية بالأطفال. لماذا لم يمن الله عليهما بنعمة الإنجاب؟ جلت حكمته، ولكن الحرمان من الأطفال في ظل ذلك الحب أمر يصعب فهمه وتحمله. الطفل سيرجع إلى أهله إن عاجلا أو آجلا، وينبغي أن يتحمل الأيام القليلة القادمة، وإن كان يأسف – ويا للخسارة ! - لأنها لم تعطه الليلة ما يريد. كان بإمكانهما الذهاب إلى الغرفة المجاورة - كعربون للمحبة. فاته أن يقترح عليها ذلك، وها هي قد نامت، وعليه بالصبر. وأغمض عينيه. عندما كانا يعيشان في بورسعيد – وكان يكافح من أجل الحصول على رزقه يوما بعد يوم – لم

يكن لديهما سرير ولا مرتبة ولا أغطية، فكانا يفترشان معطفه ويتدفأ كل منهما بالآخر. ومع ذلك، فقد كان الجماع في أعظم حالاته. وفي تلك الليالي كان يتذكر ما جاء في

القرآن عن الزوجية: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أو: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ صدق الله العظيم. جميل. جميل.

لا بد أنه نام ساعة أو ساعتين، ولكنه أحس برطوبة خلف ظهره، وتحسس جلبابه فوجده مبتلا، وكانت ملاءة السرير مبتلة. واستيقظ تماما. إذن فعلها ابن الكلب. وأيقظ ماريكا وهو يسب ويلعن، وفهمت ما حدث وأخذت تضحك وتلتمس الأعذار للطفل الغريب: «الولد مسكين مش متعود ع الغربه. مش قلت لك لسه بيبي!» أما الطفل فكان نائما بعمق. ونهضت ماريكا فأشعلت النور وحملت الطفل إلى الحمام، وغيرت له ملابسه – كل ذلك وهو نائم لا يفيق. وغيرت الملايات، وجاءت لزوجها بملابس نظيفة. كل ذلك بهدوء. وسالم يرقب ما يجري في دهشة. يبدو أنها كانت مستعدة لكل طارئ؛ وإلا فكيف وجدت للطفل ملابس نظيفة؟ لا بد أنها استعارت الملابس من عند الجيران. أما بنت كلب صحيح. ثم عادت إلى النوم في لمح البصر كأن شيئا لم يكن.

* * *

ظل ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يقول فيه الطفل: «عاوز أروح بلدنا». ولكن يبدو أن الحياة في الإسماعيلية طابت له. من سوء الحظ أنه وجد أصحابا جددا. هناك سلوى وإخوتها. أسرتها تسكن في الطابق الأرضي من العمارة. فهو ينزل إليهم أو يصعدون بحثا عنه. لم يرحب به أهل سلوى في البداية لأنه ريفي جلف. وكانت لهجته مستنكرة في نظر الجدة. وهي تخشى على أحفادها الذين يلتفون حوله من بذاءة لسانه وفوازيره الريفية ذات الإيحاءات الفاحشة. إلا أن سلوى تولته برعايتها، فأشركته في اللعب مع إخوتها وأقاربها من الأطفال، وأخذت تنفرد به كل يوم على بسطة السلم وتعلمه كيف يتكلم بلهجة المدينة. وخرجت به إلى الشارع واصطحبته إلى بيت أختها الكبرى المتزوجة. ولم يمض أسبوعان أو ثلاثة إلا وأصبح الريفي ينتمي إلى مجتمع جديد.

ثم انتهت الإجازة الصيفية، وعاد أبناء الجيران إلى مدارسهم، وأصبح وحيدا، وهو ما أثلج صدر سالم. الآن سيطالبه الفلاح بأن يعيده إلى أهله. صحيح أنه يتيم الأب والأم، إلا أن سالم يعلم أن كل نساء القرية أمهات لأي طفل، ورجالها أعمام له. وقد أخبرته ماريكا أن هذا الطفل بالذات «متشرد» يتجول من بيت إلى بيت ويأكل وينام أينما أراد. ولكن خاب ظن سالم عندما طالبه الطفل بأن يرسله إلى المدرسة. قال سالم وهو يزوم:

- عاوز تروح المدرسه ليه؟

- كل العيال راحوا المدرسه، وما فيش حد ألعب معاه.

- وهيه المدرسه للعب يا بن الكلب؟

- آني ماليش دعوه. عاوز أروح المدرسه وخلاص.

ومن المحزن أن ماريكا أيدته:

- خليه يروح المدرسه. سيبه. حيروح المدرسه أسبوعين ولّا تلاته لغاية ما يعرف إن المدارس مش للعب، وهيزهق ويرجع لأهله. وبالمناسبه، مدحت بيروح الكتاب في العزبه، لكن أهله بيقولوا إنه خايب ومش نافع. طول النهار يا إما بيلعب أو نايم على روحه.

ولم يفكر سالم كثيرا قبل أن يوافق. الفكرة لا بأس بها. ليذهب «ابن الكلب» إلى المدرسة. شكله يدل على أنه متخلف. ليس هناك ما يدل على أن المدرسة ستروق له أو على أنه قادر على بذل الجهد اللازم للدراسة. أخبرته ماريكا نقلا عن ناعسة أنه قضى في الكتاب سنتين ولم يحفظ من القرآن إلا جزءا واحدا، وأن بعض رفاقه كانوا يحملونه نائما بعد انقضاء اليوم إلى من يتسلمه: جدته أثناء حياتها أو ناعسة. وقالت ناعسة إن زينب جدة الولد دللته حتى أفسدته، وإن الشيخ حامد يعاقب تلاميذه بما فيهم ابنه بالضرب، ولكنه لا يجرؤ على معاقبة «ابن زينب». كل ذلك شجع سالم على الموافقة. وأصبح على يقين من أن المدرسة ستنفر الريفي من المدينة.

ثم جاءت سلوى ذات يوم إلى الدكان على رأس وفد من إخوتها ورفاقها ليخبروه أن مدحت هو الوحيد الذي يستطيع «فك

الخط». لم يكن قد مر عليه أكثر من شهر في المدرسة. قال سالم:

- إزاي يا بن الكلب؟

- أصلي جريت الكلام اللي مكتوب على يفط الدكاكين في الميدان.

- طيب مكتوب إيه على يافطة الدكان هنا؟

قال مدحت:

- والله ما اني فاكر. خليني أروح أشوف كده.

وخرج ليعود بعد قليل:

- اتفضل يا سيدي: «محل سالم حسين عبد الرحمن للحدايد والبويات».

ولم يقتنع سالم، وفتح المصحف على صفحة بعينها:

- طيب وريني شطارتك هنا.

فأخذ مدحت يقرأ:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾

.

كان يقرأ بصعوبة، ولكن الكلام كان مفهوما. واستمر سالم في المكابرة:

- بس انت لازم عرفت السوره في الكتَّاب. طيب اقرا ده.

قالها وهو يشير إلى كتاب تناوله من على الرف. فقرأ مدحت:

«ألف باء المحاسبة، تأليف عبد العزيز محمد حنفي أفندي، خريج الجامعة المصرية».

وبعد ثلاثة أشهر انزعج سالم انزعاجا شديدا عندما مر عليه في دكانه ناظر المدرسة ليخبره أن الصبي «أشطر» تلميذ في السنة الأولى، وأنه يريد نقله إلى السنة الثانية. وسأله سالم لم لا ينتظر حتى نهاية السنة الدراسية. فأخبره أن الولد ذكي وبقاءه في السنة الأولى مضيعة للوقت. ووافق زكي بعد أن فكر قليلا: لينقل إلى السنة الثانية، فقد يجدها شديدة الصعوبة، فيعرف أن الله حق وتصد نفسه عن الاستمرار. ومع ذلك لم يخف استغرابه: كيف استيقظ الخامل البليد فجأة؟ ولم يمض مدحت وقتا طويلا في السنة الثانية حتى جاءت الأخبار بأنه «سالك» تماما فيها. عندئذ أدرك سالم أن الولد باق و«قاعد على قلبه»، وسلم الأمر لله. ولكن الذنب فيما قال لنفسه ذنب اليونانية.

والمحزن أنه يدرك الآن أيضا أن ماريكا كانت تعمل بجد ومنذ البداية على بقاء الطفل. لم يلاحظ ذلك لأول وهلة، ولكن تخطيطها اتضح بالتدريج. يذكر الآن كيف أخذت تتخذ التدابير اللازمة غداة بلل الطفل الفراش. فقد اشترت على الفور القماش

اللازم لتصنع منه أم سلوى عددا من البيجامات للولد؛ ودارت ماكينة الخياطة في الطابق الأرضي. واختفى الجلباب الريفي وحل محله البنطلون القصير بالحمالات والقميص - حتى قبل ذهاب الطفل إلى المدرسة. ذلك ما لاحظه ولم يفهمه في حينه. وهناك أشياء حدثت من وراء ظهره. فلهجة الولد آخذة في التغير: أصبح يحاكي في نطقه سلوى وإخوتها. ولكن كيف؟ لا يمكن أن تكون ماريكا هي التي علمته لأنها ما زالت تتكلم العربية بلهجة يونانية. من الذي علمه إذن؟ أم إنه يتعلم بصفة تلقائية؟ وداهية الدواهي أنه أصبح يستجيب – بكلمة هنا وكلمة هناك – عندما تخاطبه ماريكا باليونانية. إذن فقد بدأت تعلمه لغة أهلها. ويبدو أن دروس ماريكا - الشفهية – أصبحت تترسخ عن طريق اللعب مع أبناء اليونانيين المقيمين في الحي. وسالم يرقب بامتعاض «الفلاح ابن الفلاح» وهو يرطن بلغة الخواجات كأنه واحد منهم، ويضرب كفا بكف.

ثم هناك أمراض الطفل التي لا تنتهي وبرامج العلاج التي تتبعها ماريكا بدأب. في البداية كان هناك الجرب الذي انتشر في جسم الطفل انتشار النار في الحطب. وكان على سالم أن يجد من يحمله ملفوفا في بطانية إلى المستشفى العسكري ليتلقى المراهم اللازمة ويعود به إلى البيت. وبعد ذلك العلاج من البلهارسيا، فقد كان «ابن الكلب» يحب العوم في الترعة. وجاء دور نقص الكالسيوم فدور فقر الدم الناتج عن نقص الحديد، فدور سوء التغذية. «ابن الكلب» يكره جميع أنواع الطعام تقريبا فيما عدا الجبن والسردين المملح. وهو فيما قالت ماريكا لا يمكن أن يعيش على الجبن والسردين. ولا بد إذن من اتباع برنامج غذائي مناسب. وعندما قدمت له الكبد البتلّو لوى أنفه باشمئزاز. وهو في حاجة إلى

النشويات، ولكنه يكره الأرز والخبز والمكرونة. لنجرب البطاطس إذن. مستحيل. ورأت ماريكا أن تقدم له ورق العنب محشوا بالأرز واللحم المفروم: «طبق يوناني عمك سالم بيموت فيه». فقضم مدحت قضمة ثم نحى الطبق جانبا باشمئزاز. وسألته ماريكا: «أمال عاوز إيه يا حبيبي؟»، فأجاب: «عاوز كفته بالدره زي اللي بتعملها مراة عمي هنيه». وضحكت ماريكا وهي تكاد تبكي: «وبعدين معاك يا مدحت؟ طانط ماريكا ما بتعرفشي تعمل الكفته بالدره». فرد مدحت بكل برود: «ما ليش دعوه. اتصرفي». وهي تتصرف – تقول: «ما باليد حيله» - وتحاول إغراءه بشتى الطرق دون جدوى، وهي تغضب وتبكي يأسا منه. وهي مشغولة به دائما. فإذا قيل لها: «ما ترجعيه لأهله وتخلصي منه؟»، زاد بكاؤها. والمصيبة أن الريفي – وسالم يعرف مكر أهل الريف – قادر على استرضائها رغم كل شيء عندما «يلاغيها» باليونانية. وهو يتميز غيظا عندما يرى الاثنين يرطنان في وئام كامل بمعزل عنه.

ما إن جاء إلى الإسماعيلية حتى ظهرت عليه كل الأمراض التي كانت كامنة أثناء حياته في القرية. ليست تكاليف العلاج هي المشكلة. المؤلم حقا هو تكاليف الرعاية التي تقدمها ماريكا. فأمراض الطفل المتعددة تعني أنها كثيرا ما تترك فراش الزوجية وتسهر في غرفة الطفل أو تنام بجانبه، وهي إذا رقدت في غرفتها لا تستقر ولا تنام بعمق ولا تغفل تماما عما يحدث في الغرفة المجاورة. فإذا سمعت الطفل يبكي – وكثيرا ما كان يستيقظ باكيا – هرولت إليه. الطفل مسكين بلل فراشه؛ الطفل مسكين رأى كابوسا؛ الطفل مسكين أنفه ينزف، حرارته مرتفعة، حلقه ملتهب. قصص لا تنتهي. والغريب أنها لا تشكو ولا تحتج،

أو تشكو وتحتج، ولكنها تفعل اللازم بدقة لا متناهية. ولم يعد موضوع الجماع يشغلها، كأنما فقدت الرغبة فيه. كأنها أصبحت ترضى عن الزواج بلا جماع، إلا في مناسبات متباعدة.

ولكن سالم يريده كل ليلة. تزوج ثلاث مرات قبلها، ولم يعرف حالة تشبه هذه الحالة. وهو يتعجب لانصراف المرأة عن الجنس إلى الطفل. فهو ليس ابنها على أي حال. وكيف نسيت العادة التي استقرت بينهما طيلة كل تلك السنين؟ لم تعد تبدي تلك العلامات التي تدل على الرغبة أو على استعداد للقائه في منتصف الطريق. وعليه هو أن يطلب ويلح ويضغط حتى تلين. فإذا حدث ولانت لم تستسلم تماما: أذنها مسددة نحو الغرفة المجاورة لتلتقط أي إشارة. وهي أحيانا لا تلين. تنام وتتركه مؤرقا يتقلب في الفراش طيلة الليل. كيف لم تعد تشعر بما يعاني؟ كيف لم تعد تأبه به؟

وتركته ذات ليلة مؤرقا على هذه الحال. ورأى نفسه يسافر ليلا إليها. الطريق الزراعي هادئ لا يسمع فيه إلا نقيق الضفادع من بعيد. ومهرته تتهادى .. هكذا أراد لها أن تسير. وفي الليل تذيع رائحة المانجو من بساتين الفاكهة إلى اليسار. وهو يتهلل عندما يرى شجر ذقن الباشا أمام شرفتها. أما لقاؤها وهي في قميص النوم! يا للسعادة !

* * *

كان الخواجة بترو يقف وراء الكاونتر يراقب بنته في قلق وهي تخدم سالم فتطيل الحديث معه. لماذا تهتم به دون سائر الزبائن؟ من أفضل زبائنه، وهو وجيه من أعيان الناحية، وأبوه من كبار

الملاك؛ ولهم سراية فيما بين الغابة وفاقوس. ولكن بترو لا يريد لبنته أن تقيم علاقة مع أي إنسان في الوقت الحاضر؛ ناهيك عن علاقة مع «ابن عرب» مسلم تزوج ثلاث مرات. ما زالت البنت صغيرة السن، وهي على أي حال في طريقها إلى جامعة أثينا بعد أن أتمت دراستها الثانوية. أهل أبو كبير يتقبلونه تماما ولا يعترضون على خمارته رغم أنهم مسلمون ودينهم يحرم الخمر. والأقلية التي تشرب الخمر مثل سالم على علاقات ممتازة معه، وهذا يكفي. «نحن ضيوف هنا، وإن كنا ضيوفا دائمين» - ذلك ما يقوله دائما لزوجته وبنته. كلا، لا يريد مصاهرة المسلمين. بعض أولاد العرب يشربون الخمر ولا يعلنون ذلك، فترسل إليهم طلباتهم في بيوتهم. وقليل منهم يأتي بصفة منتظمة ليشرب كأسا من النبيذ خطفا لأن الطبيب فيما يقول وصفه له من أجل إصلاح المعدة، ولا بأس بذلك. الجميع مرحب به هنا، وسالم من القلة القليلة التي تأتي لتأكل بالإضافة إلى الشراب؛ فهو يحب المزات اليونانية، ويدفع بسخاء. أيكون البقشيش الذي يتركه هو ما اجتذب ماريكا إليه؟ ذلك ما يرجوه بترو ويدعو الله ألا يتجاوز الأمر حب البقشيش، «يا رب استر» كما يقول المسلمون. الرجل وسيم وأنيق يرتدي بدلة وطربوشا، ويحمل عصا من الأبنوس. وقد رأى بنته منذ أيام تستقبله عند الباب بحفاوة وهو يربط فرسه.

ولما انصرف سالم، قال بترو لماريكا: «ألم أقل لك مرارا أن تتجنبي أولاد العرب؟»، وصعق عندما ردت بقولها: «ولكني أحب ذلك الرجل». قال وهو يبتلع ريقه: «ومتى كان ذلك؟».. أراد أن يسأل منذ متى كان ذلك؟ ولماذا لم يعلم به قبل اليوم؟ ولكن ليس هذا هو المهم. أفقدته الصدمة القدرة على الرد الصحيح. فالمهم هو أن ماريكا ستسافر إلى اليونان للالتحاق

بالجامعة، وهو يعلق على تعليمها الجامعي آمالا كبيرة. وأراد أن يصيح فيها ليذكرها بما هو منتظر منها، ولكنه رأى سالم يعود لأنه نسي عصاه على المائدة، واستغلت ماريكا الفرصة لكي تهرب. وتلفت سالم ثم جاء ليواجهه، وتنحنح ثم قال: «مش عارف أبدأ ازاي. لكن احنا صحاب. وأنا طالب القرب منك». ووضع بترو رأسه بين كفيه، ولم يستطع النطق بكلمة واحدة، وقال سالم ليتغلب على الحرج: «على العموم فكر في الموضوع»، وانصرف.

في البداية لم يكن بترو يسمح لماريكا بخدمة الزبائن، بل ولم يكن يريد لها أن تعمل في الخمارة أصلا. كانت تقيم مع بعض أقاربه في المنصورة حيث التحقت بالمدرسة اليونانية للبنات، ولكنها كانت تتطوع أثناء العطلة الصيفية بمساعدة أمها في المطبخ – كانت تحب ذلك وكانت الأم تشجعها حتى تتعلم الطهي – أو لتأتي أحيانا بالطلبات من المطبخ إذا اشتد الضغط عليه بسبب كثرة الزبائن. فهي تفتح الستارة الفاصلة بين صالة الطعام والشراب وبين الغرف الداخلية من البيت، وتضع صينية الطلبات على الكاونتر وتختفي على الفور. ثم أخذت أثناء هذه العطلة الصيفية الأخيرة تقوم بخدمة الزبائن بصفة منتظمة كأنها جرسونة. وفي البداية رحب على مضض بمساعدتها، ثم بدأ يعرب عن تحفظاته. وفي الحقيقة إنه لم يكن يعنيه في شيء أن تتعلم الطهي، ذلك موضوع يخص أمها. أما هو، فهو فخور بتفوقها في الدراسة – ودراسة العلوم الطبيعية بصفة خاصة - ويريد لها أن تتخصص في الطب، ويا حبذا طب الأسنان. أما الزواج، فهو يأتي في أوانه، وكذلك الطهي. إذا حصلت على شهادة جامعية، ستجد بسهولة زوجا يونانيا – طبيبا أو محاميا أو رجل أعمال - في

اليونان أو في مصر. وهو لا يفهم لماذا تهتم بالعمل في الخمارة أصلا. صارت تتلكأ عند الكاونتر وتتظاهر بأنها تريد شيئا أو آخر. وعندئذ تتاح للزبائن فرصة لإطالة النظر إلى البنت «الخواجاية» التي ترتدي بلوزة نصف كم ومريلة بيضاء على الجونلة. لم يتعودوا أن يكون الجرسون أنثى تحمل إليهم الطعام والخمور. وأولاد العرب معذورون. الخمر عندهم حرام. فما بالك إذا حملتها إليهم فتاة في الثامنة عشرة؟ وأبناء أبو كبير بالذات لا يعرفون النساء إلا ملتفات في «التوب الملس» الأسود الفضفاض وعلى رءوسهن الطرحة السوداء - منتهى الحشمة. ولا بد أن البنت سال لها لعاب سالم المزواج، والمصيبة أنها تحبه فيما تقول.

وعندما تحدث بترو إلى زوجته في الموضوع أدرك أنها على علم. الأمهات دائما على علم، والآباء هم آخر من يعلم. لا بد أن الأم وابنتها تخفيان شيئا وتدبران فيما بينهما أمرا لا يحتمل. والأدهى من ذلك أن السيدة الفاضلة قالت بهدوء: «ولم لا؟» واحتج ما شاء له الاحتجاج بهدوء تارة وبصوت مرتفع تارة أخرى: البنت في طريقها إلى الجامعة، والرجل مسلم، ومزواج، وفارق السن بينهما كبير وما إلى ذلك. فقالت الأم: «البنت لا تريد الذهاب إلى الجامعة، وهي تحبه». خبران أصاباه بصدمة وإعياء. وظل طيلة الليل يهذي بين نوم ويقظة. وفي الصباح ذكرته امرأته بأن الآباء لا يستطيعون التحكم في مصير أبنائهم، وبأنه هو نفسه تزوجها ضد رغبة أهلها، وسألته: «وماذا تتوقع إذا كنا أتينا إلى هذا البلد؟ أبو كبير ليست هي الإسكندرية أو بورسعيد أو الإسماعيلية. ليس فيها أجانب سوانا. وليس من المحتمل أن تجد بنتك فيها زوجا يونانيا أو أوروبيا. وأنا شخصيا

كنت أفضل الإقامة في الإسكندرية أو المنصورة أو الإسماعيلية، ولكنك فضلت أبو كبير لأنه لن يكون لنا فيها منافس». قال بترو: «فليكن على الأقل قبطيا. نحن والأقباط كنيسة واحدة». فسألته: «وهل هناك أقباط في أبو كبير؟» ويبدو أنه أفحم، ولكنه عاد ليحتج: «ولكننا لا نعرف هذا الرجل. هل نزوج بنتنا لرجل مجهول ولا سبيل إلى معرفته؟». قالت: «الحل هو فترة خطوبة لمدة ستة أشهر يكون فيها تحت المراقبة». ولم يعد لديه ما يقوله، وسلم أمره لله: ليس من السهل التغلب على امرأة واحدة، فما بالك بامرأتين متحالفتين؟

والغريب أن دوريس كانت تبتسم طيلة الوقت كأنها سعيدة بما حدث: سعيدة بانقطاع بنتها عن الدراسة، وسعيدة بزواجها من مسلم. لم يعد يفهم النساء. يبدو أن لهن تفكيرا خاصا بهن لا علاقة له بتفكير الرجال. كيف ترضى بهذا الانقلاب في حياة بنتها وحياة الأسرة؟ كيف نسيت ما دار بينهما من أحاديث وما راودهما من أحلام فيما يتعلق بذهاب البنت إلى الجامعة ودراسة الطب؟ كل ذلك تبخر كأن شيئا لم يكن. وأولاد العرب يقولون في مثل هذه الحالات: «كلام الليل مدهون بزبدة، يطلع عليه النهار يسيح». وأرادت دوريس أن تطيب خاطره، فقالت: «هل كنت تتوقع يوم حملتها على يديك لحظة ولادتها أن تلك الطفلة الجميلة ستكبر لتتحداك وتعصي إرادتك؟» قال بترو: «كلا لم أكن أتوقع ذلك. لكن ماذا تعنين؟ هل ينبغي أن أشقى أم أن أسعد بهذا التطور؟». قالت الأم: «الأفضل لك وللجميع أن تسعد». وقال: «يا ليتها كانت ولدا». فسألته: «فهل كنت ستسعد إذا تزوج مسلمة؟». قال: «لم أكن سأسعد، ولكنه شر أهون من هذا الشر. لا يأتي من وراء البنات إلا الفضائح».

وتمت الموافقة بالشروط التي وضعتها الزوجة. فأصبح سالم يأتي مرة أو مرتين في الأسبوع، ويدعى إلى العشاء بين حين وآخر مع الأسرة. وسرت الأم وابنتها بالتقارب الذي تم بسرعة بين الأب والخطيب. فبترو بعد كأسين أو ثلاثة يذوب رقة، وسالم شخصية مرحة وجذابة، ويعامل أهل خطيبته بكياسة ولطف لا حدود لهما، هذا بالإضافة إلى الهدايا التي صار يحملها إلى ماريكا وأمها، أو يرسلها من مزرعة أبيه (أقفاص الفاكهة، وبرطمانات عسل النحل، والبط والحمام، والطماطم والليمون). وهل يمكن لبترو إلا أن يحبه؟ وتم الاتفاق مع سالم على أن فترة الخطوبة ينبغي ألا تمتد لأكثر من ستة أشهر لا يختلي فيها بالبنت أو يخرج معها. وأين يمكنه أن يخرج معها في أبو كبير؟ من حسن الحظ أنه ليس هناك مكان يخرج إليه المخطوبون أو حتى الأزواج. كما تم الاتفاق بين الجميع على أن تتوقف ماريكا عن الظهور في الخمارة، وهو أمر كان يرضي سالم تماما وكان سيطالب به على أي حال؛ لأنه لا يريد لخطيبته أن تكون جرسونة. وأصبح البيت إذن هو المكان الوحيد الذي يمكنه أن يرى فيه خطيبته – تحت إشراف الأبوين.

إلا أن الأبوين كانا غافلين عن قدرة العاشقين على التحايل. فهما لم يكونا في حاجة إلى الخروج للهروب من الرقابة. هناك غرفة ماريكا في الطابق العلوي من البيت؛ وهناك شجر ذقن الباشا الذي يواجه شرفة الحبيبة ويصلح سلما للصعود إليها خفية. وقد كان. ما إن تمت الخطوبة رسميا حتى أصبح سالم يزور الفتاة ليلا. فهو يمتطي مهرته بعد منتصف الليل، فإذا وصل إلى أبو كبير عبر المزلقان وانحرف إلى اليسار إلى أن ينتهي إلى الشجر، فيربط مهرته ويتسلق أقرب شجرة إلى شرفة ماريكا

ويقف على غصن ليجد حبيبته في انتظاره. فهل علم الأبوان في النهاية بهذه الزيارات الليلية؟ يبدو أن بترو لم يعلم بها على الإطلاق. فهل كانت دوريس على علم بها؟

سالم لم يفكر قط في هذا الموضوع، ولم يخطر له في يوم من الأيام أن يسأل ماريكا. كان حبها يكفيه ويملأ حياته. بل وكان على استعداد إذا لزم الأمر لأن يرضخ لشروط الأسرة ويتنازل عن الزيارات الليلية، ويمضي شهور الخطبة تحت الرقابة، ما دامت تحبه. كان هناك ألف دليل ودليل على أنها تحبه. كانت تعطيه دون شروط. أما الآن وهو يتقلب في فراشه معانيا الحرمان منها، فيؤلمه أنها تريد منه أن يفسح الطريق لطفل دخيل ليس من صلبه وأن يسعد بانصرافها عنه. لعنة الله عليها وعليه. كيف يبدأ الحب على ذلك النحو – فيعطي العاشق كل ما يريد – ثم ينتهي إلى هذه الحال، إلى هذه الفجوة التي تفصل بينهما؟

ويزيد من بؤسه أنه في موقف الضعف. لم ينجب من ثلاث زوجات. ولم يجرؤ في يوم من الأيام أن يقترح على ماريكا رؤية أخصائي في العقم لكيلا يثبت أنه هو المسؤول عن المشكلة. وماريكا نفسها لم تذكر الموضوع إلا على فترات متباعدة، ثم أهملته. لعلها كانت تعتقد أن العيب فيه، ولم ترد أن تحرجه. رضيت بحبه واطمأنت إلى العقم رغم أنها تقدس الأطفال. إلى أن جاء هذا الطفل الغريب، ووجدت الفرصة سانحة لكي تكون أمًّا وتجعل منه أبا – رغم أنفه. لماذا ينزل الله به هذا العقاب؟

* * *

الأزرق هو اللون المفضل لدى ماريكا. عندما ترتدي الجونلة ذات النقاط البيضاء على أرضية من الزرقة، يتذكرها مدحت عندما وضعته في حجرها. وهي الآن تضع على رأسها قبعة كبيرة من القش وعلى عينيها نظارة سوداء. وهو يرنو إليها في هيام إذ يسير إلى جانبها: «إيه الحلاوه دي؟». وعندما عبرت به شارع الثلاثيني نحو حي الإفرنج زاد انبهاره. رأى فتاة على دراجة، فهتف: «شوفي البنت معريه رجليها ازاي». فأخبرته أن البنت ربما كانت فرنسية أو إيطالية، وأن لبس البنات للشورت ليس عيبا عندهم. وتوقف مرة أخرى ليقول: «الله! إيه النسوان اللي لابسين بنطلونات دول؟». فأخبرته أنهن إنجليزيات مجندات في الجيش البريطاني. فقال: «همه النسوان بيشتغلوا كمان في الجيش؟ أمال سابوا إيه للرجاله؟». وتوقف عندما وصلا إلى بوابة يقوم وراءها مبنى من الطوب الأحمر. وشرحت له أن المبنى هو المدرسة الثانوية الإيطالية. فقال: «أنا نفسي أروح مدرسه زي دي». وقالت له إنه إذا استمر في الدراسة بنفس «الشطاره»، فسيذهب إلى مدرسة ثانوية «حلوه»، وسيسمح له عندئذ بلبس البنطلون الطويل وسيزاد مصروف جيبه من قرش إلى قرشين. وأخبرها أن بعض المدرسين في مدرسته يريدون له أن ينضم إلى فرقة الكشافة، وعندئذ سيعطى صفارة ومطواة وبطارية. ولكنه فيما قال لا يريد الانضمام إلى الكشافة.. أما الصفارة والمطواة والبطارية... فوعدته ماريكا بأن تشتري له الصفارة والبطارية إذا كان ترتيبه الأول في نهاية السنة، «وبلاش حكاية المطوه دي لا تعور نفسك».

ماريكا تشتري اللحوم وبعض أنواع البقالة من حي الإفرنج، وتتعمد اصطحاب الطفل لعله يجد ما يغريه بالإقبال على الطعام.

وقد لاحظ نظافة وأناقة محل الجزارة، ولكن لحوم الجزار لا تجتذبه. وتغير موقفه شيئا ما عندما اصطحبته إلى بقالة أبيها. وهناك رأى بطرس يجلس إلى مكتب بالقرب من مدخل المحل: رجلا أبيض الوجه أشيب، قصير القامة وله كرش شد عليه بحزام محكم. نهض الرجل عن مكتبه ليستقبله بحفاوة وأخذ يستعرض معه محتويات المحل. وراق لمدحت تنوع المأكولات والروائح، وتوقف طويلا أمام أنواع الزيتون والمخللات، وتمكنت ماريكا من إقناعه بتذوق البسطرمة. وخرج بصندوق من الملبن أعطاه له بطرس لأنه علم أن مدحت يحب الملبن. وذهبا إلى مقهى جرب فيه لأول مرة في حياته «الجيلاتي» على شكل «كاساتا» مغلفة بطبقة رقيقة من الشيكولاتة. وهناك وقع في هوى الشيكولاتة، وهو ما أسعد ماريكا. تستطيع الآن أن تغريه بأشياء غير الجبن والسردين المملح والملبن.

وأعجبه بصفة خاصة الجلوس في مقاهي حي الإفرنج وشرب الكازوزة المثلجة. وهو يتوقف طويلا أمام متاجر الكتب ويحدق طويلا في الكتب والمجلات الأجنبية في نوافذ العرض، وأمام الإعلانات الملونة عن الأفلام الأجنبية. وأدهشه أن بعض الخواجات ذوو وجوه شديدة الحمرة. واسترعت انتباهه كثرة كلاب الخواجات، وهي تذكره بكلبه: «كان لازم نجيب فريد. كان هينبسط هنا». وهو يحتقر الكلاب الصغيرة والكلاب التي تكاد تزحف على الأرض ويحملها أصحابها؛ فالكلب لا بد أن يكون ضخما. وهو يستنكر بصفة خاصة رؤية الكلاب الصغيرة مع الرجال. وقد صدمت ماريكا عندما استوقفها ليقول: «شايفه الراجل طويل عريض ازاي وشايل له كلب صغير زي البسّه»؛ ولما سألته: «وفيها إيه؟»، أجاب: «أما راجل طري صحيح!».

ولم يكن يعرف أن حي الإفرنج نافذة عرض لأوروبا أو قطعة من أوروبا؛ لأن فكرة أوروبا لم تكن واضحة في ذهنه. كل ما يعرفه هو أن هناك مصريين من ناحية و«خواجات» من ناحية أخرى، لا يفرق فيهم بين الأرمن واليونان والطليان والفرنسيين وغيرهم. كلهم خواجات.

وفي يوم شم النسيم اصطحبته سلوى وإخوتها إلى «الجناين»، وكانوا محملين بما أعدته لهم ماريكا من طعام - البيض الملون والسندوتشات - ليأكلوه أثناء النزهة. ولم يكن مهتما بأي من ذلك، ولكنه كان مبهورا بالمساحات المترامية من الخضرة الكثيفة (على خلاف خضرة الحقول الريفية المسطحة)، والدروب الملتوية المتقاطعة التي تنتهي أحيانا إلى مسطحات مائية أو خمائل وأدغال من أشجار مختلفة. أشجار لم يكن يعرفها فيما عدا السيسبان. لم يكن هناك نخل ولا كافور ولا سنط. ولكنه يجد بيئة توائمه هو الذي تعود على التجول في الريف. وعندما لعبوا الاستغماية وتخيل أحيانا أنه تاه، لم يشعر بالخوف، ولم يتعجل اللحاق بأصدقائه. أصواتهم كانت تأتيه من بعيد وتطمئنه. وراقت له الكثافة النباتية، يستطيع أن يستند إلى جذع شجرة منصتا لزقزقة الطير أو أن يختبئ بين أغصان السيسبان التي تتدلى حتى تكاد تلمس الأرض. ولا بأس إذا اكتشفت سلوى مخبأه وأمسكته، لولا أنها عندما تمسكه تعاقبه بأخذ قضمة من سندوتش أو بيضة – وفقا لتعليمات ماريكا. ولم يفسد هذه النزهة أحيانا إلا انقباض صدره كلما تذكر كلبه. من سيعنى به في غيابه؟ من سيطعمه بانتظام ويحمّيه في الترعة مثله مثل الجاموس؟ وكان أول ما قاله عندما عاد إلى البيت آخر النهار ورأى ماريكا: «خسارة ما

جبناش الكلب. كان هينبسط في الجناين، وما كانشي فيه كلب في الاسماعيليه يقدر يقف قصاده».

ورأى لأول مرة «البحر المالح» في بحيرة التمساح. وكان سالم يراقبه هو ورفاقه ينبشون الرمل في المياه الضحلة بحثا عن «أم الخلول». أصبح «ابن الكلب» يعرف «أم الخلول» ويحب أكلها مع سلطة الطحينة. واندمج في حياة المدينة كأنه ولد فيها. وأصبح موضع إعجاب بين رفاقه بعد أن كانوا باستثناء سلوى يزدرونه. متفوق في الدراسة؛ درس في سنة واحدة مقرر سنتين، ومن المفروض أن ينقل بعد العطلة الصيفية إلى الصف الثالث من المدرسة الأولية. ويحدث أحيانا أن يتمكن سالم من النظر إلى الأمور بموضوعية ويرى أن الطفل جدير بالرعاية والتشجيع. ولكن النظرة الموضوعية لا تستمر إلا لحظات لأنه عندما يصارح نفسه يرى أنه غير قادر على حب هذا الطفل. طفل لا يستدر العطف لأنه رغم صغر حجمه أكبر من سنه، وصفيق، ولديه على كل سؤال رد. وهو في نهاية المطاف ليس من صلبه. فلماذا أصابه الله بالعقم؟ وما قيمة القدرة الجنسية إذا لم تقترن بالقدرة على التخصيب؟

الناس يصفونه بأنه مزواج لأنهم لا يفهمونه. لو أنه رزق بطفل منذ البداية لما طلق وتنقل من امرأة إلى أخرى. وأبوه لم يفهم مشكلته عندما علم بأمر ماريكا. صاح مستنكرا: «عاوز تجّوز نصرانيه أجنبيه؟». واشتد سخطه عندما رد عليه بأنه يحبها. ولو أنه أطلعه على سره، وأخبره أنه ما زال يريد أن ينجب وأن يكون له وريث أو ورثة مثله، لكان رد أبيه جاهزا: «وليه ما تجوّزش مصريه مسلمه؟». والحقيقة أن الرجل ضاق به: بزواجه وطلاقه

عدة مرات. وذكره بأنه ما زال يعيش في بيت أبيه وأن أباه هو الذي يتحمل المسؤولية في حالة الزواج والطلاق، وأنه هو الذي يدفع المهر، ويفض النزاع عندما ينشب، ويدفع النفقة وما إلى ذلك. ورد عليه سالم قائلا: «البركه فيك. لكن أنا مش جاعد في البيت عواطلي. آديني بساعد في الزراعه. وأوامرك بنفذها». ولكن أباه مستاء منه أصلا، ويرى في قرارة نفسه أن ابنه فاسد. كان يرجو له أن يحصل على عالمية الأزهر ويصبح إنسانا محترما؛ عالما أو قاضيا شرعيا أو معلما. ولكنه هجر الأزهر وخلع الجبة والقفطان ولبس البدلة والطربوش، وأصبح يقلد الأوروبيين؛ وجاءت الأنباء – وهذا هو الأسوأ - بأنه يتردد على خمارة بطرس. ومع ذلك، فقد هدأ الأب قليلا ثم قال: «يا سيدي كتر خيرك. أنا تعبت من الجواز والطلاج، ومع ذلك يا سالم أنا ما يرضينيش انك تجعد وحدك من غير جواز. ما عندناش حد يجعد عازب». ثم عاد ليكرر الرد الجاهز: «ليه ما تجوزش مصرية مسلمة بنت ناس أشراف؟ إحنا نجيب لك أحسن بنت. مش تجّوز بنت جريجي صاحب خمارة. ده اسمه كلام؟ الناس تجول علينا إيه؟». وكانت النتيجة واضحة؛ كان عليه أن يرحل إذا تمسك بماريكا.

وكان لا بد أن يتمسك بها. لم يشرح – وما كان باستطاعته أن يشرح – هذا الجانب من الموضوع لأبيه؛ فهذه هي الزوجة الوحيدة التي اختارها عن حب. أما الأخريات فكن من اختيار الأسرة وبترتيبات مع أسرة الفتاة - كما جرت العادة. وهفا قلبه إليها بعد أن تأكد أنها تبادله الرغبة. في البداية كان يراها وهي تحمل الطلبات إلى أبيها. تنفرج عنها الستارة التي تتدلى منها خيوط عليها خرز ملون ثم تختفي وراء الستارة بسرعة، فيخفق

قلبه: يريد أن يملأ عينيه منها. وكان من الممكن أن يبقى الوضع على هذه الحال دون أن يحدث شيء. ولكنه لاحظ ذات يوم أنها توقفت وظلت تسترق النظر إليه. ولما التقت عيناه بعينيها ابتسم فابتسمت. وتغير عندئذ كل شيء. عرف أنها تريده. هي الفتاة الوحيدة التي بادلته حبا بحب، وتلك هي المرة الأولى التي عرف فيها الحب، وأبوه ما كان ليفهم ذلك. ولا بد أن يتمسك بها.

ولم يفارق بيت أبيه قبل أن يسرق ثلاثين جنيها ذهبا كان أبوه يحتفظ بها. فدفع منها مهر ماريكا ورحل بها إلى بورسعيد حيث أنفق جزءا في السكن والإقامة، وضاع الجزء الأخير في شراكة خاسرة في تجارة المانيفاتورة. وكان عليه في النهاية أن يعمل أجيرا باليومية. فعمل في مواقع البناء، وحمالا في الميناء، وجرسونا في المقاهي والمطاعم. إلى أن تلقى نصيبه في الميراث، فتيسرت الأمور وانتقل هو وزوجته إلى الإسماعيلية حيث افتتح دكانه الحالي للبويات والحدايد.

الأمور ميسورة الآن والحمد لله، وماريكا وقفت معه في أيام الشدة، ورضيت طيلة سنوات بالقليل وما هو أقل من القليل، ولكن دون إنجاب. لو أنه رزق منها بطفل، لكان لصيقا به منذ البداية، ولكان من السهل حبه وتدليله. أما أن يؤتى له بصبي في الخامسة من عمره (ولعله أكبر من ذلك لأن سكان الريف لا يعنون دائما بتسجيل المواليد فور ولادتهم، وقد تمر الأسابيع أو الشهور قبل أن يفعلوا ذلك) ويطلب إليه أن يعامله كأنه طفله المدلل، فهو أمر لا يستطيعه. ولو أنه كان لديه عدد من الأطفال وجاءه هذا الطفل الغريب لسهل عليه تقبله لينضم إلى البقية وليتوه بين غيره من الأطفال، وماريكا كانت ستسعد أيما سعادة لو أن لديها منه عدة

أبناء. «الحلو ما بيكملش» – على رأي المثل. أما أن يطلب إليه أن يتبنى طفلا ليكون هو الطفل الوحيد في الأسرة، فهو أمر يصعب عليه الرضا به. وعلى أي حال لم يطلب إليه أحد أن يتبنى الطفل. استولت ماريكا عليه منذ البداية.. واستولى عليها، ووضعت زوجها على الرف. ويخيل إليه أن ماريكا لا يعنيها في قليل أو كثير أن يكون قريبا من الطفل. هي سعيدة باحتكاره وكل المطلوب منه هو تحمل التكاليف. وهذا الزواج الذي قام على الحب – والحب المتبادل – كان ينبغي أن يتوج بالإنجاب. لم يتحقق ذلك رغم أن التخصيب يحدث لأوهى الأسباب. ما هي حكمة الله في ذلك؟ لماذا ينكل به؟ وظلت ماريكا «تزن على دماغه» حتى حصل بواسطة أحد أصدقائه وبصفة استثنائية على عضوية البلاج الفرنساوي التابع لشركة قناة السويس. والبلاج لم يكن يعنيها في شيء إلى أن ظهر مدحت. وأصبحت تصحبه إلى البلاج مرة في الأسبوع على الأقل. وهي لا تأتي به وحده، بل تدعو من أجله سلوى وإخوتها وأي عدد من الرفاق. وهي تتكفل بالإنفاق على الجميع: الطعام والمشروبات والجيلاتي والحلوى، كل ذلك بسبب الريفي. وترتب على عضوية البلاج الفرنساوي أنه لا بد أن يصحبهم ولو بين حين وآخر. وهو ما لا يريده: الناس يعرفونه، وهو لا يحب أن يرى مع هذا الطفل الذي يعلم الجميع أنه ليس ابنه. ولكن ماريكا تقول باستنكار: «مش معقول نروح البلاج دايما من غيرك. لازم تيجي معانا ولو مره كل أسبوعين. ولّا عاوز الناس تقول عني أرمله؟». وها هي ماريكا أقبلت. وما إن لمحها مدحت حتى ترك أمر أم الخلول لرفاقه. وجاء ليطلب فلوسا لشراء جيلاتي. واصطحبته ماريكا إلى البوفيه مع مجموعة من الأطفال.

إلا أن مدحت يتلكأ ليتفرج على الأجنبيات «العرايا» المستلقيات على الرمل «مش هاممهم». وعبثا تحاول ماريكا إقناعه بأن لبس المايوه ليس عريا، فيقول: «معقول؟»، فتجيب: «أمال انت عاوز إيه؟ يعني ينزلوا البحر بجلاليب؟ وبعدين خد بالك إنهم عاوزين يسمرّوا في الشمس». وهي إجابة لا تقنع الريفي: «دول نسوان هبل. فيه أحسن م البياض؟». ولكن يبدو أنها نجحت في إقناعه بأن إطالة النظر إلى السيدات عيب.

ماريكا تسير حافية في فستان من القطن الرقيق الشفاف المنقوش بزهور صغيرة متعددة الألوان، ونسيم البحر يرفع ذيل فستانها ليكشف عن جمال ساقيها. ومويجات البحيرة تلعق قدميها الصغيرتين. تريد أن تكون أما مهما كان الثمن، ولكن سالم لا يرى فيها إلا الصبية التي عرفها في أبو كبير. هدية من الله؛ صنع كلا منهما للآخر. تهرع إلى حضنه كلما رأته، وإذا وقعت قبلته على عنقها، أرته كيف تسري أصداء القبلة إلى بشرة ساعدها، فهي باردة تتناثر عليها حبيبات لا تلبث أن تختفي. هي الحَبَب الذي يطفو على سطح الخمر ليعلن استيقاظها وانتعاشها؛ هي حروف متناثرة لو جمعت لقالت: «أحبك. أريدك». كانت تستجيب لأي إشارة منه مهما كانت هينة. يكفي أن يلمس ردفها في الفراش لتتلقفه. فماذا حدث؟ كل شيء – منذ تبادلا الابتسام لأول مرة – كان يدل على أنها من عند الله، وأنها خالصة له. فمتى تعود الصبية اليونانية إليه؟

* * *

ما أعظم الذهاب إلى المدرسة الابتدائية! هناك كثير من المزايا. المدرسة «أميرية»، كلمة لها وقع هائل وهيبة. ليست مدرسة خاصة، والالتحاق بها شرف عظيم. وطالب الابتدائية يسير وحده إلى المدرسة ويعبر شارع الثلاثيني وحده – لينتقل إلى عالم الإفرنج، فالمدرسة تقع في بدايته. وهناك أيضا لبس الطربوش. ومعنى ذلك أن الإنسان صار أفنديا مثل العم سالم. وهكذا حمل طالب الابتدائية شنطته المصنوعة من التيل وسار إلى المدرسة في بدلته الجديدة وعلى رأسه الطربوش. فمتى يتاح له حمل عصا من الأبنوس؟ وراق له النظام المطبق في طابور الصباح عندما يصطف التلاميذ ليحيوا العلم ويغنوا نشيدا في حب «مليك البلاد». ويمر المشرف ليفتش على نظافة التلاميذ. فإذا وجد تلميذا لم يحلق شعره كما ينبغي أو لم يقص أظافره أو لم يلمع حذاءه، أخرجه من الصف وأمره بالرجوع إلى البيت، فيضيع اليوم الدراسي عليه. ولم يحدث في يوم من الأيام أن أخرج من الصف وأرسل إلى البيت لأن ماريكا تحرص على عمل اللازم: الحلاقة في مواعيدها، وقص الأظافر، والاستحمام عشية اليوم الدراسي، ولا بد أن يكون الطربوش مكويا والحذاء ملمعا، والقميص نظيفا، ورابطة العنق معقودة على النحو اللائق. «شايف عمك سالم وجيه ازاي؟» – ذلك ما تقوله دائما. وكان أخوف ما يخافه أن يضيع يوم دراسي عليه. لو حدث ذلك – وهو ما كان يحدث أحيانا بسبب المرض وإصرار ماريكا على بقائه في البيت – لكان كارثة كبرى. فالطفل الذي كان يقضي معظم الوقت نائما أو شبه نائم في الكتاب أصبح يرفض التخلف عن المدرسة حتى في حالة المرض، وكان على ماريكا أن ترغمه على التغيب وأن تتحمل عواقب ذلك من شعور بالتعاسة وبكاء. كأنما استقر في نفس الريفي أن المدرسة هي سلاحه الأعظم في

التفوق بين أبناء المدينة. ألم يقل له شبانة: «المدرسه هيه أمك وأبوك»؟

غير أن فرحته بالطربوش لم تدم طويلا. كان نحيلا وضعيفا لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلا عن أن لهجته كانت ما تزال تشي بأنه ليس من أبناء البلد. لم يمض يومان في المدرسة إلا وصار يوصف «بالفلح»، وأصبح الطربوش كرة قدم يتقاذفها كبار التلاميذ في فناء المدرسة أثناء الفسحة. كان ذلك صدمة كبيرة له، ويومها عاد إلى البيت باكيا، ومن حسن الحظ أن المدرسة تنازلت بعد فترة عن التمسك بالطربوش.

ثم ألصقت به صفة أخرى بعد قليل، وهي صفة «الميت». أطلقت عليه لأنه كان شاحبا وهادئا ويبدو عليه الوخم والخمود. وإذا تحدث إجابة عن سؤال أو إذا أمر بالقراءة بصوت عال بدا صوته نحيلا آتيا من بعيد. ولم يطل صبره حتى جاءه رد الاعتبار. فقد دخل الفصل ذات يوم ناظر المدرسة وأمر المدرس التلاميذ بالوقوف كما جرت العادة. وبعد أن جلسوا ناداه الناظر بالاسم ليأتي إليه. وربت الرجل على كتفه وصافحه. وهنأه بالنجاح. وقال للتلاميذ: «زميلكم هذا كان ترتيبه الأول في اختبارات الفترة الأولى والأول في اختبارات الفترة الثانية، ولديَّ ثقة في تفوقه في امتحان نهاية السنة، ولذلك يسعدني أن أقدم له هذه الجائزة المتواضعة»، وكانت الجائزة قلم حبر ومجموعة من الكتب. قلم حبر مرة واحدة! كان ذلك حلما بعيد المنال، وها هو قد تحقق.

وما إن خرج الناظر حتى نادى الأستاذ شفيق مدرس اللغة العربية مدحت مرة أخرى وطلب إليه الوقوف إلى جانبه. ووجه الكلام

للتلاميذ فقال: «بلغتني بعض الشكاوى ضد تلاميذ أنا أعرفهم. يقال إنهم يتحرشون بمدحت ويهينونه». وتوقف برهة ليدوي صوته: «إذن أقول للحوش الأنذال إن مدحت دهه – اللي واقف جنبي دهه - هو أحسن واحد فيكم. وهو من الآن في حمايتي. إللي بيعتدي عليه بالكلام أو بالفعل كإنه بيعتدي عليّه. وإذا جتني شكوى تاني فيكم – وانتم عارفين الأشخاص المعنيين - فأقسم بالله العظيم إن ما عندي لكم إلا الجَلد. سامعين؟ سامعين يا بجم؟ لقد أعذر من أنذر».

وكان الجميع يفهم ما يعنيه الأستاذ شفيق بالجلد. فقد عهدت إليه سلطات المدرسة بمهمة الإشراف والتأديب كما سمحت له بإنزال العقاب على مستحقيه باستخدام السوط إذا اقتضى الأمر. وكان له في هذا الباب سابقة معروفة. فقد نما إلى علم المدرسة أن بعض التلاميذ كوّنوا عصابة أسموها «الخفاش» لإرهاب بقية التلاميذ في المدرسة أو الاعتداء عليهم في الخارج. وقيل للأستاذ شفيق إنهم ارتكبوا بعض السرقات، وإنهم كانوا «يعاكسون» البنات وهن في طريقهن إلى المدرسة أو عند عودتهن منها. وأجرى الأستاذ شفيق التحقيقات اللازمة واستدعى أولياء الأمور المعنيين إلى طابور الصباح ليشاهدوا بأنفسهم أبناءهم وهم يجلدون.

وعاد مدحت عدوا من المدرسة إلى دكان عمه سالم. فزف إليه الأنباء السارة وأراه جوائزه لا سيما قلم الحبر. الفوز بهذا القلم شيء لا يستهان به. التلميذ في المرحلة الابتدائية يستخدم الريشة، وهو لا يحصل على قلم حبر إلا في المرحلة الثانوية؛ هذا إذا كان محظوظا. وقال لعمه سالم: «إيه رأيك يا عم؟». فكانت إجابة سالم: «كويس. إجري إذن ع البيت». وبهت مدحت بإزاء هذا

الفتور. كان فخورا بتفوقه الذي نوه به الناظر وأكده الأستاذ شفيق. وكان ينتظر من عمه تهنئة حارة أو كلمة تشجيع واضحة. وسأل سالم: «بس كده؟»، فكان رد سالم حاسما: «أمال عاوز إيه ملعون أبوك. إللي بينجح بينجح لنفسه».

وتشعر ماريكا بالضيق والحرج عندما ترى خيبة أمل الطفل وحاجته إلى التشجيع. ولكنها تحاول التماس الأعذار لزوجها، فتقول مثلا: «عمك راجل طيب وكريم، بس هوه عصبي. متاخدشي في بالك وما تزعلشي منه». ولكن التجارب علمت مدحت أن كرم سالم لا يشمله إلا بواسطة. كان إذا طلب شيئا من عمه، نهره: «غور من وشي»، أما إذا وسط ماريكا، فعندئذ تحدث أشياء غريبة، في صباح اليوم التالي. يناديه سالم ويسأله: «كنت بتقول إيه امبارح؟ كنت عاوز إيه؟». فيرد مدحت قائلا: «ولا حاجه. ما كنتش عاوز حاجه». فيقول سالم: «قول يا بن الكلب. كنت عاوز إيه؟». فيرد مدحت متلعثمًا- فالتلعثم جزء من الدور-: «يعني كنت عاوز أقول... الجزمه ضيقه وعملت لي كاللو في رجلي... و...». فيصيح سالم: «يعني عاوز جزمه جديده. مش كده؟ طيب ما تقول؟ هوه انت ما لكشي لسان؟». وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد، لا تكون هناك حاجة إلى مزيد من الإيضاح، فقد وصلت الرسالة وفهمت وتشترى أو تفصل الجزمة الجديدة.

وسلوى واسطة ممتازة إذا جاء إلى الدكان في صحبتها. عندئذ يتهلل الرجل ويترك كل ما في يده ليحتضن البنت «الأمورة» ويجلسها على ساقيه، ويرسل من يشتري من الحلوى ما يكفي لثلاثة أو أربعة أطفال. ويصيبه جزء منها بطبيعة الحال، ولكنه

يشعر بالغيرة من سلوى - إلى أن يفلسف الأمور فيذكر نفسه بأنه ولد وبأن التدليل للبنات.

ولا بد من التسليم في النهاية بأن الرجل صاحب حالات. ما أجمله عندما يكون في حالة مزاجية جيدة! يدرك ذلك بسهولة من يرى العناية الفائقة التي يبذلها في إعداد الشيشة بعد الغداء. فهو يقف عندئذ في مواجهة النافذة في فانلته الطويلة الأكمام وسرواله الأبيض الفضفاض ليرطب التبغ ويفركه، ويصفه برفق وعناية فائقة على الحجر، ويذهب إلى المطبخ ليأتي بالجمرات المتلظية، ويرصها على التبغ بدقة. ثم يتصاعد الدخان من أنفه. كل شيء يدل على شعور بالرضا والسعادة. ويخيل لمدحت أنه لو طلب أي شيء من عمه في تلك اللحظة، لاستجاب لطلبه دون تردد. غير أنه لا يجرؤ على المحاولة، ويفضل ترك الطلبات لوساطة ماريكا، ويكتفي بمراقبة ما يجري بإعجاب. الرجل طويل القامة وسيم وأنيق دائما، ولا يلقى من الناس إلا السمع والطاعة. جيرانه في ميدان عباس يهابونه، ولكن يحبونه. وبعضهم – وبخاصة الجرسونات الذين يحملون إليه طلباته في الدكان – يتحمل غضباته ويتقبل شتائمه البذيئة بصدر رحب وابتسامة. وبائعو الفاكهة أو السمك في شارع مصر يقدمون له أفضل ما لديهم؛ لا يجرؤ أحد على غشه أو إعطائه بضاعة «درجة ثانية». وقد يقرر أحيانا قضاء أمسيات الصيف في البيت، فيخلع الطاقية التي يحرص على لبسها عند خلع ملابس الخروج ويستلقي على السرير إلى جانب ماريكا يحادثها أو يغني لها أحد الأدوار القديمة للشيخ سلامة حجازي أو الشيخ سيد درويش. (لم يكن مغرما بعبد الوهاب ولا شديد الحماس لأم كلثوم إلا إذا كانت الأغنية من تلحين الشيخ زكريا أحمد). وفي تلك المناسبات السعيدة كان

يُسمح لمدحت بالجلوس على حافة السرير فيعجب – وهو قريب غاية القرب من عمه يكاد يلمس ساقه – لوداعة الرجل وعذوبته، ويتمنى لو أنه استطاع الإمساك بيده أو الاستلقاء بجانبه.

كأن حب ماريكا لا يكفيه، ولا يخفف من تعاسته أنه أصبح يحب المدينة، ويحبها على طريقته. ميدان عباس هو المركز، نقطة انطلاقه فيما بين ترعة الإسماعيلية إلى اليمين وسور السكة الحديد إلى الشمال، وفيما بين شارع الكرنك إلى الخلف وشارع السلطان حسين في حي الإفرنج إلى الأمام. هذا هو مجال حركته و«توهانه». مربع كبير يتألف من مربعات صغيرة قامت عليها المباني، ويحلو له أن يتوه فيه أينما اتجه - باستثناء رحلة الصباح إلى المدرسة، فهو عندئذ يسير في خط مستقيم. أما إذا خرج من المدرسة أو أرسل في مهمة هنا أو هناك، فإنه يجد دائما ما يغريه بالانحراف عن الوجهة الأصلية أو الغرض الأصلي فيسير في خطوط متعرجة ويتلكأ أو يتوقف لينضم إلى فريق من الصبية إذا كانوا يلعبون كرة القدم في الشارع أو يركبون الدراجات، أو ينطلق إلى حي الإفرنج ليشاهد مكاتب الجيش الإنجليزي أو الكتب الأجنبية أو إعلانات الأفلام عند دور العرض، ويتوقف مبهورا أمام الشرفات الخشبية والسقوف المغطاة بالقرميد الأحمر والمدرسة الثانوية الإيطالية، فينسى الوجهة التي يقصدها أو الغرض الذي أرسل من أجله. ترسله ماريكا مثلا إلى دكان عمه أو يرسله هذا الأخير إلى البيت لسبب أو لآخر، فيبدأ تجواله في جنبات المربع الكبير قبل الوصول إلى الدكان أو إلى البيت. لم يكن يتعمد ذلك، ولكن المدينة تعترض سبيله بمغرياتها الكثيرة وتنحرف به عن مقصده. ولم يكن يخامره شك في أنه قادر دائما على الاهتداء في النهاية إلى الطريق السليم. وكان يتعجب كلما

رأى مناديا يسائل «أولاد الحلال» عما إذا كانوا قد رأوا طفلا تائها. هذه مدينة لا يمكن لإنسان أن يتوه فيها طالما بقي في نطاق ذلك المربع. وكان «توهانه» مصدر قلق شديد لماريكا، ولكنها تتسامح وتضحك: «الولد طبعه كده». أما العم سالم، فيغضب ويثور ويلعن ويسب «ابن الكلب»، غير أن «ابن الكلب» لا يتوب. كان قد تعود على التجوال في الريف، وها هو يتجول بطريقة تكاد تكون غريزية في شوارع المدينة. تجربة جديدة ولكنها تدعوه إلى خوضها كما كانت تدعوه تجربة الحقول. وهو عندئذ ينسى ماريكا وينسى سالم ويسلم نفسه في حالة تشبه الحلم للمشاهد التي تتجدد دائما رغم ألفتها.

ميدان عباس هو مركز المدينة، بل هو مركز العالم. فيه دكان «العم» سالم، وفيه وقعت خياناته الأولى لسلوى. كان في السنة الثانية الابتدائية عندما رأى معها قريبة لها تدعى إبتسام. لقاء واحد، لكنه كان كافيا لإقامة الرابطة، فلم يرها بعد ذلك إلا وهي في طريقها إلى المدرسة. لم تكن أجمل من سلوى، ولكنها كانت تكبرها وتكبره سنا. وهو يحرص إذن على انتظار مرورها كل صباح ولا يبرح مكانه إلى مدرسته حتى يراها، دون أن يكلمها؛ فلم يكن يجرؤ على ذلك. هل كانت تلحظه؟ كان يحاول جهده ألا تراه. ولعل حرصه على ألا تراه أشعره ولو على نحو غامض بأن انتظاره لها لم يكن «بريئا». ولكنه يدرك بوضوح أن علاقته بإبتسام تختلف عن علاقته بسلوى. فثمة ميل قوي لا يعرف له اسما يشده إلى الفتاة. لم يشعر بذلك الميل عند المشاركة مع سلوى وغيرها من الأطفال في لعبة «البيوت» التي ينقسمون فيها إلى أزواج ويحاكون الكبار: يذهب الولد («الزوج») إلى العمل ويعود إلى البيت فيجد البنت التي اختارها («زوجته») قد أعدت

الطعام، وبعد تناول العشاء يذهب الاثنان إلى الفراش فيختبئان تحت غطاء إلى أن يصبح الصباح، وتستأنف «الحياة الزوجية» دورتها. وكان يحتضن «زوجته» سلوى – فهو يختارها دائما - تحت البطانية كما ينبغي للرجل أن يفعل دون أن يشعر بتلك القوة الجاذبة. أما لو أنه تمكن الآن من احتضان إبتسام ...

ثم ظهرت بائعة العطور. كانت تفد على الميدان صباح الجمعة قبل الصلاة وتدور على رواد المقاهي وأصحاب المتاجر، وتمس يد كل رجل بسبابتها المبللة بعينة من العطر. ومرت به ذات يوم بالقرب من دكان سالم، ولم تتجاهله لصغر سنه (كانت تعلم أنه لا يمكن أن يشتري منها). كان منشغلا بقراءة ملصق من بقايا الحرب العالمية يحمل صورة تنين ويحذر من الخطر الأصفر، ولمست كتفه. فلما استدار قالت: «هات إيدك». ومست يده بسبابتها، فكأنما جعلت منه أسيرا لها، وأصبح ينتظرها ما استطاع إلى ذلك سبيلا صباح الجمعة من كل أسبوع. لم يكن يعرف اسمها، ولكنها بقيت بالتوازي مع إبتسام موضع اهتمامه وهيامه. غير أن الفارق بين هذه وتلك هو أن بائعة العطور كانت تزوره في أحلامه، فيراها معه بين غصون السيسبان أو في ظل خميلة أو في فراشه. وعندما تقدمت إبتسام وبائعة العطر لتحتلا الواجهة من اهتمامه توارت صورة سلوى وإن كان يراها بصفة يومية تقريبا.

وميدان عباس هو موقع المناسبة الكبرى والاحتفال الأعظم، فقد عرف فيه السيرك لأول مرة في حياته. المدينة تحتفل بقدوم سيرك الحلو بالطبل والزمر والمواكب الحاشدة. عندئذ ينصب سرادق ضخم في الميدان، وتنطلق منه مواكب الدعاية الرائعة

التي ترافقها الموسيقى النحاسية والطبل البلدي ويتقدمها البلياتشوهات والأقزام. وعندما اصطحبته ماريكا إلى السيرك مع سلوى وإخوتها بهره منظر حيوانات الغابة: الأسد والنمر والفيل. ولكن المشهد الذي كان له أعظم التأثير في نفسه والذي تسارعت له دقات قلبه محاسن الحلو وهي تقفز إلى صهوة الحصان وهو يرمح. لم يخطر له قبل ذلك اليوم أن في إمكان امرأة أن تمتطي صهوة حصان بكل تلك القوة والخفة والرشاقة. ميدان عباس هو المكان الذي تطير فيه محاسن الحلو لتستقر برفق فوق حصانها، كأنها مجنحة!

إلا أنه رغم حبه للإسماعيلية لم يكن يغفل طويلا عن شعور جديد أصبح يلازمه. فهو في هذه المدينة الجميلة يدرك بوضوح أنه لا ينتمي حقا لأحد ولا لمكان. لم يكن ذلك الشعور جديدا عليه كل الجدة - كان «يتوه» في الريف – ولكنه اشتد هنا. فهل كان ضياعه في شوارع المدينة أحد مظاهر هذا الوعي أم أنه كان طريقة للفرار منه؟ ماريكا ليست أمه الحقيقية. ولم تكن ناعسة أمه الحقيقية. وهل للرجل الطويل الوسيم الذي يتجاهل وجوده دور في ذلك؟ لماذا لا يسمح له الرجل بحبه؟

* * *

عندما أمسك بيد ماريكا التفتت إليه وابتسمت. كان يجلس إلى يسارها ويتابع مشاهد السيرك بانتباه شديد ويستجيب لها كغيره من الأطفال فيصيح أو يضج بالضحك أو ينهض قليلا عن مقعده ليرى بوضوح محاسن الحلو وقد اقتربت بجوادها، ولكنه كان أشد حماسا من الجميع. كل ذلك دون أن يدع يدها تفلت من يده. كانت

ترجو عندما أتت به إلى الإسماعيلية ألا يكون مجيؤه نزوة عارضة وأن يفضل البقاء معها على الرجوع إلى أهله، وكانت تخطط لذلك. ولكنها لم تكن على يقين من أن تخطيطها سينجح. قالت لها ناعسة: «الواد ده جبلاوي. مش هيعمر معاكي». فلما سألتها عما تعنيه، قالت: «يعني براوي ما بيولفشي على حد». ولكن ها هو باق معها، وها هو يتشبث بها. لا يخفف عنه في حالة الحمى إلا أن يتوسد ساقها، ويصيبه الرعب عندما يغضب منه سالم، وإن وقف صامدا يتلقى الصفع دون أن يحرك ساكنا، ولا يبدأ الانهيار والبكاء والنشيج المتواصل إلا بعد انصراف سالم. وكان هناك عقاب آخر يثير فزعه، فهو يتوسل إليها: «إوعي الله يخليكي يرجعني البلد». فتقول له: «ما تخافش، ما حدش يقدر يرجعك البلد طول ما انت معايا». والمفزع حقا هو حكاية «على طول» هذه.. الناس – إلا هذا الطفل – يتصرفون كما لو كانت الأشياء ستدوم. هي نفسها تتمسك بسالم وتقضي فترات طويلة ولم تفكر يومًا في احتمال افتراقهما. لم يكن يخطر على بالها أنه – وهو المزواج – قد يهجرها إلى غيرها أو أنه قد يجمع بينها وبين امرأة أخرى. كانت تعتمد اعتمادًا كاملًا على حبهما، أما الآن، فقد أصبحت تتذكر بين حين وآخر أنه يكبرها بحوالي عشرين سنة. ماذا عساها تفعل إذا رحل عنها وتركها وحدها؟ ثم تنسى الموضوع تماما - إلى حين.

وهكذا كانت تشعر عندما قرر أبواها بيع ما يمتلكان في أبو كبير وقررا التقاعد في الإسماعيلية وسكنا بالقرب منها. التأم شمل العائلة، ولكن مجيئهما إلى الإسماعيلية أصبح يذكرها بكبر السن والمرحلة الأخيرة من الحياة. يتغديان عندها كل يوم جمعة. يعود سالم بعد الصلاة يحمل الفاكهة ويجدهما في انتظاره، ثم يلتف

الجميع حول مائدة عامرة. وهي ترى أمها وقتما شاءت لشرب القهوة معا. غير أنها أصبحت تشعر بالقلق في ظل التئام الشمل وهذه الحياة المستقرة، وبدأت تراودها فكرة افتراقهما عنها. ثم يأتي مدحت – يلوذ بها وتلوذ به على نحو ما – ولكنه ما زال صغير السن، وهو في حاجة إلى رعاية طويلة الأجل، وهو مسؤولية كبرى تقع عليها وحدها لأن سالم لا يريده.

تتشبث بسالم وتتشبث بمصر.. أحبت المنصورة وأحبت أبو كبير رغم أن الحياة في هذه البلدة الأخيرة محدودة. كان أبواها يصحبانها أحيانا لقضاء اليوم في الزقازيق لتناول الغداء في أحد المطاعم والتسوق، ولم تكن تطمع فيما هو أكثر من ذلك. ولم تجد ما يغريها باليونان عندما سافرت إليها مع أبويها لزيارة عمة لها في ميكونوس، ولم تكن زيارة سارة. رأت أثينا رؤية عابرة (لليلتين) ثم استقلوا إلى ميكونوس باخرة تتلاعب بها الأمواج وتقفز إلى ظهرها كأنما تريد إغراقها. وخيل إليها أنها ستموت من دوار البحر. وأقاموا عند عمتها أسبوعين في بيت شديد التواضع بسبب فقر الأسرة. وكان الأب بترو شعر أن ثلاثتهم عبء ثقيل على ميزانية المضيفين، فكان يصحب الجميع كل يوم إلى البحر ويتكفل بغدائهم غداء متواضعا. فلم يكن هناك إلا السردين أو الأخطبوط، يشوى أحدهما أو الآخر على مرأى منهم على الشاطئ ويقدم مع السلطة والخبز والنبيذ. ولم يكن هناك ما يروقها في ميكونوس إلا البحر. ولم تأسف على الرحيل عن اليونان: لم تنبهر بأثينا؛ وعندما زارت الإسكندرية والقاهرة فيما بعد رأت أن هذه الأخيرة أروع من أثينا. لا عجب يسميها المصريون «مصر».. القاهرة هي مصر، وهي بالفعل «أم الدنيا» كما يسميها المصريون. ومصر في النهاية هي وطنها -

وإن تطلعت في فترة الثانوية إلى الدراسة في جامعة أثينا - وسالم وأبواها وهذا الطفل المذعور هم أهلها. أين تذهب إذا تركوها؟

سالم بقدر ما ترى لا يفكر في الموت كأنما يستبعده تماما. لا يحب أن يمرض، ولا يحب إذا مرض زيارة الطبيب أو تناول الدواء، ولا يعود مريضا في مستشفى إلا مكرها - وهو ما حدث عندما أجريت لها جراحة الزائدة الدودية – ولا يحضر مأتما أو يسير في جنازة إلا إذا تعلق الأمر بأقرب المقربين، وهو ما حدث عند وفاة سميرة أخته الصغرى وأحب إخوته إلى نفسه. وهو يريد أن يكون شابا إلى الأبد، ويتصرف على هذا الأساس. ضاق دكان الحدايد بطموحه، فأخذ يتوسع في أعماله. فتح متجرا للمانيفاتورة، ومحلا للمصنوعات الجلدية، ومحلا لإنتاج الملابس العربية، لأنه فيما قال اكتشف سوقا لا ينافسه فيها أحد، وهي التعامل مع عرب سيناء. فهم يأتون إلى الإسماعيلية، ومعهم مبالغ نقدية كبيرة (يقال إنها ثمرة لتهريب الحشيش عبر القناة)، وينفقون عن سعة على شراء الملابس (الجلابيب والعباءات والحطات والعقالات والأحزمة والمحافظ)، وعدد الجمال والخيل (السروج واللجامات). وسالم يأتي بالسروجية والترزية ويدربهم بنفسه على إنتاج ما يريد العرب وفقا لمتطلباتهم. لا تدري أين تعلم خريج الأزهر كل هذه المهارات. واكتسب ثقة البدو، فأصبحوا هم الذين لا يتعاملون مع البنوك يودعون لديه نقودهم دون أن ينتابهم شك في أمانته المطلقة.

وبفضل هذا التوسع تمكن من إقناع أبويها بترك أبو كبير والمجيء إلى الإسماعيلية. ولم يدم وجودهما طويلا قبل أن يقنع أباها بمشاركته في محل للبقالة يديره بترو في حي الإفرنج. ولم

يكتف بذلك، بل امتد نشاطه التجاري إلى شراء أراضٍ لزراعة الفاكهة في الأرياف المجاورة للإسماعيلية. وهو ينفق عن سعة ولا يبخل على نفسه أو أسرته بشيء، ويقدس عاداته وملذاته. ويقبل على الجنس ويحاول الحصول على «حقه» منه – كما يقول - كل ليلة إذا استطاع. وفي الماضي كان يريده أيضا - ويحصل عليه أحيانا - بعد الغداء. وما زال شديد العنفوان. ولكنها أصبحت تستعصي عليه لأنها متعبة أو لرغبتها في معاقبته بسبب قسوته على مدحت. تعرف أن الرجل في الإسلام يعاقب المرأة بهجرها في الفراش، ولكنها هي التي تعاقب سالم وتهجره دون أن تترك الفراش، وليته يتعظ!

لم تعد تفهمه.. متسامح إلى أقصى حد رغم أنه ريفي وأزهري. لم يحاول قط أن يفرض عليها الدخول في الإسلام، وهي تذهب إلى الكنيسة وقتما شاءت، ويشتري لها ما تشاء من خمر رغم انقطاعه عن شربها لأنه علم أنها تتسبب في تليف الكبد. وعندما قيل له إنها لا خطر منها إذا لم يسرف في الشراب، قال: «الباب اللي تيجي منه الريح، سده واستريح». وهو لا يدخر جهدا في إرضاء الناس، ويحب الأطفال، كل الأطفال. فلماذا يستثني مدحت؟ هذا هو ما تعجز عن فهمه، وهذا هو مصدر القلق الدائم بالنسبة للطفل. عندما جاء إلى الإسماعيلية واستقر فيها بضعة أشهر توقف عن بل فراشه. ولكنه بعد تدهور العلاقات بينه وبين سالم عاد إلى الاضطراب، وكثرت كوابيسه.

وانتقلوا بعد عرض السيرك إلى حي الإفرنج لتناول السندوتشات والجيلاتي، وكان مدحت طيلة الطريق لا يكف عن التوقف لكي يحيي معارفه من الأطفال والكبار – بعدة لغات بالإضافة إلى

العربية - وماريكا لا تكاد تصدق ما ترى وتسمع. رأت سيد الجزار على الرصيف المقابل يلوح لهم بيده. فسارع مدحت إلى عبور الشارع ليصافحه. وتلقفته عندما عاد بين ذراعيها. حركة صدرت عنها بطريقة تلقائية، كأنما خيل إليها في تلك اللحظة أنها فهمته تماما. هذا هو الطفل الذي أتى من بعيد وتخطى حواجز كثيرة وأصبح يسبح بسهولة في هذا الحي الأوروبي المتعدد الجنسيات واللغات. هذا هو الطفل الذي كان ينام في الكتّاب ويرفض التعلم - الطفل الذي لم يتعلم بعد كيف يتحكم في مثانته - كيف لا يلين له قلب سالم؟ كيف تضيق أريحيته عنه؟ لماذا لا تهتز نفسه بإزاء هذه الرغبة الآسرة في التفتح والازدهار؟ كيف يرفض النعمة؟

* * *

النظام الذي وضعته ماريكا يعني أن يأوي الطفل إلى فراشه في الثامنة مساء وأن ينفق إذا أراد وعلى سبيل الاستثناء ساعة في استذكار دروسه (أو القراءة دون علم سالم) قبل النوم. ولكن مدحت عندما يخلو له الجو ينصرف عن الكتاب المدرسي بسرعة ليفتح في داخله رواية للجيب أو مجلة مصورة للأطفال. ويحدث أحيانا أن تكتشف ماريكا ألاعيبه، ولكنها لا تعترض على ذلك، فهي تشتري له ما يشاء من القراءات الخارجية (دون علم سالم)؛ وكل ما يعنيها هو السهر، فالطفل فيما ترى في حاجة إلى ساعات كثيرة من النوم حتى ينمو صحيح العقل والبدن. والمشكلة هي أن سالم يحرم تحريما مطلقا القراءة خارج نطاق المقررات الدراسية لأنها فيما يرى تصرف الطالب عما هو أساسي وتشوش تفكيره. الطالب في نظره ينبغي ألا يقرأ شيئا خارج ذلك النطاق إلا بعد

استكمال تعليمه. نظرية سخيفة في نظر ماريكا ولا يمكن أن توافق عليها، وإن كانت لا تستطيع معارضة زوجها صراحة في بعض آرائه الرجعية.

تلتمس له العذر أحيانا لأنه يعتقد أن الاهتمام بكتب الأدب هو ما صرفه عن استكمال دراسته في الأزهر. وهي تتواطأ مع مدحت، وإن لم تدرك أن طموح الطفل في مجال القراءة لا يتوقف عند أي حد معقول. عينه ترنو دائما إلى خزانتين للكتب وجدهما في غرفته، خزانتين ترتفعان من الأرض إلى السقف وتحملان كتب سالم: في إحداهما صفوف من كتب ضخمة، هي بقايا ما كان يدرسه في الأزهر، بالإضافة إلى كتب دينية وأدبية ما زال يشتريها في زياراته إلى القاهرة ويعمل على تجليدها تجليدا فاخرا؛ وفي الخزانة الأخرى كتب أدبية معاصرة لمشاهير الكتاب وروايات مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية. والطفل يكتفي في البداية بالنظر إلى تلك الكتب – وبخاصة المجلدات الفخمة - أو بتحسسها لأنه يشعر أن قراءتها تتجاوز قدراته. إلا أنه تغلب على تردده ذات ليلة أصيب فيها بالأرق، ونهض عن فراشه وألقى نظرة سريعة على محتويات الخزانتين، ومسح بيده على بعضها، ثم تناول كتابا صغير الحجم يحمل على غلافه كلمات «تاييس لأناتول فرانس». ويفتح الكتاب، فيقرأ الصفحة الأولى بسهولة، فيعود بالكتاب إلى الفراش ولا يطفئ النور إلا قرب الفجر. وتبدأ من ثم مرحلة – مغامرة جديدة - في حياته.

لم يعد هناك مجال لروايات الجيب ولا لمجلات الأطفال. «تاييس» فتحت له مغاليق الخزانتين بما في ذلك المجلدات الضخمة في التفسير والنحو والأدب العربي القديم ودواوين

الشعر - سواء فهم أم لم يفهم. والسعادة كل السعادة هي قضاء الساعات الأخيرة من الليل وفي بعض الأحيان الساعات الأولى من الصباح في التجول بين محتويات الخزانتين. وقد تستيقظ ماريكا كعادتها لتطمئن عليه، فإذا وجدته يقرأ أمرته بإطفاء النور والنوم، وتقول له: «كفايه لغاية هنا. سيب شويه لبكره.. إنت مش عارف إن النوم غذا للأطفال؟». وإذا استيقظ سالم وسألها عما يجري في الغرفة المجاورة، قالت: «الولد ما بيبطلشي مذاكره، دي حاجه غريبه».

ألهبت رواية «تاييس» خياله وأثارت في نفسه أفكارا وأسئلة لم تخطر له من قبل. تتبع باهتمام شديد قصة الراهب بافنوس – الناسك المتعبد الذي كاد يكون قديسا – في رحلته بداية من صومعته في الصحراء إلى الإسكندرية من أجل هدف نبيل هو أن يعيد إلى حظيرة الإيمان والفضيلة تاييس غانية الإسكندرية التي فتنت الناس وأضلتهم عن سواء السبيل. ورأى كيف تمكن الراهب في النهاية من انتزاع تاييس من حياة الشر والدنس، وأن يهديها إلى حب المسيح فتكرس حياتها من أجله وتصبح قديسة. إلا أن الرحلة التي حققت الغرض النبيل منها تنتهي بسقوط بافنوس والتمرد على الله، فبافنوس لا ينهي رحلته إلا وقد كفر بكل ما آمن به من قبل، وندم أشد الندم على أنه لم يفز بتاييس: «يا لي من مجنون معتوه لأني لم أحظ بتاييس لما سمح الزمان! يا ويح الجنون! لقد فكرت في الله، وفي خلاص نفسي، وفي الحياة الأبدية كأنما كل هذه [الأشياء] تعد شيئا مذكورا جنب رؤية تاييس. كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية إنما هي في قبلة واحدة من قبلاتها، وأن الحياة بدونها لا معنى لها؟». السعادة الأبدية في قبلة واحدة؟! ما سر هذا الانقلاب؟ لا بد من قراءة الرواية مرة ثانية وكلمة

كلمة حتى يتضح الجواب. وعندئذ يتبين أن الرحلة منذ البداية كانت سيرا نحو الشر وأن بافنوس في كل خطوة كان يقع بسبب غروره ضحية لإغواء الشيطان فيلتبس عليه الخير بالشر، والإيمان بالشهوة. بل يبدو أن بافنوس ما قام برحلته أصلا إلا لأنه يشتهي غانية الإسكندرية، وإن خفي عليه ذلك لفترة طويلة. وهناك حادثة بعينها تستوقف النظر في رحلة الناسك المضلل، وهي أنه أحس أثناء النوم بخده وقد استقر على ثدي امرأة، ولكنها تخلصت قليلا ورفعت صدرها فتعلق بها تعلق اليائس بالجسد الناعم الدافئ العطر. كان الرجل يحلم، ولكن الحلم كان تعبيرا عن أغراضه الدفينة، وحيلة أخرى من حيل الشيطان لاستدراجه إلى الهلاك.

كل ذلك أصبح مفهوما أو يكاد؛ ففي الرواية أشياء غير مفهومة. منها موقف المسيحية من اطمئنان بافنوس في الحلم إلى جسد المرأة وتشبثه به، فهو في نظر المسيحية خطيئة كبرى. ولكن مثل هذه الأمور قد تحدث للمسلم وهو نائم، فيكفيه عندما يصحو أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينتهي الأمر عند هذا الحد. ويرى الطفل أنه هو نفسه يتعرض لمثل ما تعرض له الراهب عندما تزوره بائعة العطر في أحلامه ويتشبث بها دون أن يشعر أنه ارتكب معصية. وهو لا يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بل يتمنى أن يحظى بالمزيد من تلك الزيارات. ألا يغالي المسيحيون في الشعور بالذنب؟ وما هي الشهوة على أي حال؟ وما هي الخطيئة؟ معنيان يخيل إليه أنه يفهم ما يعنيان، ولكن يبدو أن لهما أعماقا لا يصل إليها.

ووقعت في يده في نفس الفترة رواية «السيمفونية الريفية» لأندريه جيد. وسرعان ما تبين أنها لا تختلف كثيرا عن رواية «تاييس»، فهي تروي قصة عن قس يحاول أن يساعد فتاة عمياء وجدها مهملة ومحرومة من الرعاية وعاجزة عن التواصل مع الغير حتى تخلفت عقليا وصارت أقرب إلى حياة الحيوان. ورأى القس أن الواجب الديني والحب المسيحي يفرضان عليه أن ينقذ الفتاة من حياتها الوضيعة ويعلمها. وهو ينجح في ذلك نجاحا باهرا، إذ تتفتح الفتاة وتزدهر فتتكلم، وتتقن التواصل مع الناس، وتحب راعيها حبا نقيا، وتحب الطبيعة وتحاول تذوق جمالها دون إبصار، وتتعلم الموسيقى، وتعي دروس المسيح، بل وتستعيد بصرها في النهاية بفضل عملية جراحية، ولكن يلتبس الأمر على الراعي فيخلط بين حب الفتاة في المسيح وبين رغبته فيها، وينافس ابنه في حبها ويحاول الاستئثار بها، بينما تختار هي وحبيبها الشاب حياة الرهبنة. القس في «السيمفونية الريفية» هو بافنوس في «تاييس»، لا فارق بين الرجلين، وهناك في الحالتين ما بدا وكأنه مغالاة المسيحيين في الإيمان بتغلغل الشر في نفس الإنسان.

* * *

الخروف الضال

الرغبة في استعادة «الخروف الضال» هي الفخ في الحالتين، هي بداية الرحلة إلى الشر. ولا بد إذن من تقصي الأمر في الكتاب المقدس، فهناك نسخة منه في مكتبة سالم. ولم يهدأ للطفل بال حتى قرأ المجلد الضخم بأكمله. أي إنه أتم قراءة العهد القديم (كتاب اليهود)، ثم انتقل إلى العهد الجديد (الإنجيل)، فعثر على مثل الخروف الضال، ولكنه لم يتوقف عنده طويلا، فهو لم يعد قادرا على مقاومة اندفاعته والتخلي عن تلك الحمى اللذيذة التي استولت عليه، فأتم قراءة الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل ورسائلهم ورؤيا يوحنا، وعندما بلغ الصفحة الأخيرة شعر بالأسف وهو يغلق الكتاب. كان يتمنى أن تستمر الرحلة – فقد كانت هناك رحلة - إلى ما لا نهاية. لم تستغرق قراءة العهد الجديد وقتا طويلا، أما العهد القديم، فقد أنفق في قراءته سنة إلا قليلا لأنه وجد فيه الكثير مما يمله ولا يفهمه، والكثير مما ينفره، والكثير مما يثير إعجابه. استمتع بقراءة المزامير وسفر أيوب ونشيد الأنشاد ومراثي إرميا، واستنكر صور الأنبياء المخالفة لما رواه القرآن الكريم عنهم.

وعاد إلى إنجيل متى ليقرأ مثل الخروف الضال. فقد تقدم التلاميذ إلى يسوع وسألوه: من هو أعظم في ملكوت السماوات؟ فدعا يسوع إليه ولدا وأقامه في وسطهم وقال: «الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات. فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم في ملكوت السماوات». وقال: «انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار. لأني أقول لكم إن

ملائكتهم في السماوات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السماوات. لأن ابن الإنسان قد جاء ليخلص ما قد هلك. ماذا تظنون. إن كان لإنسان مائة خروف وضل واحد منها أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب ليطلب الضال. وإن اتفق أن يجده فالحق أقول لكم إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل».

وأشجاه – وأرقه - أن الخروف الضال طفل، وأن الأطفال لهم في السماء ملائكة تحرسهم. ولكنه توقف حائرا: تلك هي التوصية التي اتبعها بافنوس الراهب في «تاييس» والقس في «السيمفونية الريفية»، فلماذا انتهيا إلى ذلك المصير الأليم؟ هل أراد الله أن يمتحن قوة إيمانهما كما امتحن سيدنا أيوب؟ ولكن هذه الفكرة قادت إلى سؤال آخر: لماذا ترك الله الراهب والقس ليرسبا في الاختبار؟ بافنوس أدرك في بعض المراحل أن الشيطان يغرر به واستغاث بالله أن ينقذه من الشر، فلم يغثه. لماذا لم ينجده الله عندما لجأ إليه وتركه فريسة سهلة للشيطان؟

وتوقف طويلا عند الوحدة التي تعذب بها يسوع ليلة العشاء الأخير: «نفسي حزينة جدا حتى الموت». الأحداث تدور ليلا في جو مشحون بالعلامات والنذر. فيسوع يخبر تلاميذه وهو جالس معهم إلى المائدة بأن أحدهم (يهوذا الإسخريوطي) سيسلمه إلى أعدائه؛ وبأنهم سيشكون فيه في تلك الليلة، وبأن بعضهم سينكره. وعندما انتقلوا إلى بستان الجستنامى طلب إلى تلاميذه أن يبقوا ساهرين بينما يصلي (داعيا الله أن يصرف عنه تلك الكأس)، فلما عاد وجدهم نائمين.

يخفق قلبه ويهتز في عمق أعماقه عندما يقرأ عن إشارات يسوع ونبوءاته المحددة القاطعة. فهو عندما أخبر تلاميذه بأن واحدا منهم سيسلمه، وصار كل منهم يسأل «هل هو أنا؟»، لم يدع مجالا للشك فيمن يعني وإن لم يشر إليه بالاسم. بل قال: «الذي يغمس يده في الصفحة يسلمني». ولما أخبرهم بأنهم كلهم سيشكون فيه في تلك الليلة، وأجاب بطرس بقوله: «إن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا»، كان رده: «إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات». أما المشهد الذي يصعد بالدموع إلى العينين، فهو ما جاء في إنجيل يوحنا من أن يسوع قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة وائتزر بها. ثم صب ماء في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان مئتزرا بها.

هل كان عمل يسوع في تلك اللحظة تعبيرا عن التواضع المطلق؟ - كأنه يقول لهم: «ها أنا ذا سيدكم، ولكني خادمكم» - أم عن الحب الذي ليس له حدود - كأنه يقول: «نفسي فداؤكم» - أم أنه نوع من الوداع، أم أن له مغزى آخر؟ أيا ما كان الأمر، فإن لتلك الإشارات والمبادرات روعة أخاذة لا يجد في نفسه وصفا لها. ويحزنه بصفة خاصة شعور يسوع بأنه وحده دون معين. شعور مفهوم في حالة التلاميذ، فيسوع كان يعلم أنهم سيتفرقون عنه على نحو أو آخر.

ومن المفهوم أيضا أن الكأس التي كان عليه أن يتجرعها (الصلب) كأس مريرة رغم أنه يعلم أن تلك إرادة الله ووفقا لخطة ارتضاها، فهو يدعو الله أن تعبر عنه الكأس، «ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت». ذلك أمر مفهوم لأن المحنة لا يتحملها

الجسد الضعيف ولعله ينهزم أو ينهار - أما الروح فهو نشيط كما قال وصامد ومسلم بإرادة الله. ولكن يبدو أن الروح انهزم وانهار عندما صرخ المصلوب بصوت عظيم: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟». ألا تدل تلك الصرخة المفجوعة على شعور روحه بأن الله قد تخلى عنه؟ كيف ينتابه اليأس من الله بعد أن كان على يقين من عونه؟ قال: «أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشا من الملائكة». ألم يكن الأحرى به أن يظل ثابتا على إيمانه بأنه في ظل حماية عُليا وبأنه سيقام من الموت؟

والتقى في فناء المدرسة أثناء الفسحة بصديقه الأستاذ شفيق أستاذ اللغة العربية والدين، فحدثه عما قرأ وطرح عليه أسئلته. غير أن إجابة الأستاذ لم تشف غليله. قال: «بس هوه ده اللي بيقوله المسيحيين، ودي هيه المشاكل اللي لازم تحيرهم، لكن احنا مالنا؟ احنا يا مسلمين بنؤمن بما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. المسيح رفع إلى السماء دون أن يمسه أذى. مش كده ولّا إيه؟». كان يسير بجانب الأستاذ، والأستاذ عاقد يديه خلف ظهره ولا يتوقف عن السير. وكرر الأستاذ سؤاله: «مش كده ولّا إيه يا أستاذ مدحت؟»، فأجاب مدحت: «هوه كده». وقال الأستاذ: «طيب وإيه المشكله إذن؟» وبذلك انتهى النقاش.

الأستاذ على حق، ومع ذلك تبقى مشكلة أو مشكلات لا يستطيع التعبير عنها بوضوح. وهو يبذل قصاراه ليحددها طيلة الطريق من المدرسة إلى البيت. وعندما بلغ ميدان عباس خيل إليه أنه

توصل إلى نتيجة معقولة. كيف ينسب الإنجيل إلى المسيح تلك العبارة: «إلهي إلهي لماذا تركتني»؟، وكيف يوصف المسيح بأنه «ابن الإنسان» – وهو وصف يسعد به وتطمئن نفسه إليه – ويقال عنه من ناحية أخرى إنه ابن الله؟ لقد شعر بصدمة عندما قرأ عن روح الله إذ ينزل مثل حمامة، وعن صوت من السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت».

وتوقف في ميدان عباس بالقرب من دكان سالم. سالم أزهري ولا بد أنه فكر في تلك الأمور وتوصل فيها إلى حل، فليسأله إذن. قال له: «القرآن الكريم بيعلمنا إن ربنا دايما بينقذ الأنبياء في وقت الشدة. مش صحيح؟». فسأله سالم وهو يشد نفسا من الشيشة: «تمام، لكن تقصد إيه بالظبط؟»، فأجاب: «يعني سيدنا إبراهيم ربنا نجاه من النار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، وسيدنا موسى ربنا شق له البحر عشان يعدي هوه وقومه، وأغرق فرعون وجنوده، مش كده؟». فانبسطت أسارير سالم لاستشهاد مدحت بالقرآن: «الله يفتح عليك». كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يبدي فيها إعجابه بأداء الطفل الدخيل. فتشجع وقال: «أمال ازاي سيدنا عيسى شعر حسب الإنجيل بإن ربنا تخلى عنه؟». عندئذ اكفهر وجه الرجل وأعاد مبسم الشيشة إلى موضعه، وقال بحدة: «وإيش عرفك بكلام الإنجيل؟». فتلجلج وارتجفت شفتاه، وشعر سالم على الفور أن الطفل وصلت إليه معلومات غريبة من شأنها أن تفسد عقيدته، فصاح: «إمشي من هنا، غور من وشي لغاية ما افضى لك».

كان في الواقع يحاول كسب الوقت ليجد طريقة مناسبة لفهم ما حدث وإيجاد الحل المناسب لمعاقبة «ابن الكلب». أما الآن، فهو يجد نفسه نهبا لهواجس سوداء ومشاعر بالخطر تختلط في رأسه وتحاصره من كل جانب. التحق الولد في البداية بمدرسة الإخوان المسلمين؛ والذنب في ذلك ذنبه، فهو الذي اختارها له بسبب قربها (على بعد خطوات من الدكان). اختارها هو الوفدي العريق الذي يقدس سعد باشا ويحب النحاس باشا ويكره حسن البنا. يا لها من نكبة! كان ذلك خطأ جسيما. فهو يعلم أن المدرسة تلقن التلاميذ منذ اليوم الأول وفي كل يوم مبادئ الإخوان المسلمين عندما تجعلهم يرددون في طابور الصباح الشعارات المعروفة: «الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا». والمدرسة منذ السنة الأولى مركز لتفريخ أتباع المرشد العام الذين يأتمرون بأمره ويطيعونه طاعة عمياء، وبذلك تنشأ دولة داخل الدولة الديمقراطية للقضاء عليها من الداخل.

هذا من ناحية، ولكن يبدو أن الولد يتلقى من ناحية أخرى أفكارا مسيحية. من أين جاءته إن لم يكن عن طريق ماريكا أو أبويها أو عن طريقهم جميعا؟ وهذا خطأ آخر ومصيبة أخرى لا تقل خطرا عن مصيبة المبادئ الإخوانية. يحز في نفسه أنه هو الذي أقنع بطرس ودوريس بالانتقال من أبو كبير إلى الإسماعيلية، وساعد على استقرارهما في المدينة لكي تكون ماريكا بين أهلها. فهل جزاؤه – هو الذي فعل كل ذلك حبا فيها – أن تتسرب إلى الطفل مبادئ المسيحية من داخل البيت؟ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ كيف يواجه هذه المصائب؟

* * *

لاحظت ماريكا عند دخول الولد أنه مضطرب. وعندما سألته: «ما لك يا حبيبي؟»، اكتفى بالقول: «ما فيش حاجه. الحر بيجيبلي صداع»، ودخل غرفته. يعلم الآن أنه أوقع نفسه في ورطة يصعب الخلاص منها، وأن حسابه مع سالم سيكون عسيرا. كان بإمكانه عندما سئل «إيش عرفك بكلام الإنجيل؟» أن يكذب بطريقة أو بأخرى، فينسب الكلام إلى مدرس الدين أو أحد المدرسين، أو إلى حسني زميله القبطي الذي يعرفه سالم لأنه يأتي إلى البيت لاستذكار الدروس معه. ولكن الرعب أصابه عندما طرح عليه السؤال فأصابه الارتباك.

ورأت ماريكا علامات الحزن - الحزن أم الغضب؟ - على وجه زوجها عند عودته. من عادتها أن تستقبله عند الباب بحضن أو قبلة على خده، ولكنه أشاح بوجهه عندما اقتربت منه. وسألته: «إيه الحكايه؟»، فلم يجب. وهمت كما جرت العادة بمساعدته على خلع ملابسه، فقاطعها بالسؤال: «إنتي بتعلمي الولد ليه الديانه المسيحيه؟». وأنكرت ماريكا التهمة بشدة. كانت تعلم أنها بريئة. ولكن سالم واصل تعنيفه لها بصوت غاضب: «يعني احنا اتفقنا من البدايه إنك حره في دينك واحنا أحرار في دينّا، لكم دينكم ولي دين. مش كده؟ فليه تحشي دماغ الولد بأفكار غريبه؟ ليه تسببي له البلبله؟ ليه؟».. وثارت ثائرة ماريكا، ولم يهدأ زوجها إلا عندما ذكرته بأنه يحتفظ في مكتبته بنسخة من الكتاب المقدس، وأنه هو الذي وضعها في طريق الصبي، وأخذ عندئذ يعتذر لماريكا ويحاول مصالحتها، وإن تحول بغضبه إلى المذنب الحقيقي. ولم تعد المشكلة هي اطلاع مدحت على الرواية

المسيحية لقصة المسيح، بل هي عصيانه لأوامر سالم القاطعة: «أنا مش قلت لك إن ممنوع قراية أي شيء غير الكتب الدراسيه؟». وقبل أن يتمكن مدحت من الإجابة – ولم تكن لديه في الواقع أي إجابة – وقعت على وجهه صفعة خيل إليه للحظة أنها أفقدته الوعي. وهم سالم بتوجيه صفعة ثانية لولا أن وقفت ماريكا بين الاثنين: «إذا كنت عاوز تضرب حد اضربني أنا. إذا لمست الولد تاني أنا هسيبلك البيت وامشي». وعندما عاد سالم إلى صوابه، قالت له: «إزاي بتمنعه من القرايه الخارجيه؟ المدرسة لما بتحب تكافؤه بتديله كتب خارجيه. وبعدين ازاي تمنع عنه الكتب وانت حاططها له في أوضته؟». واضطر سالم إلى نقل مكتبته إلى غرفة نومه، وإن لم يشف ذلك غليله تماما.

عاد السلام بينه وبين زوجته، ولكن بقيت للشجار آثار عميقة في نفسه. فهو يدرك الآن أنه يخوض معركة خاسرة. المدرسة تعطي الصبي كتبا خارج نطاق المقرر، وماريكا تشتري له كتبا ومجلات لا علاقة لها بما يدرسه. بل ويراها أحيانا تقرأ له من كتب لا يتخيل أنها ذات علاقة بالدراسة، وهو في النهاية غير مطمئن تماما إلى ما قالت عن المصدر الذي استقى منه الولد معرفته بالإنجيل. يجوز أنه قرأ الكتاب المقدس، ولكن ... كيف اهتدى إلى ذلك الكتاب بالذات من بين مئات الكتب في غرفته؟ وكيف توقف عند عذاب المسيح وأثارت القصة في نفسه تلك المسائل الدقيقة الشائكة؟ هل يعقل أن يكون هذا الولد الذي أتى من الريف أول أمس قد تمكن دون مساعدة من فهم تلك المسائل؟ هناك شيء ما يجري من وراء ظهره. ولا بد أن المسؤولية فيه ترجع إلى ماريكا وأبيها وأمها. ويحز في نفسه أنه عاجز عن تنفيذ إرادته في بيته، وأن ماريكا – حبيبته – هي مصدر الخطر.

ولم يمض وقت طويل قبل أن يهتدي الطفل إلى طريقة للتغلب على الحظر المفروض على القراءات الخارجية. في البداية أخذ يستعير الروايات من زملاء الدراسة - أو يشتري بعضها من باعة الجرائد - ويحملها إلى البيت داخل قميصه ويتخلص منها بعد قراءتها. ثم توصل إلى حيلة أخرى أفضل، وهي أن يغافل سالم – بل ويغافل ماريكا نفسها – فيسطو على المكتبة في غرفة نوم الزوجين؛ فيحمل الكتاب خلسة إلى غرفته ويعيده إلى مكانه بعد الانتهاء منه. وهو يجد في القراءة عن طريق السرقة لذة فائقة، إذ تنتابه عندئذ نشوة محمومة مشوبة بمشاعر متناقضة من الخوف والتحدي تدفعه إلى التهام الكتاب التهاما.

صار مدمنا للقراءة؛ لا يستطيع النوم قبل أن يقرأ لفترة تمتد أحيانا لساعات. وقد تدخل ماريكا غرفته عندما تجد النور مشتعلا في ساعات الصباح الأولى لتجده مستمرا في القراءة أو مستغرقا في النوم وثمة كتاب على صدره. القراءة هي متعته الكبرى - لا حياة له بدونها - ولن يحول سالم أو غيره بينه وبينها. ولكن من المؤسف أنه لم يعد قادرا على حمل المجلدات الضخمة إلى غرفته. كان يصيبه الملل أحيانا من قراءة الروايات، ويخيل إليه أنه قد يوجد بين تلك المجلدات بعض الكتب التي تتناول قصة المسيح وترد على النصارى فيها. آه لو كان عمه سالم يحبه! إذن لأباح له تلك الكتب، بل ولأعطاه دروسا فيما يشغله. ولم لا؟ ماذا يضيره لو فعل ذلك ما دامت القراءات الخارجية لا تعوق الطالب عن التفوق في الدراسة؟ على أي حال، ستستمر القراءة شاء سالم أم لم يشأ.

إذا كانت ماريكا مسؤولة عما حدث، فقد اقتصرت مسؤوليتها على تشجيع الطفل على القراءة أو تعريفه بمقتطفات مناسبة من الأدب اليوناني. بدأت بخرافات إيسوب، ولكن سرعان ما فقد الاهتمام بها: «دي للعيال الصغيرين زي كليلة ودمنة»، فانتقلت به إلى قصص من «الإلياذة» و«الأوديسا». إلا أنها لم تدرك أن لهذه القصص تأثيرا بالغا عليه؛ فسرعان ما أصبح أبطال الملحمتين – بريام وهيكوبا، باريس وهيلانة، أجاممنون ومنيلاوس، أخيل وأجاكس، وأوديسيوس وبنيلوبي – شخصيات مألوفة لديه ولا يكف عن ترديد أسمائهم وذكر مآثرهم. بل وأصبح يجد أن لبعضهم ما يقابله في تاريخ الإسلام؛ فأخيل يشبه خالد بن الوليد «سيف الله المسلول» لأنه إذا ثارت ثائرته انقض على خصومه انقضاض الأسد على فريسته وانهارت أمامه الفيالق؛ وأوديسيوس فاتح طروادة يشبه عمرو بن العاص فاتح مصر، كلاهما قائد عسكري واسع الحيلة شديد الدهاء، وكلاهما - كما يتخيلهما ويرسمهما على الورق - ربعة متين البنيان كبير الرأس قوي العضد لا نظير له في الرمي بالقوس والطعن بالرمح.

ولم تعلم ماريكا مدى الآثار التي أحدثها في نفس الطفل ما قرأت عليه أو ما قرأ هو نفسه في غرفة نومه، والتي خرجت به عن كل نطاق معروف. لم تكن تعلم أنه قرأ الكتاب المقدس، ولم تدرك بالتالي ما أثارته هذه القراءة من تداعيات ولدت في نفسه شعورا جديدا بالعناد والتحدي: أصبح يشعر أن القراءة حق لا ينتزع منه؛ سيقرأ مهما كانت النتائج. لعل الصفعة الرهيبة التي تلقاها من سالم وفتحت صنبور البول في ثيابه هي التي أطلقت الشرارة الأولى لذلك الشعور.

إلا أن التحول الذي طرأ عليه بدأ منذ قرأ «تاييس» وتبلور عندما أشرف على نهاية الكتاب المقدس وبلغ على وجه التحديد رؤيا يوحنا. هناك حيث يظهر الخروف في صورة أخرى. فهو هنا لم يعد ضالا، بل أصبح يحتل مكانة عليا بالقرب من الجالس على العرش: «ورأيت على يمين الجالس على العرش سفرا مكتوبا من داخل ومن وراء مختوما بسبعة ختوم...ورأيت ملاكا قويا ينادي بصوت عظيم من هو مستحق أن يفتح السفر ويفك ختومه. فلم يستطع أحد في السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح السفر ولا أن ينظر فيه»، ولم يستطع فتح السفر وفك ختومه السبعة إلا «خروف قائم كأنه مذبوح ... فأتى وأخذ السفر من يمين الجالس على العرش، ولما أخذ السفر خرت الأربعة حيوانات والأربعة والعشرون شيخا أمام الخروف ولهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخورا...».

تضمنت رؤيا يوحنا الكثير مما لا يستسيغه ولا يستوعبه، ولكن بعض مشاهد الرؤيا تشع وتتفجر فترسل في خياله ما يشبه الوهج. وتكشفت أمامه أبعاد مختلفة لرحلة القراءة التي قضى فيها ما يقرب من العام، رحلة أدرجته في فضاء تاريخي وخيالي مترامي الأطراف. ها هي قصة الخروف الضال والملائكة التي ترعاه في السماء تنقله إلى قصة الخروف الذبيح وموقعه في الملأ الأعلى، وها هما القصتان تسلمانه كلتاهما عبر مسافات شاسعة إلى قصة إبراهيم كما وردت في القرآن الكريم، وما تلقاه من أمر بالتضحية بابن كان يراد له أن يكون خروفا ذبيحا، لولا أن: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ . فهل كانت القصة الأولى التي يوصي فيها خيرا بالأطفال تشير ضمنا إلى أن من بين الأطفال حملا سيراد له أن يفدي البشر؟، وإلى أن هذا الحمل الفادي الذي يوجد «ضالا» ومهملا في مذود للماشية هو الذي سيؤسس مملكة الله على الأرض، وهو الذي يولد وفقا للقرآن الكريم عند جذع نخلة، إلا أنه يتكلم فور ولادته بسلطان وجبروت:

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ، وأين كل ذلك من قصة الطفل يوسف الذي ادعى إخوته أن الذئب أكله (خروف ضال آخر)؛ يوسف الذي أُلقيَ بقميصه على وجه أبيه المنكوب فاسترد بصره، والذي تبوأ مكانة رفيعة في حكم مصر؟

أيقظت قراءة الكتاب المقدس في نفسه ما يعرف من القرآن، وهو كثير. لم يحفظ منه إلا جزءا واحدا في الكتَّاب، ولكن القرآن كان حاضرا طيلة الوقت في حياته رغم أن عقله كان في حالة من الخمول: كان يسمع القرآن يُتلى في كل مكان، ويُستشهد به على كل لسان، وها هي آياته أصبحت بعد كمونها ترد إلى ذهنه بسهولة في نصها المُنزل. وأصبح يتنقل بين الكتابين، ويقارن بين قصص الأنبياء هنا وهناك، ويرى - فيرتاع ويطرب ويهتز - صورة مريم وابنها قائمة في الكتابين. ويشعر أن تلك الصورة هي أعظم وأجمل ما قيل في الأمومة. وكل تلك القصص فيما رأى تعزف على أوتار عميقة في قلوب البشر – كما تعزف على أوتار نفسه – وتستجيب لأحلام وآمال وأحزان راودتهم وتراودهم. آه لو أن سالم ساعده على فك تلك الرموز!

وتولد في نفسه شعور بأن مكانه ليس هو غرفته، وليس هو البيت، كلا وليس هو ذلك المربع الكبير الذي يحبه في الإسماعيلية ويتوسطه ميدان عباس. مكانه هو ذلك الفضاء المترامي الذي ينفتح أمامه أينما اتجه ويستقبله دونما عائق ولا يشعر فيه بأي وحدة. كأن ذلك الفضاء هو وطنه، وكأن حبه للتجول والضياع المتعمد ليس إلا شكلا من أشكال الوجود في ذلك الوطن، وكأن الحرية التي يتمتع بها وهو يتنقل بين كتاب وكتاب وجه آخر من وجوه السكن في تلك البلاد.

وخيل إليه أنه يفهم سر اختياره لأوديسيوس ليكون بطله المفضل من بين أبطال الإلياذة والأوديسا جميعا. فأوديسيوس ليس في نهاية المطاف هو القائد العسكري الداهية، بل هو الملاح التائه الذي تتقاذفه الأمواج وتهاجمه الأهوال والإغراءات من كل جانب

وهو في طريق العودة إلى وطنه. وكان يقول لنفسه لو أن أوديسيوس كان رجلا حقيقيا لكان ابنه أسعد إنسان على ظهر الأرض. وقرر أن أحدا أيا من كان – سالم أو غير سالم – لا يستطيع الوقوف في طريقه وتقييد حريته.

* * *

الإسماعيلية حلم جميل في طريقه إلى التبدد. في يوم من الأيام كانت مدينة واحدة، وكانت وطنا رائعا في نطاق مربع مألوف. كان يعبر شارع الثلاثيني إلى حي الإفرنج دون أن يشعر أن الشارع الفاصل حد قاطع. كانت أغلبية الأجانب تسكن الحي، بينما كان المصريون يسكنون كلهم تقريبًا في حي العرب. ولكن الشارع لم يكن سورا منيعا بين الطائفتين؛ أو هكذا كان يخيل إليه. كان هناك تداخل بين الحيين؛ ففي حي العرب يقيم يونانيون وأرمن وفرنسيون ومالطيون؛ وفي حي الإفرنج يقيم بعض المصريين أو يعملون. ومدرسته الأميرية تقع على حافة حي الإفرنج وبالقرب منها تعيش أسر يونانية يقال إن بعض التلاميذ الكبار – المعيدين عدة مرات للسنة الرابعة – يصاحبون بناتها. وهو نفسه يتجول بين الخواجات بحرية، ويتفاهم معهم بيونانية سليمة أو بشذرات من الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. فإذا كان بصحبة ماريكا كان الوئام الكامل. وبدا أن الفواصل – إذا كانت هناك فواصل – قد انهارت تماما عندما انتقل إلى الثانوية، واتخذت المدرسة المصرية مقرها في المبنى الجميل المبني من الطوب الأحمر الذي كان في وقت من الأوقات يئوي الثانوية الإيطالية في عمق حي الإفرنج.

وفي نفس الفترة تقريبا بدأت الشروخ والتصدعات. كان قد استبدل بالشورت البنطلون الطويل، وبدأ يعنى بمظهره. له شعر كثيف غزير أخذ يتعهده بالتلميع والتصفيف بالفازلين أو الزيت. ولكنه لسبب لا يفهمه لم يعد يلقى الترحيب في جولاته. لم يعد الجرسونات يريدونه في مقاهيهم، وبعضهم كان يطرده. وبدأ يفهم أن تلك الأماكن مخصصة للأجانب. وفي بلاج الشركة الفرنسية لم تعد الأمهات الأجنبيات ترحبن بمصاحبته لأبنائهن أو بناتهن بصفة خاصة.

حدث ذات يوم أنه كان يساعد ماري فرانسواز على ركوب أرجوحة، وكانت الفتاة سعيدة بصحبته إلى أن نادتها أمها فنزلت عن الحبل وقالت: «انتظرني سأعود». ولكنها لم تعد، وظل ينتظر دون جدوى. كان يقف غير بعيد ويراها هي وأمها، ولا بد أنها كانت تراه ولكنها لم تعد، هي التي كانت قبل القطيعة ترافقه في السباحة في المياه الضحلة أو في الذهاب إلى البوفيه.

لم تكن فكرة التمييز ضد المصريين في مصر قد اتضحت في ذهنه. كان يعلم أن للجيش الإنجليزي قاعدة خارج المدينة، وأن بعض المصريين يعملون في القاعدة أو يوردون لها ما تحتاجه من سلع محلية. ولكنه ظل لفترة لا يعي بوضوح أن هناك احتلالا بريطانيا في مصر، وأن شركة قناة السويس لها امتيازات خاصة في القناة، وأن للأجانب بصفة عامة وضعا مميزا في مصر، وأن بعض الأماكن والوظائف محرمة على المصريين في مصر. لم تتضح هذه الحقائق في ذهنه إلا بالتدريج. ويبدو أنه كان يتشبث بدافع من المصلحة الذاتية بفكرة الوئام السائد بين الجميع - رغم تعدد النذر. كانت هناك لعبة يشترك فيها مع رفاق الشارع كل

سنة. فهم يصنعون دمية من القماش والخيش والخرق البالية ويحشونها بالقش ويسمونها «ألنبي» (نسبة إلى اللورد الإنجليزي الشهير). وكانوا – مصريون وأجانب - يدورون بالدمية على البيوت يشحذون لها الملاليم. وفي ليلة معينة يحرقون «ألنبي» في احتفال كبير ويغنون: «يا ألنبي. يا ابن ألمبوحه .... أمك مليان ملوحه». وكانوا يرون العساكر الإنجليز في القطارات التي تمر وراء السور الفاصل بين حي العرب والسكة الحديد، ويتبادلون الشتائم البذيئة معهم. ثم رأى الشرطة المصرية تداهم بعض البيوت أو المتاجر بحثا عن بضائع مسروقة من القاعدة البريطانية، وتقبض على مصريين متهمين بالسطو على المخازن أو بالمساعدة على إخفاء المسروقات. ولم يكن هناك أي شيء غير عادي في كل ذلك.

وفي الأيام التي كان يشعر فيها أن المدينة واحدة لم تكن الفوارق بين الجانبين تثير دهشته أو تدفعه إلى التساؤل. كان يلاحظها ولكنه لا يتساءل لماذا لا يوجد في حي العرب دور عرض سينمائية (كانت جميع دور العرض بما في ذلك دور عرض الأفلام المصرية في حي الإفرنج)، ولا متاجر للكتب (كانت هناك دكاكين للأدوات والكتب المدرسية)، ولا مقاهي أو مطاعم يعتد بها، ولا حدائق عامة تذكر (إذا استثنينا بعض الخضرة في ميدان عباس). وأخذ يدرك أن أهل الإسماعيلية (سكان حي العرب الذين ينتمي إليهم) بجميع فئاتهم – من تجار وعمال وموظفين ومهربين – لا هم لهم إلا الفلوس، وليس لهم علاقة بالكتب ولا بالثقافة أصلا، وليس فيهم أديب أو فنان واحد. وكان كل ذلك أمرا عاديا.

ووهنت العلاقات بينه وبين حي الإفرنج عندما انتقلت المدرسة من المبنى الإيطالي في الحي إلى مبنى أنشئ في الصحراء على أطراف ما يسمى «عرايشية مصر»، وهو حي عربي حديث الإنشاء يفصله عن حي الإفرنج خط السكة الحديد، ولا ينعم من مظاهر الحضارة إلا بسينما واحدة صيفية. ولم يعد يختلط بالأجانب، ولم تعد الإسماعيلية هي ذلك المربع الواحد الجميل الذي عرفه في طفولته، وأصبح يدرك أنها ليست عالما متجانسا، وأنه توجد على أطراف المربع أحياء يعزل فيها أبناء العرب الفقراء وتؤكد تصنيف السكان إلى فئات مختلفة.

ذلك المربع الواحد الجميل كان من صنعه، جزءا اقتطعه خياله الريفي من أرض الواقع ليكون ملاذا له ومجالا «يتوه» فيه. اقتطعه خياله أم اقتطعته له ماريكا؟ هي التي جعلته يشعر أن له وضعًا استثنائيًّا: علمته لغة الحديث اليونانية، وكانت تشتري له المجلات المصورة سواء أكانت عربية أم إفرنجية (فرنسية وإنجليزية)، وكانت تقرأ عليه خرافات إيسوب بلغة يونانية مبسطة تزيدها شرحا بالعربية، وتقص عليه حكايات من «الإلياذة» و«الأوديسا». هي التي كانت تريد له أن يشعر أن الأماكن كلها مفتوحة أمامه، وكانت مفتوحة إلى أن أدرك أنه يدخل حي الإفرنج كزائر عابر، وليس مسموحا له أن يطيل البقاء فيه.

ثم أصبح يسمع من الناس ويقرأ في الصحف أخبار الفدائيين الذين يهاجمون القاعدة البريطانية والجنود البريطانيين. واستمع إلى خطبة النحاس باشا التي ألغى فيها معاهدة سنة ست وثلاثين: «من أجل مصر وقعت المعاهدة سنة 1936، ومن أجل مصر

أطالبكم اليوم بإلغاء المعاهدة». وحدث التصدع الكامل عندما هاجمت القوات الإنجليزية مبنى المحافظة وقتلت العشرات من قوات الشرطة المصرية. كان ذلك في شهر يناير. وخرجت في اليوم التالي مظاهرة من المدرسة الثانوية، واشترك فيها ليهتف مع الهاتفين ضد الاحتلال البريطاني. وتحولت المظاهرة إلى أحداث شغب ونهب للدكاكين والمساكن. بدأ التحول قبل أن يدخل المتظاهرون حي الإفرنج. فقد ظهر فجأة رجال يقتحمون الشقق الخالية من سكانها لسبب أو لآخر ويخرجون بالثلاجات وقطع الأثاث. وفي حي الإفرنج وضع أحد الطلاب عود ثقاب مشتعلًا في خزان البنزين لسيارة جيب (لعلها كانت لضابط إنجليزي)، وأثار اشتعال السيارة وانفجارها شهية المتظاهرين إلى إشعال مزيد من الحرائق. ثم تردد في الحي دوي طلقات الرصاص. إذن لقد نزل الإنجليز إلى الميدان.

سأله سالم عندما مر على الدكان:

- كنت فين؟ أنا سامع إن الطلبه مضربين عن الدراسه.

فأجاب بزهو:

- كنت في المظاهره ضد الانجليز.

ورد سالم بغضب:

- مظاهرة إيه يا بن الكلب؟

وأصابته الدهشة (كان يعتقد أن عمه الوفدي الصميم سيهنئه).

- دي مظاهره وطنيه.

ولكنه كان مخطئا، فقد سمع سالم يقول:

- أنا ما عنديش حد يشترك في المظاهرات أو يشتغل بالسياسه. طيب.. إنت تروح ع البيت وتستعد للرجوع لبلدكم.

وقال وهو يصيح:

- إنت مش سامع ضرب الرصاص يا بن الكلب؟ إنت تروّح عند أهلك وتتظاهر زي ما انت عاوز. لكن أنا مش مستعد اتحمل المسؤوليه.

ولما علمت ماريكا قالت: «عمك ما يقصدش. هو بس بيهددك لأنه مش عاوزك تعرّض نفسك للخطر». ولكن سالم كان يعني ما يقول. وهذا ما أكده لماريكا عندما عاد إلى البيت. فقالت: «مدحت غلطان ولازم يعتذر لك ويوعدك إنه ما عدشي يعملها تاني». والتفتت إلى مدحت: «اعتذر لعمك يا مدحت واوعده إنك...». فقاطعها سالم: «أنا مش عاوز أي اعتذارات. الولد ده ما يقعدشي هنا، لازم يروح لأهله». ودهشت ماريكا وقالت له بصوت خفيض: «الجزاء يا سالم على قد الغلط، هوه يعني ما ارتكبشي جريمه»، فصاح فيها سالم: «إزاي ما ارتكبشي جريمه؟ أنا ما عنديش حد يمشي في مظاهرات». فقالت ماريكا وهي ما زالت تحاول تهدئته: «كلامك صحيح. مدحت غلطان، أنا موافقاك. من هنا ورايح ما فيش مظاهرات، بس سامحه المره دي». وتوسلت إليه: «عشان خاطري سامحه المره دي. ما

تضيعشي مستقبله عشان غلطه زي دي». ولكن سالم أصر على موقفه: «رأيي إنك تجهزي له حاجاته عشان يمشي». وبكت ماريكا: «طيب يمشي يروح فين؟ مين هياخد باله منه؟ ده لسه صغيّر». فرد عليها سالم بقوله: «لسه صغيّر. لسه صغيّر. ما هو إنتي اللي بوظتيه»، فقالت: «يا سيدي حقك عليّه إذا كنت غلطانه، بس ما تطردوش. معقول تطرد ابنك؟». ويبدو أن هذا السؤال زاد غضب الرجل اشتعالا: «ما هوّاش ابني. أنا ما عنديش أولاد». فاحتدت ماريكا بدورها: «هوه انت فاكر إن أنا لما جبته هنا كنت بدوّر له عن أم؟ كان عنده هناك أكتر من واحده. كنت بدوّر له عن أب يرعاه. فين شهامتك يا سالم؟». ولمعت عيناه بالغضب: «أنا مش عاوز كلام فارغ، الولد ده هيرجع لأهله، يعني هيرجع». وتماسكت ماريكا لتقول بهدوء: «طيب. ما دام إنت متمسك برأيك أنا سايبالك البيت وماشيه. أنا مش قاعده هنا». ودخلت إلى غرفة النوم وعادت بعد قليل ومعها حقيبة سفر، وطلبت إلى مدحت أن ينزل ليجد لها سيارة أجرة.

كان سالم حتى تلك اللحظة جالسا إلى المائدة في انتظار طعام الغداء، ولكنه عندما رأى ماريكا تحمل حقيبتها استعدادا للذهاب، نهض وارتدى ملابس الخروج وخرج. تركها واقفة بالباب وإلى جانبها حقيبتها. كان المشهد مروعا، أين ستذهب ماريكا؟ لم يبق أمامها إلا أن تذهب إلى بيت أبويها. في الماضي كانت هناك مواقف مماثلة. كانت ماريكا تغضب وتهدد بالرحيل بل وتعد حقيبتها بالفعل وتتهيأ للرحيل، ولكن سالم كان يتدخل في اللحظة الحاسمة ويحتضنها فتنهار بين ذراعيه ويتصالح الزوجان بعد عتاب ودموع. ولكن العراك هذه المرة كان مختلفا. كان طرد مدحت أمرا لا يطاق بالنسبة لماريكا؛ وكان انصراف سالم

غاضبا يعني أنه لم يعد يعنيه أذهبت أم بقيت. ورآها مدحت تمسح دموعها وهي واقفة بالباب مشدوهة لا تكاد تصدق ما حدث، ولا تدري ماذا تفعل. فتقدم منها مدحت وقام بدور سالم؛ احتضنها فأسندت رأسها إلى كتفه. في تلك اللحظة كان كل منهما متضامنا مع الآخر وإن كان عاجزا عن معاونته. كلاهما كان غريبا. ولكن مدحت اهتدى في النهاية إلى الحل. قال: «ما تزعليش نفسك. ولا يهمك. إنتي تقعدي في بيتك. وانا ماشي»، وبكت: «طيب هتعمل إيه؟»، فقال: «الأول أرجع البلد وبعدين نشوف». وحمل الحقيبة إلى غرفة نومها، فجلست مطأطأة الرأس في انكسار.

أما هو فظل طيلة الليل يرتعد في فراشه خوفا مما ينتظره. العودة إلى بلده تعني انتهاء حياته الدراسية، تعني العودة إلى ناعسة – وماذا تستطيع ناعسة الفقيرة أن تفعل من أجله؟ وماذا يستطيع هو أن يفعل من أجلها؟ - أو تعني الالتجاء إلى عمه في قرية القواسمة. لن يرفضه، وستستقبله هنية بالأحضان لكي ينضم إلى جيش من البنين والبنات. ولكنه لا يستطيع مثل أبناء عمه أن يكون فلاحا يعمل في الغيط. لم يتعود على ذلك، ولا يصلح له. إذن ما العمل؟ كل الأبواب مسدودة في وجهه، والمستقبل مظلم ومرعب.

وفي الصباح عندما استدعاه سالم إلى الدكان كان على يقين من أن سالم يريد أن يؤكد له تمسكه بالحكم الذي أصدره. وتوقف قليلا قبل أن يصل إلى ميدان عباس، ورأى من بعيد لافتة الدكان. ها هي إحدى اللافتات التي فك حروفها ذات يوم واختبره سالم في قراءتها. أمن المعقول أن ينتهي كل ذلك وكأن شيئا لم يكن؟ وخطر له أن يعود إلى البيت فيصطحب سلوى إلى الدكان لعل

قلب سالم يرق له بفضلها، ولكنه واصل السير. كلا، سلوى لن تنجح فيما فشلت فيه ماريكا، وعليه أن يواجه المستقبل المظلم وحده. أم ينبغي أن يبذل محاولة أخيرة لاسترضاء سالم؟

وسار يجرجر قدميه نحو الدكان. غير أنه لسوء الحظ وجد سالم يصب جام غضبه على حنيدق القهوجي؛ فقد جاءه حنيدق بالقهوة فاترة، وهو لا يشربها إلا ساخنة تغلي، وحنيدق «الحمار ابن الحمار» يعلم ذلك، وأبوه «المسطول دائما» يعلم ذلك. فهل كتب عليه – أي على سالم – أن يتعامل إلى الأبد مع «الأغبياء المغفلين»؟ وكان حنيدق المسكين يعتذر ويتأسف مرددا: «حاضر يا عم سالم. حقك عليه. بس ما تزعلشي نفسك». وتحول السخط إلى ثورة عارمة عندما عاد حنيدق بالقهوة «مظبوطة». كيف يفعل ذلك وهو يعلم أن سالم لا يشربها إلا «على الريحة»؟ وانهالت الشتائم على رأس حنيدق وإن امتدت هذه المرة إلى أمه وشرفها.

وبإزاء ذلك أيقن مدحت أن لا أمل على الإطلاق في استرضاء سالم، وبقي واقفا محني الرأس كمن ينتظر وقوع السيف على عنقه. وعاد الهدوء إلى سالم عندما أخذ رشفة من القهوة الثالثة وشد نفسين من الشيشة، وظهرت على وجهه علامات تشبه الرضا. وأخيرا انتبه إلى وجوده - أم أنه كان يتجاهل وجوده متعمدًا إمعانًا في التنكيل به؟ - فطلب إليه الجلوس، وقال: «إنت مش هترجع العزبه. هترجع أبو كبير». وأحس مدحت بقلبه يخفق بشدة. هل هناك أمل؟ هل يريد سالم أن يمد له طوقا للنجاة؟ هو كذلك، سالم لديه خطة أخرى. الحمد لله. قال له إنه سيعود إلى أبو كبير ليكمل المرحلة الثانوية فيها. وداهمه البكاء عندما سمع سالم

يخبره أنه سيتكفل بنفقاته حتى نهاية الدراسة الجامعية، وانحنى على يد سالم – ما زال في قلب الجبار مكان للرحمة – ليقبلها ويدعو له بطول العمر.

كان ذلك هو الحل الذي توصل إليه الجميع في جلسة صلح انعقدت في المساء في بيت بطرس. فقد أدرك أبوا ماريكا بسرعة أن الرجل حريص على زوجته، ولكنه لن يتزحزح قيد أنملة فيما يتعلق برحيل مدحت. وساد الصمت لحظة بدا فيها أن ليس ثمة مخرج من الأزمة إلى أن قالت السيدة دوريس موجهة الكلام إلى سالم: «طيب، يمشي مدحت زي ما انت عاوز بس تتكفل بمصاريفه لغاية ما يتخرج م الجامعه»، ونظرت ماريكا إلى أمها شزرا محتجة على اقتراح أمها، فردت النظرة بأخرى تعني: «إخرسي». ووافق سالم دون تردد.

وفي الطريق إلى أبو كبير كان مدحت يشعر بالقهر. سالم يخاصم دون هوادة ولا يرضى بما هو أقل من سحق خصمه. والتزام سالم بالتكفل بنفقاته حتى نهاية الدراسة الجامعية يعني أن كل ما يريده هو التخلص منه، وأن الاشتراك في المظاهرة لم يكن إلا فرصة مناسبة لتحقيق هذا الهدف. كان يتربص به، فلما سنحت الفرصة استغلها دون أن يقيم وزنا لاعتراضات ماريكا. وكان عليها أن ترضخ في النهاية، وبخاصة بعد وساطة أبويها. قالت وهي تودعه: «المهم انك تبص لقدام وتنجح في دراستك. ما تفكرشي في أي حاجه تانيه». استسلمت كما استسلم؛ لم يكن في وسع أي منهما أن يفعل شيئا؛ كان عليهما أن يتقبلا «الرأفة» التي أبداها سالم بعد أن تحقق له ما يريد. من المحزن أنه سيغادر

الإسماعيلية وسيفارق ماريكا، ولكنه مضطر إلى السير في الطريق الذي رسمه سالم. هو أفضل خيار متاح.

ولكنه لم يصل إلى أبو كبير إلا وقد أخذ يرى أن للخطة جانبا إيجابيا. هو الآن في الخامسة عشرة من عمره، وفي السنة الثالثة من المرحلة الثانوية، وهو يعود إلى بلده أصح وأقوى مما تركها. أعطته الإسماعيلية الدفعة اللازمة لمزيد من الطموح والأمل في المستقبل. ويبدو أن الأوان قد آن لكي يستقل. أبو كبير ليست نهاية العالم. هي الحرية أو هي نقطة الانطلاق إلى الحرية. الطريق إلى الأمام مفتوحة. بعد أقل من ثلاث سنوات سينتقل إلى القاهرة «أم الدنيا»، الحلم العظيم. ليقطع إذن بقية الشوط بعيدا عن سالم ودون خضوع لسطوته. يستطيع الآن على الأقل أن يشارك في المظاهرات إن وجدت وأن يقرأ ما يحلو له من الكتب، ولعل سالم عندما طرده أسدى إليه معروفا – من حيث لايدري. ولا بد أن يُهزم سالم. هذه معركة لا بد أن يخرج منها منتصرا. عليه أن يحب هذه المدينة التي جعلها سالم منفى له.

* * *

ما إن وجد سكنا حتى أخذ يتجول في أبو كبير طولا وعرضا حتى يفي على طريقته بحق المكان. فسار طولا على الطريق الزراعي المحاذي للترعة وخط السكة الحديد، ومر بمحلج القطن – نقطة البداية من ناحية «الغابة» - فمدرسة البنات، فالمدرسة الثانوية للبنين، فالمقهى الوحيدة («البورصة»)، فالسينما الوحيدة، فوابور الثلج، فمزارع الليمون. ثم عاد أدراجه إلى «البورصة». هنا نقطة المركز. للمقهى شرفة خشبية أخنى عليها الدهر، ولكن

الهيكل الجميل البالي يدل على أنها شهدت أيام عز. ويبدو أن تسمية المقهى بالبورصة تدل على أنها كانت في فترة من الفترات مكانا يلتقي فيه كبار التجار – من الأجانب بصفة خاصة - والأعيان ليعقدوا فيه الصفقات. وإلى جانب المقهى يقع ما يسمى «الشارع الكبير»، وهو طريق غير مسفلت يتعامد على السكة الزراعية ويمتد إلى تخوم المدينة.

وعبر المزلقان إلى محطة السكة الحديد ومكتب التلغراف، ثم انحرف إلى اليسار فرأى بيتا من طابقين. ذلك هو البيت الذي آوى خمارة بترو ومسكنه في الزمن الماضي. أصبح مهجورا وباليا ولا يجد من يرممه. الأرجح أنه سيجد من يهدمه ليقيم مكانه عمارة سكنية. وها هو الباب الذي كان يؤدي أول ما يؤدي إلى خمارة الخواجة. مغلق بقفل ثقيل. ليته يستطيع الدخول ليرى الكاونتر الذي كان بترو يقف خلفه، وليرى المكان الذي كان سالم يجلس فيه ينتظر قدوم ماريكا بالطلبات. آه لو أنه استطاع النفاذ إلى الداخل! هل الستارة التي كانت تفصل بين المسكن والخمارة وتنفرج عن ماريكا ما زالت قائمة بخرزها الملون؟ سؤال جنوني. ووقف تحت أشجار اللبخ (ذقن الباشا) المواجهة لشرفة ماريكا، هي الوحيدة التي ما زالت صامدة في وجه الزمن مقلبة أوراقها ما بين الأخضر والأصفر والأحمر. ولا بد أن هذه هي الشجرة التي كان سالم يتسلقها ليلا إلى حبيبته.

المدينة في هذه الحدود تحب. هنا تقع واجهتها التي يراها الزائر أول ما يرى، واجهة تحمل بقايا تراث تاريخي وتحتوي على كل نصيبها من المعالم الحضارية. القطار يمر من هنا آتيا من المنصورة في طريقه إلى القاهرة. وهناك على مرمى البصر

قطار الدلتا الذي يسير على مهل ويتجه إلى فاقوس شرقا وإلى ديارب نجم في الغرب، وفي هذه المنطقة التي تمر بها القطارات تبدو القاهرة قريبة وتتجه الأشواق إليها، ولكن عليه أن يحب هذه المدينة أولا.

ليس في «الشارع الكبير» أرصفة ولا مقاهٍ ولا متاجر لها نوافذ عرض، ولكن توجد فيه – إحقاقا للحق – بعض الأماكن المثيرة للاهتمام. هناك «السرجة» لعصر الزيت وصناعة الكسب لعلف المواشي؛ ويدور فيها جمل لتشغيل التروس. ومن الشارع الكبير تتفرع على الجانبين مسالك ضيقة أو حوارٍ لا تمت للحضارة بصلة وهي في معظمها سكنية. ولكنه دخل إحداها إلى اليسار – وكانت موحلة – فصدمته روائح نفاذة. هنا إذن محل لبيع الفسيخ، وحل وروث. ويقابله دكان معتم يقف ببابه رجل عجوز ذو جلباب أبيض ولحية بيضاء مشذبة. وماذا يبيع هذا الرجل في مواجهة الفسخاني؟ يا للعجب! متجر للكتب المستعملة. كتب؟ هناك كتب في أبو كبير وقراء، في حين أن الإسماعيلية المدينة المتحضرة ليس فيها متجر واحد للكتب العربية. رحب به العجوز فدخل، وراقت له رائحة البخور والكتب القديمة. كانت هناك كتب مغبرة وفي بعض الحالات متهرئة طبعت على الحجر في القرن التاسع عشر. كيف وصلت هذه الكتب إلى أبو كبير ولم تصل إلى الإسماعيلية؟ ومَن مِن سكان هذه البلدة الريفية يقرأ أو قرأ مثل هذه الكتب؟ لو أنه كان ميسور الحال لاشترى محتويات الدكان. ولكنه اكتفى في البداية بشراء كتاب غريب عنوانه «هز القحوف في شرح قصيدة الشيخ أبي شادوف» للعلامة الشيخ يوسف الشربيني. فما هي القحوف؟ يعرف أن «القحف» في لغة القواسمة والصوالحة جزء من لحاء النخل، وهو أيضا الرجل

الغليظ الخشن قليل الذوق (كأنه قحف نخلة) أو «الجلنف» (الجلف). فماذا يعني المؤلف بهز القحوف؟ أهو هز النخل لإسقاط ما عليه من بلح؟ لا بد من قراءة الكتاب.

وتوقف طويلا: أيشتري الكتاب أم لا يشتريه؟ العقل ينصح بترك الكتاب في مكانه على الرف، فالقروش في جيبه قليلة. ولكنه يتشوق إلى معرفة ما يعنيه الشيخ الشربيني بكلمة «القحوف» وبهزّها. القحوف بقدر ما يفهم ليسوا غرباء عليه، وقد كان أحدهم في يوم من الأيام. ألم يكن أبناء الإسماعيلية يصفونه بأنه «جلنف»؟ وتمكن من حسم الأمر بعد تردد مؤلم عندما أومأ إليه الشيخ ذو اللحية الشيباء وقال: «ولا يهمك، الفلوس مش مهمه»، فاشترى الكتاب بثمن بخس ارتضاه الرجل.

وكان نافد الصبر عندما وصل إلى غرفته في المساء. ما إن خلع الجاكتة حتى استلقى على السرير بالقميص والبنطلون ولم ينم (في الثالثة صباحا) إلا بعد أن أتم قراءة الكتاب على نور مصباح الجاز («اللمبة السهاري»). ولم يكن يتوقف عن القراءة إلا للضحك أو التهام قطعة من الحلاوة الطحينية (طعامه للعشاء). والقحوف إذن هم الفلاحون، وقد ألف أبو شادوف قصيدته وكتب الشربيني شرحه في هجائهم. يقول الشارح في مقدمة الكتاب: «ولنشرع الآن فيما وعدنا، وما زمرنا به ورقصنا... وقبل الخوض في بحر هذا الكلام... نذكر ما وقع لعوام بعض أهل الريف ووصف طبعهم وأخلاقهم وذواتهم وأسمائهم. فنقول: أما سوء أخلاقهم وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة وامتزاجهم بأهل الكثافة، ولملازمتهم

المحراث والجرافة، وهز قحوفهم حول الأجران... ودورانهم حول الزرع ونطهم في الحصيدة والقلع...».

فماذا يعني الشيخ بهز الفلاحين لقحوفهم حول الأجران؟ لا بد أن هناك معنى آخر للقحوف، وهو لا يتضح إلا بعد الخوض في غمار الكتاب. ويتبين إذن أن لكلمة «القحف» معنى لم يعد مستعملا – على الأقل في الصوالحة والقواسمة. فالقحف بهذا المعنى غطاء للرأس «يعمل من الصوف أو الشعر يلبس على الرأس... يستعمله الفقراء... ويلبسون شيئا يقال له الطرطور ويلقون عليه القحف...». والمعنى إذن مهجور. ولم يعد الفلاحون كما عرفهم يلبسون القحف، بل ولا يلبسون الطرطور، كانوا يلبسون الطرطور، على عهد أبو جاد اللي طرطوره خوف الولاد، ولكنهم ما زالوا في نظر الشيخ «قحوفا» بمعنى آخر للكلمة.

لولا تلك المعالم التي تطالع الزائر في الواجهة لكانت أبو كبير قرية مثلها مثل الصوالحة والقواسمة وإن كانت أكبر من كلتيهما. وهناك شيء آخر بالإضافة إلى تلك المعالم الظاهرة؛ هذه المدينة لها روح، لها شخصية تتميز بالشدة. وليست مدينة رخوة كالإسماعيلية.

وفي الأيام الأولى من الدراسة شاهد طريقة أخرى لتظاهر الطلاب. فقد تجمعوا في الحوش في مواجهة خطيبين – أحدهما يمثل الوفد بينما يمثل الآخر الإخوان المسلمين – وقف كل منهما على جانب من الدرج وتعاقبا على الخطابة، وكان كلاهما فصيحا مفوها قادرا على إثارة الحماس في مستمعيه وتحريك جموعهم.

ولما قال كل منهما ما لديه اندمج الجميع – أتباع الإخوان وأتباع الوفد – في مظاهرة واحدة خرجت إلى الطريق الزراعي وتعالت فيها الهتافات ضد الاحتلال والملك فاروق. ورغم أن ميوله كانت مع الوفد – مثله مثل العم سالم - فقد تحمس لما سمعه من خطيب الإخوان المسلمين؛ الحقيقة أنه أجاد. وسره أن الخطيبين أتاح كل منهما للآخر فرصة الكلام دون مقاطعة أو تشويش. وتعجب لفصاحة الخطيبين: أين تعلما هذه المهارات الخطابية؟ لم يحدث أن ظهر في ثانوية الإسماعيلية خطيب ذو شأن أو وعي سياسي واضح يقسمهم أحزابا، أو قائد طلابي، رغم أن المدينة كانت معقل الإخوان المسلمين: لهم فيها جامع ومدرسة ابتدائية، وجيش من الكشافة والجوالة المهيئين للتدريب العسكري. كيف استطاعت أبو كبير البلدة الريفية أن تحقق هذه المعجزة؟ ربما كانت خشونة الحياة هي السبب. الإسماعيلية جزيرة أوروبية أو شبه أوروبية مترفة في المحيط المصري. لعل الاختلاط بالأجانب والاعتماد عليهم من الناحية الاقتصادية أدى إلى نعومة السكان الأصليين ورقة طباعهم وقلة احتفالهم بالثقافة. وإذا تركنا جانبا حي الإفرنج الحافل بمتاجر الكتب الأجنبية، فإن حي العرب ليس فيه متسع للكتب المتاحة للشراء أو الاستعارة أو الاطلاع العام. لا مكان في الإسماعيلية العربية للكتب فيما عدا خزانتي سالم على ما يبدو.

ثم تكشفت له بالتدريج معجزات أخرى، فقد وجد في المدرسة مكتبة فيها مجموعة صغيرة من الكتب للاستعارة، وهي مكتبة لم يجد لها نظيرًا في ثانوية الإسماعيلية. ولم يمض وقت طويل قبل أن يتعرف على طلاب – أغلبهم فقراء من أسر كادحة وأبناء مزارعين صغار وفلاحين - يهتمون بالأدب وينظمون الشعر. وشعر لأول وهلة أن انتقاله إلى أبو كبير يعني العودة إلى أصوله

- فهو «قحف» في أعماقه - وأن الحياة في الإسماعيلية لم تكن في الواقع إلا مرحلة انتقالية مؤقتة. قحف ولكن من طراز فريد، يسير في فناء المدرسة «نافشا ريشه» على مرأى من أبناء أبو كبير، كأنه يريد أن يقول: بالله عليكم هل رأيتم قبل اليوم قحفا يستطيع الكلام بعدة لغات أجنبية؟ ولكن هل يمكنه أن يحب هذه البلدة؟

* * *

غرفته متواضعة جدًّا ولكنها ذات موقع متميز، فهي قريبة من الجامع والسوق والمدرسة ولها نافذة تطل على شارع رئيسي، وبجوارها مباشرة دكان يديره أمين صاحب البيت وزوجته لبيع السجائر والشاي والسكر وما إلى ذلك ويقبلان بيع الشكك والتقسيط. العيب الوحيد في داخلها هو الرطوبة التي تعيث فسادا في الجدار المجاور للسرير، والعيب الآخر هو أن أمين يغلق الجزء الداخلي من المسكن - الذي توجد فيه دورة المياه - عند إغلاق الدكان في العاشرة مساء؛ وليس أمام الساكن الذي يريد قضاء حاجته بعد تلك الساعة إلا أن يرتاد مراحيض الجامع. أما لماذا يعزل أمين الجزء الداخلي من البيت، فلأنه توجد فيه غرفة نوم الزوجين، وغرفة أخرى يسكنها ابنهما «الشيخ خيرت» الذي استحق لقب «الشيخ» لأنه «مبروك» بسبب تخلفه العقلي.

وبفضل ذلك الموقع المتميز تعرف الساكن الجديد على أول صديق له في أبو كبير. عماد يسكن قريبا منه مع أخته المتزوجة، وأصبح يتردد على غرفته. والأهم من ذلك أنه يدعوه بين حين وآخر إلى غداء أو عشاء في شقة الأخت، وجبة عامرة لا يمكن

الحصول عليها بسهولة، ولا يعيبها إلا أن عماد يأكل بسرعة لا تجارى، ويتوقف عن الأكل ويعلن عن ذلك فيحمد الله قبل أن ينال الضيف ما يكفيه، فيضطر الضيف خجلا إلى التوقف بدوره.

والحقيقة أنه لم يعرف انفتاح الشهية والجوع إلا في أبو كبير. الطعام متواضع وبدائي تماما إذا قورن بما كانت ماريكا تقدمه، ولكنه لا يحصل على ما يكفيه منه رغم ما ترسله عمته هنية بين حين وآخر. ويزيد من حدة جوعه سرعة الآكلين معه. فبعد التعرف على عماد صار له رفيقان آخران: بيومي الريفي الشاعر، وهاشم لاعب الكرة الفتوة ذو الكتفين العريضتين والعضلات. وكثيرا ما يفترش الرفاق الأرض في الغرفة المطلة على الشارع ويتناولون الطعام معا: السردين المملح «الرشيدي» والفول والطعمية والسمك المشوي من سوق الأربعاء. ولكنه لا يستطيع نيل الكثير مع أولئك الوحوش: الواحد منهم يلف السمكة بعضها أو كلها في قطعة من الخبز ويلتهمها بشوكها. وهم يأتون على الطعام – كل الطعام – دون التفات إلى أن صاحبهم لم يصل بعد إلى نصف ما يريد. ولم يمض وقت طويل قبل أن يتم تدريبه على السباق وانتزاع ما يريد.

لفت بيومي نظره لأنه يأتي إلى الدرس متأخرا في كثير من الأحيان، وعندئذ يتوقف الأستاذ عن الشرح، فيعتذر بيومي: «أصلي جاي من ههيا يا بيه». ويتقبل الأستاذ العذر إلا أن بيومي لا يتحرك، بل يدور في الفصل بعينين زائغتين كأنه يأتي إلى المكان لأول مرة. ثم يتجه إلى مقعده ببطء وبجسم متصلب كأنه تمثال من خشب. ولكن بيومي يصبح عندما يفيق مهرجًا من الطراز الأول، ما إن يدخل الأستاذ علي عبد العظيم أستاذ اللغة

العربية قاعة الدرس حتى تدب الحيوية في الجسم المتصلب ويتكشف عن حس فكاهي لاذع. والأستاذ يحبه لامتيازه في اللغة العربية – فهو ينظم الشعر – ولمساندته للأستاذ في تحامله على أبناء الريف. بيومي فلاح ابن فلاح، يعمل بعد الدراسة في حقل أبيه بالمحراث والفأس والمنجل، وجميع طلاب المدرسة حتى أبناء أبو كبير ريفيون – على الأقل في نظر الأستاذ. إلا أن بيومي يزود الأستاذ بذخيرة لا تنفد من نوادر عن الفلاحين مستمدة من الواقع مع شيء من المبالغة، أو من كتاب «هز القحوف» الذي يروي عنه من الذاكرة كأنه يحفظه عن ظهر قلب.

وجاء بيومي بهاشم لاعب الكرة الذي يقوم بدور الحارس الأمين. فمهمته هي التصدي «للشضلية» – من الإخوان المسلمين أو غيرهم – عندما يحاولون التحرش بأصدقائه؛ فبيومي لا يستطيع أن يؤذي بعوضة، وعماد طويل لكنه «هايف»، ومدحت الإسماعيلي «نايم على روحه». والمدرسة تعج بالشضلية: لاعبي كرة القدم والكرة الطائرة وممارسي رياضة المتوازين. وهناك مجموعة منهم في الفصل معيدون للسنة يجلسون في الصفوف الخلفية ويغافلون المدرس وهو يكتب على السبورة ليتبادلوا الإشارات من خلال النافذة مع خادمة المأمور أو يغازلون زوجة وكيل النيابة، ويتداولون أثناء الدرس كتابات جنسية من بينها «مذكرات إيفا».

وتكوّن إذن فريق من أصدقاء أربعة يلتقون بصفة يومية تقريبا ويتناولون كثيرا من وجباتهم على ورق الصحف مفروشا على الأرض. وفي هذه الغرفة التي لا يدخلها نور الشمس يستذكرون

دروسهم، ويحتفلون عندما ترسل هنية مأكولاتها الشهية. ولهم حفلات أخرى من بينها حفلة كي القمصان. فالبدل تذهب مرة في السنة إلى المكوجي ليدوسها بمكواة الرجل، أما القمصان فيقتضي كيها تكاليف لا تتحملها الجماعة. وهي تكوى إذن بلف أساور الأكمام والياقات المبللة على الزجاج الساخن للمبة الغاز. أما بقية أجزاء القميص، فلا داعي لكيها لأنها مستورة تحت الجاكتة ولا يراها أحد. وقد يبيت بعض أفراد المجموعة في نفس الغرفة إذا تكاسل عن الذهاب إلى مأواه، فيفترش حصيرا على الأرض بينما ينام صاحب الغرفة على السرير الذي يوصف بأنه «سفري» (نسبة إلى السفر أو التنقل) ويحطم الضلوع لأن الملة مصنوعة من السلك. وكم سعد الإسماعيلاوي الغريب بالتفاف هذه الشلة من الأصدقاء حوله! وكم شقي بهم! قبل وصولهم كانت أبو كبير كثيرا ما تصدمه وتثير اشمئزازه بوحلها وفضلات الحيوان والإنسان في طرقاتها. ومع ذلك لا تفتأ أبو كبير تفاجئه باكتشافات سارة.

في بداية العام الدراسي ظهرت ذات صباح فتاة تحمل حقيبة كتبها لصق صدرها وتلبس – يا للروعة! – بيريه. بيريه أخضر في أبو كبير؟! البيريه في الإسماعيلية أمر لا يثير الاستغراب. فهناك المجندات الإنجليزيات والفتيات الأجنبيات. ومن الصور التي أهدتها إليه سلوى صورة تظهرها بملابس الكشافة بما في ذلك المنديل حول العنق والبيريه. أما في أبو كبير، فهذا ضرب من المحال. يطل عليها وهي في طريقها إلى المدرسة فيرى الوجه المشرق النضر، والصدر الناهد، وضفيرة كثة من الشعر الأسود، والمشية المتئدة التي تدل على الاعتداد بالنفس. وأصبح ينتظر مرورها كل صباح – كما كان ينتظر إبتسام ولكن هذه أجمل -

ويستأثر بمرآها، إلى أن وصل الأصدقاء وأصبحوا إذا باتوا في الغرفة ينتظرون جميعا مرورها، ويدعي كل منهم أنها التفتت أو ابتسمت له وحده - هذا إذا ابتسمت أو التفتت أو خيل إليهم ذلك. وسموها «القائمقام» بسبب مشيتها. وكانوا عن أحزانه غافلين، لم يعلموا أن لابسة البيريه تضيء ظلمة وحدته وتنسيه شعوره بالاشمئزاز والظلم في المنفى القذر.

لم يدم استئثاره بها طويلا قبل أن يتكاثر المعجبون بها المطلون عليها من النافذة. ثم كانت الإصابة بمرض الصفراء الذي حطم معنوياته. مرض سبقته أعراض مثل فقدان الشهية إلى الطعام، والشعور بالإرهاق، واصفرار الوجه والعينين. وشرح الطبيب للمريض أن من المرجح أن يكون سبب الإصابة تلوث الطعام بسبب قربه من فضلات الإنسان. فقال المريض: «عندنا كتير من ده». هناك حقول الفجل في منخفض من الأرض يطل عليه الجامع ويطلق عليه مجاريه فيترعرع ويورور ويباع في السوق القريبة. وفي البيت يعجز الشيخ خيرت عن الوصول إلى دورة المياه بالسرعة اللازمة (لأن قدمه المصابة بشلل الأطفال لا تسعفه)، فيسقط فضلاته في الطريق. وهذه هي أبو كبير – مدينة الوحل والغائط – التي عليه أن يحبها.

ومن حسن الحظ أن ماريكا أصبحت ترسل إليه بين حين وآخر ودون علم سالم مبلغا إضافيا صغيرا، فتيسرت الأحوال شيئا ما، وزاد إقبال الأصحاب على الزيارة والمبيت. هناك السرير السفري، ومائدة للمذاكرة، وحصير يفترشه الزوار وينشرون عليه ورق الجرائد ليؤدي دور مائدة الطعام. وهناك دكان أمين لشراء الشاي والسكر والسجائر فرطا - أي خمسة خمسة

لتخميسها أو المشاركة في تدخين كل منها - بشروط ميسرة. ويحتفل الرفاق بين حين وآخر عندما تبعث امرأة العم هنية برسول على حمار يحمل بعض الأغذية مثل البيض وجبن الحصيرة وفي أحوال نادرة حلة فيها دجاجة مطهوة وأرز. عندئذ تقام وليمة يأتي فيها الرفاق على الأخضر واليابس في لمح البصر.

وأهم ما في الموضوع بلا أدنى شك النافذة المطلة على الشارع كوسيلة لاستقبال النور واستنشاق الهواء النقي والإطلال في الصباح على الطالبات في طريقهن إلى المدرسة. أماكن النزهة قليلة. أهمها الطريق الزراعي، يخرج إليه الرفاق وقت العصاري عندما تخف الحرارة وينعمون بمنظر معلمات المدرسة الثانوية للبنات في شرفاتهن، أو يرسلون إليهن كلمة غزل أو إشارة باليد. والمعلمات لا يضقن بهذا اللهو البريء، ولا يشتكين المعجبين إلى ناظر المدرسة. بل ويستجبن أحيانا بابتسامة أو يلوحن كرد على التحية. مسكينات كما يردد الرفاق، غريبات يعشن في هذا البلد البائس حبيسات في غرفهن بعد يوم العمل، كأنهن راهبات في دير. ليس هناك من يهتم بهن سوى هؤلاء الشباب المتشوقين. ولا يضيق بهذا التشوق إلا بعض الطلاب «الإخوانجية» الذين يعارضون هذه «الإباحية». يظهرون فجأة حاملين العصي مستعدين للعراك ويأمرون المتغزلين بالذهاب إلى الجامع والصلاة بدلا من ارتكاب المعصية - إلى أن يتصدى لهم هاشم. وعند هذا الحد تنتهي الجولة وإن استمر الجدال بين الرفاق حول نتيجتها، فكل منهم يدعي أن تعطف الجميلات في الشرفة – إذا تعطفن - موجه إليه.

وهناك قطار الدلتا الواقف أبدا على قضبانه الممتدة على كثيب من الرمل. يذهب إليه الرفاق مع كتبهم ليستلقوا في ظل إحدى المركبات وهناك ويستذكرون دروسهم أو يراقبون المارة. وقد يأتون اثنين أو فرادى. وكثيرا ما يأتي صاحب الغرفة وحده للقراءة أو التذكر والاعتبار، فشرفة ماريكا قريبة وشجرها شامخ صامد لم ينل منه الزمن. وبيومي إذا جاء يستعين بالظل والهدوء لنظم الشعر أو كتابة «مذكراته».

ولمحطة القطارات ومرافقها (مكتب التلغراف والقضبان والسيمافور) سحر خاص. القطارات تمر من هنا ويُشاهد في نوافذها الذاهبون إلى القاهرة أو الآتون منها – أناس يبدو أنهم من طينة أخرى غير طينة البشر. وتلقي القطارات على الرصيف بالصحف والمجلات وروايات الجيب، وهذه الأخيرة للمحظوظين القادرين على الشراء. أما هاشم فيتردد على المكان ليلا ليلتقي بإحدى صاحباته. وذلك أن لاعب كرة القدم أقدر أفراد المجموعة على اجتذاب الفتيات – وكنّ جميعا من خدم الأسر الغنية – واستدراجهن إلى ذلك الوكر. ورغم أن الرفاق ينتقدونه لانحطاط ذوقه، إلا أنهم يفيدون من مغامراته؛ فهو يعود منها بالحكايات اللذيذة والحلويات الشرقية التي تسرقها حبيباته من أصحاب العمل.

وهناك أماكن أخرى للتجول المنفرد. فيوم الأربعاء هو يوم السوق، والسوق حفل كبير كأنه العيد. وباستطاعة السائر عندئذ على الطريق الزراعي في اتجاه «الغابة» أن يشاهد بعد محلج القطن ونقطة المرور الفلاحين رجالا ونساء يفترشون الأرض ويبيعون منتجاتهم من الحبوب والدواجن والأغذية بالكيل أو

الميزان؛ وأن يرى أفواج القادمين من الكفور والقرى القريبة والبعيدة على ظهور حمير مرحة تغذ السير وتنفض ذيولها وآذانها كأنها تتلهف على زيارة السوق. وتقام السوق في ساحة فسيحة لعرض المواد الغذائية تحت المظلات أو في العراء. و«الإسماعيلاوي» يستنكر تعريض الأغذية للذباب، ولكنه يجد متعة كبيرة في ازدحام المكان بالبشر والجلابيب ونداءات الباعة وصياح الريفيات ولقلقة الدواجن ولغط المساومات والأيمان المغلظة والسباب. هذه هي الدنيا! وهناك سوق أخرى تعقد في نفس اليوم خارج المدينة من ناحية السكة الحديد لتجارة المواشي. وثمة إذن مشهد لا نظير له إذ يكتظ المكان بالبشر والحيوانات. وتقتضي زيارة هذه السوق الاستيقاظ قرب الفجر وهو أمر عسير. ولكنه يتغلب على النعاس أحيانا ليشاهد. ذلك هو الثمن الذي ينبغي أن يدفع لرؤية الحياة الدنيا أو ما يشبه يوم القيامة في ساحة واحدة.

* * *

كل الطالبات اللاتي يمررن في الطريق إلى المدرسة جميلات في نظر المطلين من النافذة. لكن إحداهن فائقة الجمال. وجهها وضيء (الخدان بالذات) وقوامها ممشوق وشعرها أسود غزير معقود في ضفيرة واحدة تسترسل على ظهرها. وكل ذلك يسهل على العقل تحمله. أما ما «يخبل العقل» حقا، فهو البيريه الأخضر الذي تضعه على رأسها مائلا. تعلم أنها متميزة وتسير دون التفات يمنة أو يسرة. وقال أحدهم ذات صباح: «حضرة الظابط.. حضرة القائمقام». ولصقت بها الرتبة، وظلت تحمل هذا اللقب إلى أن تبين أنها تسمى أمل. وأصبح من مستلزمات

الصباح – بعد حلاقة الذقن وقبل الإفطار عند بائع سندوتشات الفول في الطريق إلى المدرسة – انتظار مرورها والقيام بواجب التحية.

واندفع ثلاثة منهم – عماد وبيومي وهاشم – ذات صباح نحو النافذة عند مرور «القائمقام»، فالتفتت. هي إذن تدرك أن لها معجبين، وها هي تعترف بوجودهم، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد فيما يبدو. هل ابتسمت؟ اختلفت الآراء في ذلك إلى أن استقر الرأي على أن الابتسامة كانت غامضة وعابرة، لأن الفتاة عادت بسرعة إلى مشية الزهو والكبرياء. وفي المساء ثار الخلاف من جديد على تحديد من منهم فاز بابتسامة «حضرة الظابط»، كل منهم يدعي الشرف لنفسه. وهو خلاف لا يخلو من الفكاهة والعبث، ولكن الأمر الذي كان جادا ومؤكدا هو أن الثلاثة كانوا متيمين بها وإن كانوا يعلمون أن لا سبيل إليها. ورابعهم – ساكن الغرفة - كان متيما بها بدوره، وإن كان يخفي ذلك. صحيح أنها التفتت ولعلها ابتسمت، ولكن من المستبعد أنها كانت تستهدفه – هذا إذا كانت قد استهدفت أحدا – فهو ليس أحسنهم طلعة ولا أكثرهم جرأة. والوصول إليها من رابع المستحيلات، كما كان الوصول إلى إبتسام أو بائعة العطر. وكيف على أي حال يمكن الاتصال بها؟ بنات أبو كبير فيما يقال معروفات بالجرأة محرضات على الغواية «يا بخت من طال واحده منهم»، ولكن على كل منهن حراسة مشددة من رجال ذوي بأس وبنادق مشرعة فيما يقال، وكأن الأهل يدركون خطرهن. والأستاذ علي عبد العظيم لا يفتأ يحذر طلابه من الاقتراب منهن أو التحرش بهن في الطريق: «الموضوع فيه ضرب نار». ويجيبه بيومي – يريد أن يستدرجه - بقوله: «هن إذن فتنة للناظرين». فيرد

الأستاذ بقوله: «عليكم بغض البصر والصلاة.. الصلاة أعظم واق من الفتنة». وهم باستثناء هاشم يؤدون الصلاة بقدر ما يتيسر لهم ذلك، ومع ذلك فليس لأحد منهم مناعة من وسوسة الشيطان.

وانصرفوا عن الموضوع عندما جاء هاشم ولاحظوا أنه يعرج. سأله بيومي: «بتعرج ليه يا بن سكينه» (هكذا يتنادون بأسماء أمهاتهم على سبيل المداعبة الخشنة). وعندما أخبرهم أنه أصيب في قصبة ساقه بركلة من قدم أحد اللاعبين، طلب إليه بيومي أن يريه الجرح. وصاح عندما كشف هاشم عن ساقه: «وازاي يا بن سكينه تحشي الجرح بتراب؟ هوه ده التضميد في بلدكم؟». قال هاشم: «أهو ده اللي حصل يا بن عيشه، هوه يعني الإسعاف كان جنبي في الملعب؟». ورد عليه بيومي: «يا خيبتك وخيبة أهلك. بتفكرني باللي بيحصل في بلدنا ..».. وسنحت له الفرصة إذن لكي يمارس هوايته المفضلة، وهي «هز قحوف الريف». فروى كيف أن الطفل في بلدهم إذا أصيب بالرمد يقطر في عينه من بول أخيه، وإذا أغمي عليه يكسر فوق رأسه بصلة أو قرص جلة، وهذا في رأي أهل البلد هو الحل الأنجع. «وآديك انت يا بن سكينه بتعالج الجرح بتفافه وتراب. عمركم شفتم هبل زي ده؟». وغير هاشم مجرى الحديث: «سيبونا من الكلام الفارغ ده. إحكوا لي: شفتم القائمقام النهارده؟». فقال عماد: «إنت مالك ومال القائمقام؟ خليك انت في الخدامات»، وهمّ هاشم بالرد لولا أنه تذكر أنه يريد الذهاب إلى دورة المياه.

وتذكر الجميع فجأة أنهم يريدون نفس الشيء. ونظر صاحب الغرفة في ساعته وهتف في انزعاج: «ليلتكم سوده». وذكرهم

بأن الساعة تجاوزت العاشرة، وأن أبو خيرت وأم خيرت أغلقا الدكان والباب المؤدي إلى المرحاض. قال بيومي: «ما قدامناش غير الجامع، إلا إذا حد فيكم عاوز يقف في الشباك ويطرطر في الهوا أو على عساكر الدورية». والدنيا برد والجامع خال ومظلم إلا من فانوس يهتز وترتعش شعلته تحت وقع الهواء في البهو الأمامي، والمراحيض بعيدة، ولا بد من قطع مسافة طويلة قبل الوصول إليها في ظلام يكاد يكون دامسا. ثلاثة منهم كانوا يتقدمون دون تردد – كانوا على ألفة بالمكان – بينما كان رابعهم يرتجف في المؤخرة. هذه هي أول مرة يضطر فيها إلى الذهاب إلى الجامع لأداء هذا الغرض. فهو يحرص دائما على قضاء حاجته في البيت قبل العاشرة مساء. «الله يلعنك يا ابو خيرت. يعني هيجرا إيه لو خليت الباب مفتوح؟». ويدخل دورة المياه في حذر متحسسا الجدران وباحثا بإحدى قدميه عن الموقع الصحيح لكل منهما على جانب من الحفرة. ويتنفس الصعداء عندما تهتدي قدماه إلى المكان المناسب. ولكن الظلام مطبق داخل المرحاض والرائحة الكريهة خانقة. ثم هناك موضوع الاغتسال. يوجد إلى اليمين مجرى للماء تغمس فيه اليد لأخذ حفنة منه. ولكن تسري في بدنه بأكمله قشعريرة كأنه تلقى صدمة كهربائية صاعقة. يده وقعت على جسم طري ذي فراء. وصاح مناديا رفاقه في فزع: «فيه فيران يا ولاد الكلب»، والفأر الذي لمسه ضخم كأنه قط.. حيوان مفترس. والغريبة أن أولاد الكلب يضحكون. قال أحدهم، لعله هاشم: «اجمد يا سماعلاوي يا خسع». وقف شعر رأسه عندما أحس بفأر يمر أسفله بسرعة خاطفة، فصرخ. لكن أحدا من رفاقه لم يكن معنيا به ولا بالفئران فيما يبدو. وجاءه صوت بيومي: «إنت اسم أمك إيه يا وله؟». ولم يخبرهم باسم أمه لكيلا ينادوه به كما جرت العادة بينهم، وهو مشغول مهموم بما هو فيه.

في المرحاض حيوانات كاسرة، وقد ينهش أحدها خصيته. كم هو الثمن الذي يتعين عليه دفعه حبا في أبو كبير؟!

* * *

مرت أمل ذات صباح، وملأ عينيه منها، وتنفس بعمق. وتمنى لو أنها ابتسمت أو التفتت له، ولكنها لم تفعل. ومع ذلك، فقد وجد شعورا جديدا بالثقة في النفس. لماذا يقلل من شأن نفسه؟ لماذا يظلمها؟ لم يعد ضئيل الحجم كما كان: أصبحت أكمام قميصه وجاكتته أقصر من ذراعيه. حدث ذلك فجأة، كأنما حدث وهو نائم ذات ليلة، وهناك فوران في دمه، وتخبره المرآة أن على رأسه الآن شعرا غزيرا كثا يلمع. يستطيع الآن أن يخرج إلى الفتاة ويقتفي أثرها ولعله يجد ما يقوله وتواتيه الجرأة إذا وضع نفسه على المحك. لا بد أن تعلم أنه مهتم بها. لا بد أنها لاحظت وجوده في النافذة عند مرورها، ولا بد أن يحاول. وما جدوى الوقوف في النافذة عند مرورها؟ لن يحدث شيء حتى لو استمر ذلك عشرين سنة. وصمم على انتظارها في الطريق صباح الغد.

ولكن هاشم اقتحم الغرفة في المساء - وكاد يكسر الباب - وقال: «أنا أحب إذن أنا موجود». وتبادل الجميع نظرات الدهشة. العبارة التي نطق بها كانت تحريفا لما قاله الأستاذ عبد الرازق مدرس الفلسفة نقلا عن فيلسوف فرنسي يسمى ديكارت. وكان أول من تصدى للتصحيح بيومي: «الراجل يا مغفل ما جابشي سيرة الحب. جال أنا أفكر إذن أنا موجود. يعني يا هاشم يوم ما تفكر بإذن الله، هتكون موجود». وتمسك هاشم بصيغته: «أنا باحب يا ولاد الكلب. إذن أنا موجود». وسأله عماد: «بتحب مين

يا روح أمك؟ مين الخدامه اللي ضحكت عليها؟». فأجاب هاشم: «أنا باحب أمل». وتبادل المستمعون نظرات الدهشة من جديد، وطرح عماد كتاب «الأحياء» الذي كان في يده: «وأمل دي تبجى مين؟». فأجاب هاشم بهدوء: «حضرة القائمقام». وبهت الجميع، ونزل الخبر على صاحب الغرفة كالصاعقة. كيف وصل هاشم إليها؟ وكيف ترقى من صحبة الخدم إلى ذات البيريه الأخضر بنت الأكابر المعتدة بنفسها؟

وأخبرهم هاشم أنه كان يتعقبها منذ ثلاثة أشهر وهي في طريق عودتها من المدرسة، وصار يرسل لها مع إحدى الخدم رسائله الغرامية الملتهبة، ويقسم فيها أنه لا ينام الليل ولا يستطيع التركيز على المذاكرة، ويتوسل إليها أن تشفق عليه، فذنبه الوحيد أنه يحبها حبا يشهد الله أنه صادق وطاهر. وأضاف في آخر رسالة أن أول موعد سيكون ليلة الثلاثاء عند قطار الدلتا. وتوقف هاشم عن الكلام لكي يشحذ انتباههم ثم قال: «وإيه رأيكم جت ليلة امبارح في الميعاد. جت مع خدامتها تصوروا؟». وكان بيومي أول من أفاق من الصدمة. قال: «رحنا في داهيه. ما عادشي فيه بجلاوه ولا بسبوسه». وضحك الجميع إلا صاحب الغرفة الذي اشتعلت الغيرة في قلبه وكادت تطفر من عينه دمعة. أمل تذكره بإبتسام وبانتظارها كل صباح في ميدان عباس وبعجزه عن الاقتراب منها. وتذكره ببائعة العطر صباح الجمعة التي لا يقترب منها إلا في الأحلام. كان في تلك الأيام معذورا بسبب صغر سنه. أما الآن، فليس له أي عذر. هاشم يكبره بسنتين، ولكن هذا الفارق لا يبرر عجزه وقصوره. متى سيتحلى بالجرأة اللازمة؟ كيف سيكون اتصاله بالجنس الآخر؟ ومتى وكيف ستقع مغامرته

الأولى؟ لا يستطيع أن ينافس هاشم. فهو ليس بلاعب لكرة القدم، ولا يستطيع رفع نفسه على المتوازين. أين له بالعضلات؟

وفي اليوم التالي جاء بيومي فسأله:

- إيه رأيك؟

- في إيه؟

- في حكاية الحب دي؟ آدي أمل طارت من إيدينا. نعمل إيه؟

- سلم أمرك لله. ما أخدها الواد أبو عضلات.

- يعني مافيش إلنا نصيب هنا؟

- اصبر لما نروح مصر. هناك هنجابل بنات في الجامعة والأمور تحلو.

وبعد فترة من الصمت قال بيومي:

- شوف. مافيش إلنا حب في البلد دي. مافيش غير حاجات خطف.

- تجصد إيه؟

- يعني... بس عهد الله ما تجيب سيره لحد.

- جول ما تخافش.

- شوف. أنا من أسبوعين اندعيت لفرح في ضواحي الزجازيج. وفي آخر السهره البيت كان مزحوم بالمعازيم اللي لازم يبيتوا. والناس مزارعين غلابه حبوا يكرموني. إدوني كنبه أنام عليها. والأوضه كانت زحمه بالعيال اللي فارشين ليهم ع الأرض. وما كانشي فيه غيري انا وبنت لسه عروسه مالهاش ست اشهر متجوزه كانت نايمه ع الأرض. والدنيا حر موت، ومش جاييلي نوم. مديت رجلي في الضلمه، كنت بتمطع. لمست رجلي فخدة البنت، أقسم بالله العظيم ما كان جصدي حاجه. لجيت اللي ماسكه رجلي وبتشد. في غمضة عين لجيتني انجلبت من الكنبه عليها، وخد عندك كأني كنت راكب مهره بترمح بيه، ترفعني لفوج وتشدني لتحت، ترفعني وتشدني. أجول لك إيه بس؟ ده موضوع يجنن، يدمر راس البني آدم. بس أقسم لك بالله العظيم ما كان جصدي. وهو ده الخطف وما فيش غيره.. لا كلام ولا سلام.. نط على طول ورمح، ما فيش حب ولا يحزنون. بس أنا من ساعتها مش عارف انام.

- طيب وزعلان ليه؟ حد طايل واحده ترمح بيه؟

- إنت مش واخد بالك. أهل البنت دول جرايبي، بيآمنوا لي. تصور إن النسوان هناك بيحبوا على إيدي لأني مبروك ومن أهل العلم. عشان كده حطوني مع البنت في أوضه واحده مش واخدين خوانه... أجوم أنا؟... لكن اللي مزعلني كمان هوه إن البنت تاني يوم الصبحيه ولا كإنها تعرفني.

- أمال عاوز إيه؟ يعني انت عاوز حب وغرام وصحبيه؟ البنت متجوزه. عاوزها تفضح نفسها ولَّا إيه؟

- لأ. أنا مجدر ظروفها، وما كانشي فيه أي فرصه إن احنا نتجابل تاني. بس كنت عاوز... يعني كنا جاعدين نفطر تاني يوم. جاعده تكلم كل الناس إلا انا. ولا كلمه واحده، ولا نظره... كأني مش موجود. كان يجب على الأجل تجول لي «مع السلامه» وانا ماشي. ولَّا انا يعني مجرد ...

- هو بالفعل انت مجرد ... ملعون أبوك.

* * *

ابتسم عندما شاهد الاستقبال الذي وجده في انتظاره على السكة الزراعية. الإوز يصفق بأجنحته والكلاب تنبح وتغريها الدراجة بالمطاردة. جيل جديد منها لا يعرفه. وعلى الفور ثار في خاطره سؤال لا يجرؤ على طرحه على أحد - «فين فريد؟» - لأنه يعرف الإجابة. وثمة جاموستان تستحمان في الترعة وعلى ظهر كل منهما طفل، أحدهما عار تماما يذكره بطفولته؛ فقد كان يحب الاستحمام مع الجاموس. ورأى من بعيد رجلا يقف تحت الجميزة العجوز التي تنشر غصونها فوق الساقية. كان نحيلا طويلا في معطف بالٍ كأنه خيال الظل. ولما اقترب منه عرف أنه خاله شبانة. ولم يصدق هذا الأخير عينيه الدامعتين عندما تعرف بعد لأي على قريبه: «يا إله السماوات! والله كبرت يا مدحت، ما عنتش عارفك. ما تآخذنيش أصل فيه دبور بيزن في دماغي». وفهم ما يعنيه شبانة؛ إما أن فص الأفيون لم يأتِ بعد، أو أن الثمن

ليس متاحا. ولكن وجه شبانة تهلل عندما أحس بالقروش تدس في يده. وعندما سأله عن أهم ما حدث خلال غيابه الذي استمر لأكثر من عشر سنوات، وضع شبانة سبابته متعامدة على فمه مما يعني أن الكلام ممنوع، وهو أمر مفهوم أيضًا. ولكنه نادى قريبه قبل أن يبتعد: «بجولّك إيه؟ الشيخ راضي اشترى راديو». وضحك: «أول مرة يشوف فيها ولاد جاسم راديو.. بدأوا يتمدنوا. لكن فوت عليّه في الجرن جبل المغرب وأنا احكي لك».

ورآه إسماعيل أخوه في الرضاع قادما على دراجته فهرول إلى داخل البيت ليخبر أمه. فلما جاءت ناعسة إلى الباب وتعرفت على «ابنها» زغردت. كانت أول زيارة له منذ فارق القرية: «إسماعيل عمال يشلضم ويبلضم ولا آني فاهمه حاجه. يا واد إيه الحكايه؟ ما فيش فايده. أتاريك جاي تزورنا. يا ألف أهلا وسهلا. يا خويا غبت علينا جوي». واحتضنته وهي تبكي: «جلنا أسبوعين تلاته وترجع، تجوم تغيب عشر سنين. مش عيب يا مدحت؟ وجاعد في أبو كبير ولا عاوز تجينا. من يومك جلبك جاسي يا مدحت». أما إسماعيل، فانزوى في ركن لا يدري ماذا يفعل بعد أن أدى مهمته. في الماضي كان لا يتهيب الاقتراب من «أخيه»، بل ومصارعته حبا له أو غضبا منه. أما الآن، فمن الواضح أنه لا يدري ماذا يفعل بإزاء هذا الغريب الذي يرتدي بدلة ويركب دراجة. ولم يتحرك من ركنه إلا عندما نهرته أمه عدة مرات وبعد أن ذهب إليه مدحت فصافحه وقبله. وهز إسماعيل رأسه وابتسم ابتسامة ماكرة ولكز مدحت في كتفه تأكيدا لأن المياه عادت إلى مجاريها وأن كل شيء على ما يرام. وقالت ناعسة: «إسماعين أصبح يعجبك جوي، أصبح راجل زي ما انت شايف طول وعرض، وبيروح الغيط».

لم تتغير معالم القرية سوى أن الصيرة صارت خرابا. وما أكثر الذين ماتوا من سكانها. نفيسة انتقلت إلى رحمة الله قبل أن يفارق القرية. لم تقم لها قائمة بعد انهيار زكي. رحلت تلك التي كانت رمزا لماضي القرية. ما زال يذكر وشمها الذي يمتد على شكل ثلاثة خطوط من تحت الشفة السفلى إلى الذقن، وشنفها الذهبي الذي يتدلى من أنفها. ومات الشيخ زكي – راعي الصيرة - بعد أن قضى آخر سنواته في ذل وهوان كما قالت ناعسة. الكبار يطردونه إذا غشي موائدهم، ويزفه الأطفال ويؤججون جنونه. ويهيم على وجهه، ويراه الناس مسرعا كأنه على موعد مرددا عبارته المشهورة، ويقولون في أسى: «ارحموا عزيز قوم ذل». وتحرك الناس في آخر الأمر وأخذوه إلى «السراية الصفرا» في العباسية. وهناك قضى بين المجانين سنتين عاد بعدهما مدمرا ليلفظ أنفاسه الأخيرة بين أهله.

ولم يعد هناك من يعظ الناس ويفتي لهم، فقد رحل الشيخ سيد. وقيل إنه كان يشكو في أواخر أيامه من إشعاع أطلقه عليه شيخ المنسر إبراهيم أبو زيد، فأصابه في مقتل. ولحقه بعد فترة قصيرة صديقه وغريمه الشيخ حامد الذي أصيب بالعمى الكامل في أواخر أيامه وصار مقعدا، ولكن من حسن الحظ أن الكتّاب ما زال قائما يتولى أمره شيخ شاب تخرج مؤخرا من المعهد الديني في الزقازيق.

وقالت ناعسة: «الشيخ راضي لسه شادد حيله والتجارة شغاله عال العال». ولما سألها مدحت عن سلامة وزكية أخبرته أنهما أنجبا ولدين «زي الفل». «إدعيلي يا مدحت أعيش واشوف ولادك». وعندما دعاه سلامة إلى العشاء، جاءت زكية (كم

سمنت وترهلت!) بالأطباق إلى الطبلية التي التف حولها الجميع بما فيهم الولدان. وكان الضيف يدفع بأول ملعقة في سلطانية الشوربة عندما فاجأه سلامة بالسؤال: «شفت إيه يا أستاذ في غيط الدره؟». ونهرته زوجته، ولكنها عادت لتقول: «المفروض تشكره؛ لولاه ما كنتش خدتني».

أما المبيت، فكان في بيت ناعسة. خصصت له غرفة الفرن بينما افترشت هي وابنها الأرض في الصالة المواجهة للزريبة حيث توجد البقرة والعنزة وبعض الدواجن. والمبيت في بيت ناعسة يعني النوم المتقطع. هناك الفئران تسرح وتمرح وتثير ضوضاء رهيبة بين الجري والقرض والقزقزة. وهو ملفوف لفا محكما لكيلا تنفذ إليه، ولكنها تستطيع اختراق حواجزه. فهناك رأسه المكشوفة. ولعلها تجد ثغرة ما بالقرب من القدمين. وهناك حيوانات أخرى – جيوش جرارة من البراغيث – لا يحول دونها حائل.. تتوغل في ثيابه وتهاجم كل موضع في جسمه. وهو يتعجب: لماذا لم تكن البراغيث تهاجمه في طفولته؟ أم أنه لم يكن يعبأ بها؟ أم أنه نسي؟ ما الذي تغير؟ هل أصبحت البراغيث تجد فيه دماء جديدة غير مألوفة؟ أم أن حياته المنعمة في الإسماعيلية قللت من قدرته على التحمل؟ لا بد أن الفئران كانت موجودة، فكيف لا يذكر أنها أزعجته في يوم من الأيام؟ هل كان مرحها الليلي جزءا من الأصوات الطبيعية مثل نقيق الضفادع الذي لا يكف ولكنه لا يكاد يثير أي انتباه؟ ولو أنه روى لناعسة ما جرى له في جامع أبو كبير لضحكت: «والله بجيت بندراوي يا مدحت».

وتوفي عمه سعيد، ولكن هنية ما زالت قوية نشطة. كم أحب حضنها اللين الوثير وهي تستقبله؛ كم أحب ثدييها الضخمين. وهي كعادتها لا تكف عن الضحك. بنتاها تزوجتا وتسكنان غير بعيد منها. وأبناؤها صاروا رجالا وتزوج اثنان منهم وأنجبا في بيت العائلة، وصار لها أحفاد منهما «ما فيش أحلى من اللمه» كما تردد. وهو عندما يتفكر في الأمر يرى أن الأطفال في هذه البيئة ليسوا مصدر قلق لأهلهم، فلن يخطر على بال أحد أن يرسلهم إلى المدارس. الكتّاب هو أقصى ما يمكن الوصول إليه في مجال التعليم، والغيط هو مجال العمل عندما يكبرون.. «العيال بيطلعوا شيطاني» كما يقول شبانة.

وأرادت هنية أن تكرمه فطبخت له كفتة الذرة، فلم يقبل عليها ولم يصب منها إلا القليل على سبيل المجاملة. ولكنها قدمت أيضا شيئا لم يعرفه لأول وهلة، فقد أتته بسلطانية فيها سائل أبيض يشبه الحليب، وقالت: «حظك حلو يا مدحت. جاموستنا ولدت. إياك السرسوب يعجبك». السرسوب! ذلك ما ذكره الشيخ الشرنوبي في كتابه عن هز القحوف. ولقي السرسوب استحسانه، فأفرغ السلطانية.

وعندما عاد إلى قرية القواسمة ليقضي الليل مرة أخرى في بيت ناعسة، ذهب إلى الجامع ولاحظ تحسن أحواله. كان قد رمم وجدد في أواخر أيام الشيخ زكي. ولكن ما زال هناك البئر والشادوف والمغطس. وألقى نظرة على النعش.. ما زال قطار الآخرة قائما على قوائمه العتيقة.

دارت عجلة الأيام إذن وولى عهد كفتة الذرة. ولكن يعلم الله أنه أحب السرسوب. يقول الشيخ الشرنوبي في التعريف به: «... هو اللبن يوضع فيه شيء يسير من اللبن الذي ينزل عقب ولادة البهيمة ويسمونه مسمارا ... ويضعون عليه شيئا من الملح لإصلاحه ومكثه لحاجتهم فإذا أرادوا السرسوب يضعون اللبن في الدست ويصبون عليه هذا اللبن الذي يسمونه المسمار ويفورونه على النار فيقال له المفورة، ويقال له سرسوب ..». ولاحظ بسرور تكاثر البوص على الضفة الأخرى للترعة - ما زال باستطاعة أطفال القرية العبور إلى تلك الضفة لغزو بلاد الصعايدة - والسيسبان والسنط على هذا الجانب من الترعة. ومر على خاله شبانة ووجده في حالة ممتازة من «الزهزهة». وألح عليه الرجل أن يجلس ويسترجع معه «أيام زمان»، ويحدثه عن ماريكا وسالم أبو حسين ولكن مدحت لم يمكث طويلًا، ولم يسهب في الحديث. كان يتعجل العودة إلى أبو كبير. وهو لا يشعر برغبة في استرجاع ما فات. هناك حزن أخذ يتسلل إلى نفسه، ولا يدري له سببًا سوى شعوره أن زيارته هذه لمسقط رأسه ستكون آخر زيارة.

ووجد الرفاق ينتظرون عودته بفارغ الصبر. ولم يخيب أملهم عندما ترجل عن دراجته، فأخبرهم أن هناك حمارًا يحمل ما لذ وطاب من الطعام في طريقه إلى الوصول. واجتمعوا على عشاء فاخر أرسلته هنية: حلة محشي كرنب عليه دجاجتان وزوجان من الحمام. ودعوا لهنية بطول العمر. وبدت اللهفة على وجوه الجميع إلا هاشم، يحاول التربع على الأرض فتؤلمه ساقه. كان يتأوه: «والله ما نمت طول الليل». فنهره بيومي: «هو ده وجته يا بن سكينه؟ كل وانت ساكت». وقال له عماد: «بطل لعب الكوره

وخلّيك في المذاكره». وقال مدحت: «البنات همه اللي شاغلينه عن المذاكره مش الكوره». ثم حل الصمت عندما رفع غطاء الحلة عن الطعام وانصرف الجميع كعادتهم إلى الهجوم. ولم يكد هاشم ينتهي من آخر لقمة حتى قال: «رجلي واجعاني يا ولاد الكلب». وغير بيومي الحديث: «جول لينا أخبار أمل إيه». وكان كل شيء حسبما قال هاشم على ما يرام مع «القائمقام». فهو يلتقي بها كلما وجدت عذرًا وجيهًا للخروج في المساء مثل المذاكرة مع زميلة أو زيارة أختها المتزوجة؛ وهما يتعاهدان في كل مرة على الوفاء والإخلاص. وقال: «أختها الله يخليها ويطول عمرها بتوالس عليها». وسأله عماد: «والحب لسه طاهر ولَّا إيه؟ ما انت في الأول بتجول كده لكل واحده». فأجاب هاشم: «لأ المره دي جد. أقسم بالله العظيم إني مؤدب جدا معاها». فرد عليه مدحت باستنكار: «مؤدب؟! يا خيبتك. بكرا هتكرهك. هتجول لنفسها: «إيه الواد الفاشل ده؟ لا بيطلب بوسه ولا بيمد إيده كده ولَّا كده».

* * *

قال بيومي لمدحت وهما يستظلان بإحدى مركبات قطار الدلتا: «فيه حاجه ما جولتهاش لك عن موضوع الزجازيج». فسأله مدحت بدهشة: «إيه موضوع الزجازيج ده؟». قال بيومي: «حكاية الليله المهببه لما مديت رجلي في الضلمه..»، وتذكر ما رواه بيومي وأعرب عن استنكاره لأن القصة ما زالت «معششة» في رأس صديقه، وقال بيومي: «أنا بصراحه ضميري بيأنبني، وأستحج ضرب الجزمه. يعني الناس استضافوني وأكرموني، أجوم أنا أخون حرمة البيت وأعتدي

على بنتهم؟ ما هيه البنت دي بنتهم». وحاول صديقه أن يخفف عنه: «يعني ما هيه البنت غلطانه برضه. تتحمل نص المسؤوليه أو تلات ترباعها. إنت مديت رجلك ما كانشي جصدك حاجه ونيتك سليمه، تجوم هيه تمسكها؟ وبعدين اصحاب البيت غلطانين برضه. كإنهم ما سمعوش بالحديث الشريف: «ما اختلى رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما». فما بالك باختلاء شاب وشابه في الضلمه. إزاي ينيموا بنتهم في نفس الأوضه مع شاب زيك؟ إنت بتجوللي انها لسه عروسه. وشاب في سنك ... دي مصيبه. كأنهم حطوا البنزين جنب النار». وقال بيومي: «ما همه معذورين. البيت كان زحمه، وما يعرفوش إن انا مجرم وابن كلب». وقال الصديق ليطيب خاطره: «أهي غلطه وعدّت. رأيي إنك تستغفر ربنا وتنسى الموضوع». وهمهم بيومي: «مش جادر أنسى».

رفاقه يتحدثون بصراحة عن رغباتهم ومغامراتهم. أما هو فيخفي أسراره. لم يطلع أحدا منهم على أنه «يناغش» البنات في تردد وعلى استحياء في حواري أبو كبير. وماذا عساه أن يقول؟ ليس هناك ما يفخر به. لم يحالفه التوفيق في أي حالة، فكل شيء يجري من طرف واحد. ولم يخبر أحدا بمشكلة أو مشكلات أخرى تشغله منذ استمع إلى حديث الأستاذ عبد الرازق عن المدعو ديكارت. مشكلة تتعلق بالشيطان الذي يمكر به ويدفعه إلى أن يتشكك في كل شيء بما في ذلك الرياضيات ويتوهم أن الحياة بأكملها ليست سوى حلم. وتتعلق بفكرة الله الخير الذي لا يرضى لعبده أن يضل وينقذه من قبضة الشرير. هناك نزاع إذن بين الله وإبليس.. ولكن الله هو خالق الشيطان.. أهو مسؤول عن الشر؟ أعوذ بالله من هذه الفكرة.

كان الشيخ سيد يعتقد أن إبليس يتحرش به في الجامع. وهو كلام فارغ وأوهام لم يصدقها أحد في القرية. ولكن القرآن يعترف بوجود إبليس كما يعترف بوجود الجن الطيبين منهم والأشرار. فمتى يكون حضور الشيطان حقيقة ومتى يكون وهما؟ لا بد أنه تدخل بين بيومي والعروس. وما هو الفارق بين الحالتين؟ كما يشغله موضوع الرياضيات.. لا يمكنه أن يقبل التشكيك فيها بعد أن أصبحت أجمل العلوم في نظره وأحبها إليه. في الماضي كان يجد صعوبة شديدة في فهم الجبر، ولا يستطيع إحراز أي درجة معتبرة فيه. إلى أن التقى بالأستاذ شاكر مدرس الرياضيات في غرفة الرسم. أصبح الرجل الصعيدي الأسمر صديقا لأن كليهما يمارس هواية الرسم: الأستاذ يرسم بالزيت والطالب يرسم بالجواش ويتبادلان الآراء والتعليقات. وتجرأ الطالب ذات يوم فقال للأستاذ: «أنا بصراحه مش فاهم إيه حكاية سين وصاد وعين دي وازاي تجمعها وتطرحها وتضربها وتقسمها». وبدأ الأستاذ يشرح مدعما شرحه بأمثلة على السبورة. وكانت من ثم دروس إضافية سريعة في غرفة الرسم إلى أن انفكت العقد في ذهن الطالب. وعندئذ هام بالجبر حبا.

كلا لم يطلع رفاقه على أفكار أخرى تراوده وفي بعض الأحيان تطرد النوم عن عينه، أفكار تبتعد بنفسه عن البنات والحب وعن أصدقائه – ربما باستثناء بيومي. هي على أي حال أفكار غامضة لا يستطيع التعبير عنها. حدث ذات يوم في حصة الجغرافيا أن لفت الأنظار إلى نفسه وأصابه حرج شديد. مدرس الجغرافيا الأستاذ فاضل رجل ضخم له كرش يتقدمه وله صوت جهور. لا يدخل الفصل إلا ومعه الكرة الأرضية ومجموعة من الخرائط. وفي ذلك اليوم لم يدر الشرح حول التفاصيل المملة عن العواصم

وتعداد السكان والمحاصيل وأنواع الطقس وما إلى ذلك. فقد أدار الأستاذ ظهره لكل تلك المعلومات التي تتطلب الحفظ، وبدأ يتحدث عن العلاقات التي تربط كل شيء: التيارات الهوائية والمائية وما يحدث في باطن الأرض والزلازل والبراكين. ونشر أمام الطلاب خريطة العالم وأخذ يحرك المؤشر هنا وهناك. وبدأت تتشكل بالتدريج صورة كلية للعالم تشمل كل شيء وتفسر كل شيء. صورة بهرته وحركت في نفسه رغبة في أن يسميها، ولكنه لم يستطع، فاكتفى بأن صاح: «الله. الله». والتفتت كل الأنظار إليه، وتوقف الأستاذ فاضل لينظر إليه شذرا (كان يكره أن يقاطعه أحد) وقال: «جرا إيه يا بني؟ هتسكت ولّا أطردك؟». وأجاب الطالب: «ما تآخذنيش يا بيه. النهارده بس اكتشفت إن الجغرافيا جميله». فابتسم العملاق وقال: «عندك حق». يومها شعر بأن العلم الحقيقي ليس هو تلك التفاصيل التي لا تعرف إلا بالحفظ، بل هو ... ما هو؟ صورة؟ فكرة واحدة؟ معادلة؟

فماذا عساه يقول لرفاقه؟ كيف يشرح لهم ما ينتابه من شد وجذب بين فوران دمائه (يشعر بها في صدره وساعديه)، ورغباته التي تدفعه إلى الجنس الآخر، وبين نزوع نفسه إلى معان وآفاق تبتعد به عن بدنه ولا يعرف كيف يسميها؟ إنه لا يعرف الحب طاهرا. ولكن ألا ينبغي للحب أن يسمو عن مستوى الغريزة؟ وكيف يكون ذلك؟ لم يخبر أصدقاءه بأنه عرف رغبات الجسد وهو طفل، عرفها عندما كان ينتظر إبتسام، وعرفها أيضا عندما كان يلمس ماري فرانسواز على البلاج (أمها كانت محقة عندما نهتها عن اللعب معه)، أو يرى المجندات الإنجليزيات في البدل الكاكي، أو ينتظر تلك الفتاة البسامة، بائعة العطور. كأنما جعلت منه أسيرا لها لأنها ما زالت تراود أحلامه حتى اليوم. أحيانا تسعى إليك

الفتنة وتأسرك كما حدث لبيومي المسكين. أم أنه محظوظ ولكنه مغفل لا يقدر النعمة التي هبطت عليه أو شدته إليها في الظلام؟ لا يشعر بالذنب. ولكنه لا يفهم نفسه ولا يعرف كيف يتصرف فيها. ماذا عساه يقول لأصدقائه؟ ماذا عساه يقول لأي إنسان؟ هل يمكنه أن يبوح لأحد بأنه ما زال يبلل فراشه في هذه السن؟ هل يستطيع أحد أن يفهمه دون أن يوبخه أو يسخر منه؟

* * *

بعد كشف الأشعة أخبر الطبيب هاشم أن سبب الآلام المبرحة في ساقه هو أن جرحه لم يطهر ويلتئم كما ينبغي فتسوس جزء من قصبة الرجل، وأن العلاج يقتضي فتح اللحم واقتطاع جزء من العظم (دائرة في حجم البريزة كما قال)، ووضع الساق في الجبس لمدة شهر. وتساءل هاشم عما إذا كان باستطاعته مواصلة لعب الكرة بعد ذلك، فكان جواب الطبيب أن عليه التوقف عن اللعب لمدة ستة أشهر على الأقل بعد فك الجبس. وكان هاشم محزونا عندما جاء إلى رفاقه بهذه الأنباء، فقال له الجميع بطريقة أو بأخرى: «ولا يهمك.. ملعون أبو الكوره». وقال له عماد: «رب ضارة نافعة. ست اشهر أجازه من الكوره والتفرغ للدراسه ده شيء عظيم جدا ونعمه من السما».

وبعد العملية أصبح الرفاق يجتمعون أكثر ما يجتمعون في العيادة حول سرير هاشم وساقه المجبسة، وهناك يلتقون بأبيه وإخوته كلما أتوا لزيارته. وكان الرجل سعيدا لأن لابنه مثل هؤلاء الأصدقاء – «شباب زي الورد» كما كان يردد. وقال ذات مرة: «أنا والله ما كان في نيتي علام ولا يحزنون. إحنا ناس فلاحين

مالناش شغله ولا مشغله إلا المنجل والفاس والمحرات. آدي انتوا شايفين اخواته. الولد من دول سنه ولَّا اتنين في الكتّاب، وبعدها يطلع ع الغيط. هاشم هوه الوحيد اللي مسك في المدرسه، ربنا يبارك فيه. وعاوز يدرس طب. يا بني خش الكليه الحربيه ولَّا كلية البوليس. لا يمكن، لازم الطب. بس يا بني الطب عايز مجموع كويس وفلوس كتير. سبع سنين دراسه.. ده عمر. لكن ربنا يعمل اللي فيه الخير». والتفت إلى هاشم: «بس اطمن يا سي هاشم وربنا يجدرنا على ما فيه الخير، بس فك الجبس وسيبك م الكوره بجه.. دي لعبه خطر».

وفك الجبس وتبين أن الجرح لم يلتئم، وما زال متقيحا. ونصح الطبيب بإرسال المريض إلى مستشفى في الزقاريق. وهناك اكتشف أن التسوس انتشر في الساق، واشتبه الأطباء في وجود سرطان، واقترحوا من ثم حلين: إما نقل المريض إلى مستشفى في القاهرة لإجراء التحاليل اللازمة والتأكد من طبيعة المرض – وهو ما سيستغرق بعض الوقت – أو اتخاذ إجراء فوري قبل فوات الأوان، وهو بتر الساق من أعلاها استباقا لامتداد المرض. ووقع الاختيار على الحل الأخير. وليس من المعروف من الذي اختار هذا الحل أو ما إذا كان هاشم قد استشير. ولكن نما إلى علم رفاقه أنه بعد أن أفاق ورأى ما جرى له ثار ثورة عارمة وبكى طويلا.

إلا أنهم عندما زاروه بعد عودته من الزقازيق وجدوه منتعشا في صحة جيدة (كان متورد الخدين) وروح معنوية عالية. يبدو أنه أصبح يتقبل وضعه الجديد ويتهيأ للتكيف مع ما حدث. وأصبح الآن يتطلع إلى الدراسة الجامعية في القاهرة - قال: «شوفوا يا

صحابي. عاهدوني إن احنا لما نروح مصر هنسكن سوا في شجة واحده وهنكون إخوات إلى الأبد» – وإلى استئناف قصة الحب في القاهرة. فأمل ستذهب بدورها إلى الجامعة وستسكن مع إخوة لها في حي الروضة.

وتوقف مدحت عن فتح النافذة في الصباح؛ فهو لم يعد يريد رؤية صاحبة البيريه الأخضر. هي الآن صاحبة صديقه وستكون خطيبته في المستقبل القريب. وقد يراها في القاهرة، ولكنها ينبغي أن تكون عندئذ بمثابة أخته. وعليه منذ الآن أن يتعلم كيف يعاملها ويفكر فيها على هذا النحو. فهل يستطيع ذلك؟ عليه أن يحاول.

إلا أنه سمع نقرًا خفيفًا على النافذة، فلما فتحها وجد أمامه وجه امرأة عليه برقع؛ فلم يكن يرى إلا عينيها. من عساها تكون هذه المرأة؟ وتسارعت دقات قلبه عندما نطقت باسمه. قالت: «أني جاصداك في خدمه يا مدحت. ممكن أدخل؟». هي تعرفه إذن. فهرول إلى الباب مضطربًا. فلما رفعت البرقع عن وجهها، رأى أمل تقف في مواجهته.

ولم تطل النظر في الغرفة المتواضعة وما فيها من فوضى، وقالت: «فين هاشم؟ ما شوفتوش من مده وجلجانه عليه جوي». وبهت. هذا هو الحب. ها هي بنت من بنات أبو كبير تمتلك الجرأة لتبحث عن حبيبها وتُعلم الناس بذلك. ولاحظت جموده، فتوسلت إليه: «عاوزه أشوفه الله يخليك». ورأى عينين واسعتين تطلان عليه من موضع عميق تحت الحاجبين - قوسين واسعتين - وتلحان عليه أن يتحرك. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها وجهًا لوجه، ويدرك مدى جمالها وأنوثتها.

وسارا في صمت وارتقيا السلم المؤدي إلى العيادة. وأشار إلى الغرفة التي يقيم فيها صديقه، فاندفعت نحوها. وعندما نزل إلى الشارع داهمه الحزن كأنما كان ينتظره عند باب العمارة. أمل لم تلتفت إليه، لم توجه إليه كلمة، نسيت وجوده تمامًا ما إن عرفت أين يوجد حبيبها. تحركت الغيرة في قلبه عندما فاجأته بزيارتها؛ وها هي نار الغيرة تشتعل وتحتدم بعد أن أهملته، فلم يكن إلا دليلًا يرشدها إلى من تحب وتسقطه من حسابها عند الوصول. ها هي أمل تأمره بعنف أن يبادر بأداء دور الأخ - الآن ودون إرجاء الأمر للمستقبل، وهو أمر يصعب عليه عمله. ما زال يحبها، وإن كانت زيارتها تؤكد له على نحو واضح وضوح الشمس أنها ليست له. عليه الآن أن يطيع أمرها؛ أن يتوارى. ولكنه يشعر برغبة جارفة في البكاء. لماذا طرده سالم؟ لماذا لم يترفق به؟ وهل يمكن في يوم من الأيام أن تنقر فتاة على بابه فيفتحه فتخبره أنها إنما جاءت لزيارته؟

وهتف هاشم ما إن دخل عليه رفاقه: «تصوروا إن أمل زارتني امبارح». وأمر «أولاد الكلب» أن يبحث كل منهم عن مكان يجلس فيه كي يستمعوا إلى القصة: «كانت لابسه توب ملَس، وجالت: ولا يهمك يا هاشم، ومسكت إيدي ..». وتوقف ليمسح دموعه: «مسكت إيدي وجالت: «ولا يهمك يا هاشم. أنا بعاهدك أمام الله إن احنا حنكون مخطوبين لبعض أول ما تاخد التوجيهيه» إيه رأيكم؟». قال عماد: «الرأي هو إنك تموت نفسك في المذاكره». وقال مدحت: «أمل هيه جايزة نجاحك. شد حيلك». وقال هاشم: «دي هديه م السما. آه لو شفتوها امبارح في التوب الملس..». وقال بيومي: «حضرة القائمقام لابس توب ملس؟ يا سلام! أما ده منظر!». وقال هاشم: «يمين الله ما عرفتها

لما دخلت. جلت مين اللي داخله دي؟ لكن لما رفعت البرجع، أيوه كانت لابسه برجع؛ أما بنت! جلبي انخلع... أتاري لبس المدرسه جاني عليها. عاملها عيله صغيره، لكن لما دخلت عليه شفت واحده طول وعرض؛ الله أكبر! ولما مدت إيدها تمسك إيدي انكشف كم التوب وشفت بياض دراعها.. آه لو شفتوا بياض دراعها..». وتوقف ليقول: «وعرفت مكاني ازاي؟ أما دي حكايه غريبه». ثم تنهد: «أجول إيه بس؟ أنا من ساعتها كأني عايش في حلم. يكفي إنها جت ومسكت إيدي.. بالله عليكم فيه حد في الدنيا دي أسعد مني؟ ما عادشي شيء هاممني. والله حتى لو جطعوا رجليه الاتنين ما يهمني، ما دام معايا أمل. أنا رايح مصر رايح، وهيه رايحه مصر. حتدخل كلية التجاره وتسكن مع إخواتها، وهنشوف بعض.. فيه أحسن من كده؟ أقسم بالله العظيم إني رايح حتى لو جطعوا رجليه الاتنين..». وتوقف فجأة ليقول: «بس حكاية الرجل الصناعيه دي غايظاني.. يعني مش حرام بنت حلوه زي أمل تاخد واحد برجل صناعيه؟»، وأجهش بالبكاء.

لم يبق هاشم على قيد الحياة طويلا بعد تلك الزيارة. كان رفاقه يترددون على العيادة ويبقى واحد منهم لمساعدته على المذاكرة استعدادا لامتحان التوجيهية. ولكن التدهور بدأ بسرعة: السرطان كما تبين تخطى كل الحواجز وتغلغل في الجسم على نحو لا يمكن للطب صده. وقال بيومي الشاعر في تأبينه: «كان هاشم قويا سريع الغضب ولكنه كان يسارع إلى الاعتذار إذا أساء. لا يحمل لأحد كراهية ولا يحب أن يؤذي أحدا، وكان وفيا لأصدقائه حنونا عليهم. وكان عفيفا مخلصا في حبه لأمل، ولم يكن ازدهاره الأخير إلا خدعة من خدع الموت ساعة الشفق. الشمس ترسل أبهى أشعتها وهي تغرب».

* * *

توقفت أمل عن الظهور أمام النافذة، ثم جاء عماد بالخبر نقلا عن أخته: انقطعت الفتاة عن الدراسة حزنا على هاشم. وحان موعد الذهاب إلى الإسماعيلية لقضاء عطلة الصيف مع ماريكا والعم سالم في انتظار نتائج امتحان التوجيهية. وقرر أن يودع الحاج صالح قبل الرحيل، وأن يشرب معه الشاي. لم يكف الرجل عن الإلحاح عليه أن يتناول الشاي معه: «يا أستاذ مدحت بلاش تشتري. بس تعالى سلم علينا واشرب معانا شاي». وانتابه شعور أشبه بالحزن وهو يرشف الشاي بالنعناع في مواجهة دكان الفسخاني. المفروض أن يحتفل بالرحيل عن أبو كبير، ذلك المنفى الذي اختاره له سالم. وها هو قد نجا. ولكن لماذا يشعر الآن بصعوبة الافتراق عن منفاه؟ الحاج صالح هو إحدى النقاط المضيئة في أبو كبير. رجل قنوع راضٍ عن حظه من الحياة، قد يقضي يوما أو أياما دون أن يدخل دكانه أحد؛ ويتهلل عندما يرى الطالب الذي ينفق بعض قروشه في شراء كتاب بين حين وآخر. أصبحا صديقين. وعليه الآن أن يودع الرجل الطيب - إلى الأبد. يعلم منذ الآن أنه سيستبقي من أبو كبير صورا لن تفارق مخيلته أينما استقر: البورصة، والسرجة، ومحطة القطارات، ومكتب التلغراف، وقطار الدلتا. ولكنه يعلم أيضًا أنه سيخرج منها - دون عودة - كما خرج من قريته. ألم تأمره أمل أن ينسحب، أن يتوارى. ألم تخفِ عن هاشم أن صديقه هو الذي هداها إلى مكانه؟

وفي العشاء الأخير افترش الأصدقاء الأرض كالمعتاد. وأقبلوا على الطعام في صمت: كان يخيم عليهم شعور ثقيل بغياب

رابعهم. وظلوا صامتين حتى صرح بيومي بما يخامر أذهانهم: «خساره إن هاشم مش حيروح معانا مصر. أما دي مصيبه!». وارتفعت الأيدي عن الطعام عندما قال عماد فجأة إنه قد لا ينضم إليهم في القاهرة، واستنكر صديقاه قوله فهتفا بصوت واحد: «ليه يا عماد؟». فقال: «أنا لبخت في الامتحان، وتسعين في الميه هسجط». وقال بيومي: «وإيه يعني؟ عيد السنه». ولكن عماد قال بلهجة اليائس: «أنا تعبت». كان أكبرهم سنا وأكثرهم اجتهادا في الدراسة وإن لم يحل ذلك دون تعثره مرارا. ولا يدري أحد لماذا اختار الطريق الصعب وقرر الالتحاق بشعبة العلوم حيث أعيته الرياضيات (وبخاصة حساب التفاضل والتكامل) والطبيعة.

وها هو يتخذ مكانه في القطار مختلط المشاعر في طريقه إلى الإسماعيلية. كان سعيدا لأنه سيرى ماريكا وسلوى، ولكن هل سيحسن عمه سالم استقباله بعد غيابه الطويل؟ لقد اختفى عن أنظاره سنتين ونصف تقريبا. وكانت ماريكا تلح عليه في رسائلها أن يعود إلى الإسماعيلية لقضاء العطلة الصيفية فيها، ولكنه كان يصر على البقاء في أبو كبير مفضلا الفراغ ومعاناة حر الصيف (بلا جناين ولا بلاج ولا سائر المزايا المتاحة في المدينة المتحضرة) على أن يكون بالقرب من سالم. فهل آن أوان الصلح؟

وظهر بيومي على الرصيف فجأة وكان يلهث. فقال له:

- أنا مش جلتلك ما تجيش؟

فقال بيومي وهو يضحك:

- صاحبك بيودعك. إنت خسران حاجه؟ صحيح إن احنا هنتجابل في مصر، بس الله الوكيل أنا خايف.

- خايف من مصر ليه؟

- أنا مش خايف من مصر. ما انا حكيت لك على موضوع الزجازيج.

- يوه! هو احنا مش هنخلص م السيره دي؟ يعني هوه انت أول واحد ولّا آخر واحد نط على واحده؟ فضك م السيره دي.

- يا أخي إنت مش فاهم. أنا زعلان جوي لأن البنت دي ما عبرتنيش تاني يوم.

- طيب وإيه يعني؟

- برضه ما انتش فاهم. دي بالليل كإنها سجتني كاس شهد. تجوم تاني يوم ولا كإنها تعرفني؟

- أنا رأيي تنسى الموضوع ده، مصر هتنسيك كل حاجه.

- أجول لك إيه بس يا مدحت؟ أنا من شدة الزعل مش بنام. أنا خايف.

وتحرك القطار.

* * *

هناك كتاب اشتراه من الحاج صالح عنوانه «مقدمة ابن خلدون»، وهذا هو الكتاب الذي حدد مصيره الجامعي. كان يريد الالتحاق بقسم التاريخ، غير أنه فهم من الصفحات الأولى التي لم يتجاوزها أن التاريخ يستند إلى علم آخر هو العمران. وسأل الأستاذ عبد الرازق مدرس الفلسفة عما هو علم العمران، فأخبره أنه علم الاجتماع، ومن ثم كان التحاقه بقسم الاجتماع في كلية الآداب. أما بيومي، فقد التحق – على مضض - بقسم الفلسفة في نفس الكلية. جاء من أبو كبير وهو يحلم بدراسة الأدب الفرنسي. فلما وصل إلى الجامعة في القاهرة، تبين له أن دخول قسم اللغة الفرنسية غير متاح له لأنه لم يتخرج من ثانوية فرنسية مثل الليسيه. ولما سأل عن الأقسام التي يمكنه فيها دراسة اللغة الفرنسية ولو كمادة ثانوية، أشير عليه بدخول قسم الفلسفة، فالتحق بهذا القسم حبا في اللغة الفرنسية. وكان الصديقان يلتقيان بصفة يومية تقريبا: إما في المحاضرات «العامة» التي كانت تشمل طلاب السنة الأولى في أقسام العلوم الإنسانية - الاجتماع والفلسفة وعلم النفس - أو في «بوفيه» الكلية، أو في المساء. وفي المساء كان الصديقان يزوران مرة في الأسبوع زميلا لبيومي – سعيد - ويستمعان لديه ولأول مرة في حياتهما للموسيقى الكلاسيكية.

وفي الرحلة من العباسية (حيث كانا يسكنان) إلى السيدة عائشة (حيث يسكن سعيد) اكتشفا في نفس الوقت تقريبا كلا من القاهرة والموسيقى الكلاسيكية وعرفا الافتتان بهما معا. كانت المسيرة طويلة يشاهدان خلالها معالم باهرة شتى من تاريخ القاهرة الإسلامية والحديثة. ينطلقان من العباسية نحو باب الحديد، فالعتبة، فباب الخلق، فشارع محمد علي ببواكيه، فمسجدي

الرفاعي والسلطان حسن، فالسيدة عائشة حيث يسكن سعيد. هذا إذا سارا في خط مستقيم. ولكن يحدث أحيانا أن يحيدا عن هذا الخط في باب الخلق ليسيرا في شارع الخليج المصري الذي ينحرف بهما نحو الحسين، ومن ثم يدخلان يمينا إلى الغورية ليجدا معرضا ممتدا للحرف والصناعات التقليدية: الطرابيش فالعقادين فالسكرية فالقربية فالخيامية (الجزء المسقوف من الشارع)، فالمغربلين فالسروجية فشارع محمد علي؛ ومن ثم يتجهان نحو الجامعين العتيقين اللذين يقفان شامخين كأنهما عملاقان يحرسان المدخل المؤدي إلى السيدة عائشة. أحدهما لم يعرف من الدنيا إلا ههيا وأبو كبير والزقازيق، وثانيهما لم يعرف أوروبا إلا كما نقلت إلى جزء من الإسماعيلية، ولكنهما وجدا في القاهرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. وجدا التاريخ حاضرًا وحيًّا ينبض. ووجدا في انتظارهما عند سعيد تشايكوفسكي ورحمانينوف ورمسكي كورساكوف، أصواتا لا عهد لهما بها وإن كانت تنفذ إلى قلبيهما بسهولة كأنهما عرفاها منذ الطفولة. كان بيومي كلما سمع افتتاحية كونشرتو البيانو الثاني لرحمانينوف يهلل: «الله أكبر»، أو يسجد لله شكرا لأنه أكرمه بمعجزة من معجزاته فأتاح له هو الآتي من أعماق الريف أن «يفهم» موسيقى الروس.

ثلاثة مصادر للافتتان - حب القاهرة، وحب الموسيقى الكلاسيكية، وحب نجوى - أنست بيومي فيما يبدو ما حدث في الزقازيق - تلك الليلة الليلاء التي وقع فيها في حبائل إبليس - وما لحق به بسببها من إهانة.

نجوى هي التي خطت نحوه الخطوة الأولى. فالطلاب في قاعة المحاضرة بقسم الفلسفة ثلاثة أقسام تقريبا: محتلو الصفوف الأمامية من أبناء الذوات خريجي المدارس الفرنسية وعدد من الطلاب اللبنانيين (الناطقين بالفرنسية)، وقلة تحتل الصفوف الخلفية، وتتألف في رأي بيومي من بعض «قحوف» الريف مثله وطلاب كبار السن (بعضهم كان متزوجا وله أبناء) هجروا الأزهر وفضلوا الدراسة الجامعية، ولا يكفون عن إمطار الأساتذة بالأسئلة - عن جدارة أو ادعاء - وفيما بين المقدمة والمؤخرة يوجد خليط من أبناء القاهرة الذين ينتمون للطبقة المتوسطة وما دونها ولا يرغبون عادة في الظهور. أصحاب المقاعد الأمامية يناقشون الأستاذ الفرنسي بطلاقة في الرواية المقررة - «كارمن» لبروسبير مريميه - فيلوذ سائر الطلاب بالصمت. فإذا بدأت دروس الفلسفة برز أصحاب المقاعد الخلفية وسرقوا الأضواء. ولكن حدث في أواخر السنة الدراسية أن برز من بين المقاعد الخلفية الفتى الريفي الشاعر الذي أخذ يناقش الأستاذ بفرنسية سليمة وإن لم تخلُ من لهجة عربية واضحة. وتركزت عليه الأنظار عندما عقد مقارنة بين «كارمن» الغجرية و«كولومبا» الكورسيكية (التي صورها نفس المؤلف في رواية أخرى له)، ورأى أن مريميه مغرم بالشخصيات النسائية القوية (بحيث تطغى على شخصيات الرجال)، والبيئات البدائية الخشنة التي تشتد فيها الغيرة وطلب الثأر. وادعى أن كل ذلك يشير إلى المؤثرات العربية التي طغت ذات يوم على عالم البحر المتوسط. ولما سأله الأستاذ عما يدفعه إلى ذلك الاعتقاد، قال: «كارمن إسبانية، أليس كذلك؟ وفن النواح والتعديد في المآتم (تعداد مناقب الموتى) كما يوصف في «كولومبا» يذكر بما تفعله النساء عندنا في الأرياف في مثل تلك المناسبات». ولم يتوقف بيومي عند مريميه، بل

تطرق إلى شكسبير. فالشاعر الإنجليزي نفسه لم ينجُ من تلك المؤثرات في مسرحية «عطيل». وتساءل: أليس من اللافت للنظر أن الجندي دون جوزيه بطل كارمن يقتل حبيبته بدافع الحب والغيرة، وأن عطيل المحارب البربري القادم من شمال إفريقيا يقتل زوجته لنفس الأسباب؟ أليس من الواضح أن عطيل من سلالة طارق بن زياد؟

كان الفتى الريفي حتى ذلك اليوم معزولا حتى بين أصحاب المقاعد الخلفية إلا الأزهريين لأنه كان يسخر من عجزهم عن قول الشعر رغم أنهم درسوا العروض والقوافي، ولا يحسنون الإعراب رغم أنهم درسوا ألفية ابن مالك؛ وكانوا يستطيبون سخريته لأنهم هم أنفسهم يسخرون من الأزهر والأزهرية. ويبدو أن انتقال الفتى الريفي – بفرنسيته لا بجسمه – إلى المقدمة اجتذب نجوى بنت الذوات خريجة الليسيه، فذهبت إليه في مكانه البعيد، وصارت تسعى إليه - «فراشة رشيقة ترفرف في شمس الربيع» كما كان يقول. تسعى إليه لأنه كان شديد الحضور في دروس الفلسفة (يناقش الأساتذة ويمتدحون ما يكتبه في «أعمال السنة»). والأهم من ذلك أنه كان يسجل المحاضرات بالاختزال ثم يكتبها كلمة كلمة بخط أنيق كأنه مطبوع. وفي البداية كانت الكشاكيل التي يعيرها للفراشة هي همزة الوصل بينهما. ثم تطورت الأحاديث وامتدت عندما أخذت تطلعه على ما تكتبه من شعر منثور وتطلب رأيه فيه. وهو يهديها بعض قصائده – مقطوعات قصيرة من الغزل العفيف الذي يوحي ولا يصرح – فتمتدحها. وإذا لاحظت أن الغزل موجه إليها احمرت وجنتاها وقالت: «مرسيه».

أصبحت عروس شعره، وكانت فيما يبدو سعيدة بتغزله فيها. واقترح عليها وهما في السنة الثانية من الدراسة أن يلتقيا في «حديقة الشاي» داخل حديقة الحيوان غير بعيد من الجامعة، ليناقشا «ديوانها» ككل، ولبت الدعوة «بكل سرور». ووجدها فرصة مناسبة – فهناك الإوز الذي يسبح في البركة وأشجار السيسبان التي أرخت شعرها في الماء – لكي «يرفع العلاقة إلى مستوى أعلى» كما قال. فاقترح عليها أن يلتقيا في وسط المدينة، فلعلهما يشاهدان فيلما في حفلة الساعة الثالثة بعد الظهر. وكم كانت خيبة أمله عندما رفضت الفتاة دعوته «مع جزيل الشكر» لأن أهلها فيما قالت يتوقعون عودتها إلى البيت بعد انتهاء المحاضرات فورا. ولكنه حمد للفتاة «أدبها» وحرصها على استقامة السلوك، وقرر بينه وبين نفسه أن يقنع بالأحاديث البريئة في قاعة المحاضرات أو في «بوفيه» الكلية، ويترك للحب وقتا «لينمو على نار هادئة». إلا أن نجوى أصبحت بعد تلك الدعوة المرفوضة تتحاشاه. لم تعد تأتي إليه لتستعير منه الكشاكيل أو لتطلعه على قصائدها المنثورة. يراها مع زملائها فيحييها، فترد التحية بإيماءة سريعة أو لا ترد على الإطلاق، وأشاحت ذات يوم بوجهها عنه عندما حياها، ورأى رفيقاتها تضحكن. وشاهدها في آخر يوم من أيام الدراسة في سيارة مكشوفة يقودها طالب لبناني يحمل سلسلة ذهبية حول عنقه.

وضحك مدحت عندما نقل إليه صديقه الأخبار:

- طيب زعلان ليه؟ ما انت ما عندكشي عربيه ولا سلسله دهب.

وقال بيومي باستنكار:

- بس إزاي تخرج مع الولد المخنث ده؟

- ما تاخدشي الموضوع جد كده؟ دي بنت حليوه ودلوعه وشايفه نفسها.

- يعني إنت رأيك زي رأي شوجي لما بيجول:

خدعوها بقولهم حسناءُ والغواني يغرهن الثناءُ

- هوه كده. آدي انت جبت الفايدة يا بيومي. يمكن بتلعب عليه شويه زي ما لعبت عليك.

فتغيرت لهجته:

- بس هيه جلوب الناس لعبه ولَّا إيه؟

ثم بدأ يعتقد أن نجوى وزملاءها يتندرون عليه همسا كلما مر بهم. وأخذ يشكو من أن زملاءه الذين يشاركونه السكن على علم بما حدث ويسخرون منه، لا يكاد يدير ظهره حتى يسمع ضحكاتهم الشامتة؛ بل إنهم – فيما رأى في وقت لاحق - يكيدون له ويتآمرون عليه. غير أن شكواه كانت تمتزج أحيانا بالاستخفاف والتحدي: «دول زي ما انت شايف شوية عيال صغيرين، ولا يهمك». وأصبح يشير ضاحكا إلى نجوى باسم «الست كارمن». ولم يثر دهشة صديقه ذات يوم – وكانا في طريقهما إلى السيدة عائشة - عندما قال بلهجة ساخرة إن كارمن بنت الكلب خانته بعد أن أعطته نفسها. كانت إشارة عابرة، وخيل إلى صديقه أن بيومي قال ما قال على سبيل الفكاهة. ولكن نجوى أو كارمن صارت هي شغله الشاغل، وبخاصة في طريق العودة بعد منتصف الليل من السيدة عائشة إلى العباسية. يقول مثلا:

- مريميه كاتب ذكي بحج وحجيج.

- ليه يا بيومي؟

- إنت مش واخد بالك لما الأمباشى دون جوزيه شاف كارمن أول مره؟

- واخد بالي.

- ساعة ما الراجل الغلبان شاف البنت الغجريه، تعرف إنه انتهى، أصبح مصيره محتوم.

- يا راجل ما تبالغش. خليك معجول.

ويتوقف الحديث ليستأنف بعد شوط طويل من الرحلة:

- أما شكسبير ده! إنجليزي عبقري فاهم كل حاجه.

- إزاي؟

- يعني خد مثلا مسرحية عطيل. عطيل ده راجل بربري من المغرب، راجل ما يفهمشي حاجه إلا القتال والكر والفر. يجوموا يجوزوه بنت بيضه جميله من أشراف البندجيه. أهي جوازته دي كان معناها إنه راح في داهيه.

- ده راجل مجنون. حد يجتل مراته عشان منديل ضاع منها؟

فيصيح غاضبا:

- آدي انت مش فاهم. لو كان عطيل راجل أوروبي، كان يمكن ما هموش حتى لو تأكد ان مراته بتخونه. كان ممكن يبلع الإهانه. أو

يجول لنفسه: حلو! مش هيه بتخوني؟ أنا أخونها كمان. أما الراجل الغلبان اللي جاي من شمال إفريقيا – يعني عربي دمه فاير زيي وزيك أو زي طارق بن زياد والعدو أمامكم والبحر وراءكم – ما يستحملش. المنديل ده هوه الحب وهوه الشرف وهوه ظهور كارمن الغجرية في حياة العسكري المسكين.

ويستشهد بالبيت القائل:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتـــى يـراق على جوانبـــه الدم

- ما تكبرشي الموضوع يا بيومي. ديدمونة ما خانتشي عطيل عشان يكون فيه شرف ودم. ده راجل جننته الغيرة العميا.

ولكن بيومي لا يعير الاعتراض التفاتا. وقد يقول على مشارف العباسية:

- يعني أنا عمري ما جربت ناحية نجوى. هيه اللي جات لي. وهيه اللي بدأت الكلام والصحبيه...

وقد تتداعى المعاني فيقول:

- يعني البنت اللي كلمتك عنها بتاعة الزجازيج هيه اللي مسكت رجلي.

- يا بيومي جول الحجيجه. ما انت اللي لمستها بطراطيف صوابعك.

فيقول محتجا:

- والله العظيم أنا ما كان جصدي حاجه. ويعني لمستها بطراطيف صوابعي تجوم تكبش على رجلي؟ كان ممكن تستنى وتشوف إيه الحكايه. كان ممكن تعمل نايمه وتفوت الموضوع. هيه اللي بدأت. طيب ماشي. تجوم تاني يوم ولا كإني عرفتها ولا تعرفني؟ ولذلك أنا خايف...

- يا جدع خايف من إيه جننتني. من نار جهنم يعني؟

- لأ مش بس كده.

- أمال إيه؟

- لا تكون الحركه البسيطه دي اللي حصلت في الضلمه بالمصادفه هيه...

فيقاطعه صاحبه وهو يضحك:

- هيه منديل ديدمونة، وهيه ظهور كارمن في حياة دون جوزيه. رحنا في داهيه إذن.

واستيقظ بيومي ذات يوم – كان الوقت عصرا - في حالة من الهياج الشديد والعدوانية. وهاجم أحد مساكنيه وأشهر سكينا في

وجه آخر جاء ليفض الشجار. واجتمع عليه أربعتهم وضربوه حتى كلت أيديهم. ثم كان العلاج بالصدمات الكهربائية، وكان العلاج ناجعا أكثر مما ينبغي. انتهى الهياج وحل هدوء مطلق وخمود كامل، ولم يعد بيومي قادرا على التركيز أو الاستمرار في الدراسة، كأنما قرر عقله أن ينسحب وينطوي على نفسه. وعاد إلى ههيا ليموت بين أهله. أصابه نزيف في المخ فيما قيل.

كانوا أربعة في أبو كبير، وكانوا جميعا يحلمون بالذهاب إلى القاهرة معا. إلا أن هاشم رحل عن الدنيا قبل أن يرحل عن أبو كبير؛ وتخلف عماد فيها بعد أن قرر الانقطاع عن الدراسة يأسا من النجاح؛ ولم يطل بقاء بيومي في القاهرة قبل أن يعود إلى ههيا حيث وجد مثواه الأخير. وهكذا انفرطت حبات العقد وسقط معظم أفراد المجموعة على نحو أو آخر، ولم يبقَ من الحالمين الأربعة إلا واحد، وظل هذا الواحد يلوذ بتشايكوفسكي كأنه الخمر.

في سكون الليل المطلق تسبح سفينة فضائية لا يسمع لمحركاتها صوت. وفجأة يتدلى منها منظار له عينان مسددتان نحو هذا الكوكب الذي يدعى الأرض. تريد السفينة الفضائية أن تستطلع أحوال هذه الكائنات الأرضية التي تسمى بشرا. فماذا ترى؟ لا تكاد الصور الأولى ترد حتى تزمجر المحركات وتشتعل الأضواء الحمراء. ويصدر عن الحاسوب الرئيسي صوت مبحوح يقول: «أنا عاجز عن معالجة هذه البيانات». سفينة الفضاء هي أنت؛ وجسمها السابح في الفضاء هو جسمك؛ وعينا المنظار هما عيناك؛ وأنت كائن غير أرضي قادم من الفضاء الخارجي تريد أن تعاين حال الأرض. والسكون مطلق إلا من حفيف الريح على

جسمك المعدني. فماذا ترى؟ أرى رعشة في سماء الليل كأنها ضوء البرق الخاطف. وانظر إذن ما يحدث. هذه الأجسام العارية يهوي بعضها على البعض الآخر وتتفاخذ ثم تتلاحم. ماذا يحدث؟ وما هو الخبر؟ أنا لا أفهم من كل ذلك شيئا. الأجهزة ستتفجر إذا استمرت هذه التصرفات العجيبة. ليس لها عهد بهذا السلوك. لماذا يمتطي بعض هذه الكائنات البعض الآخر؟ ثم ما معنى هذه الأصوات التي يختلط فيها المواء بالنباح بالنهيق بالصهيل بالنعير بالفحيح بالهديل بالضحك الذي يشبه البكاء. أم هو بكاء يشبه الضحك؟ لا فارق عندي. وبعد هنيهة تبدو الصور - نفس الصور - مثيرة للاشمئزاز. ألم أقل لك إن سكان هذا الكوكب ليسوا إلا كلابا أو قردة خاسئين؟ ثم يشتد الهزيم والحمحمة. ولكن الضجة العارمة لا تخفي همس رجل يأتي من بعيد: «افتحي لي أكمام وردتك؛ فأنا النحلة العاشقة». وعندئذ تبزغ بوادر الفهم. انظر كيف يقع الخد على الخد وتلتمس الشفاه الشفاه وتلتف الساق على الساق ويأنس الجسد إلى الجسد. من هو المغفل الذي يأبى الانضمام إلى هذا الحفل؟ إذا كان هذا هو التبزّك فلتأخذوني معكم، ضموني إليكم، دسوني بينكم.

واستيقظ مدحت وهو يتصبب عرقا ويلهث. أيقظه صراخه أن «خذوني معكم... إلخ». وجاءته كريمة مهرولة:

- خير يا بابا، عاوز حاجه؟

- خير يا حبيبتي، كنت بحلم.

- أنا كنت في سابع نومه واتهيأ لي إنك بتصرخ.

- حلم سخيف. ارجعي نامي يا حبيبتي، أو هاتي لي كوباية مايه.

فلما ذهبت كريمة إلى غرفتها التي تجاور غرفة أبيها لم يغمض لها جفن إلى أن سمعت شخيره.

في صباح اليوم التالي - يوم الجمعة - اجتمعت الأسرة حول مائدة الإفطار: الفول والطعمية والجبن الأبيض والزيتون الأسود والطرشي، تماما كما كان يحدث في عهد «المرحومة». ورغم أن البنت الكبرى فتحية تزوجت وأصبحت تسكن مستقلة ببيتها، فما زالت تواظب على قضاء يوم الجمعة في شقة أبيها هي وعزت زوجها. وفي بعض الأحيان تبدأ الرحلة ليلة الجمعة ويبيت الزوجان في شقة الأب. إلا أن عزت زوج فتحية تخلف هذه المرة عن المجيء للمبيت لأنه سافر إلى قليوب على أن يحضر بعد صلاة الجمعة لتناول الغداء. وكانت فتحية وكريمة قد عقدتا العزم على إعداد غداء دسم - البط والحمام والمحشي وما إلى ذلك - فإذا عاد الأب وزوج ابنته من صلاة الجمعة وجدا المائدة عامرة.

وكانت الأيدي تهوي باللقم على طبق الفول عندما تنحنح مدحت وفجر القنبلة:

- أنا قررت السفر يا ولاد.

وتراجعت الأيدي عن الأفواه وتوقفت الأفواه عن المضغ، ثم قالت كريمة البنت الصغرى:

- على فين إن شاء الله؟

وهم مدحت بالكلام، ولكن فتحية قاطعته:

- إلى الحجاز بإذن الله. الظاهر إنك قررت أخيرا تحج.

فقال مدحت بحزم :

- لأ أنا رايح فيينا.

وهمت كريمة بالكلام فأسكتها بإشارة من يده:

- الموضوع منتهي. ما كانشي ممكن أفكر في السفر لفيينا وأمكم عايشه، لكني بعد انتقالها إلى رحمة الله تعبان ومكتئب وفي حاجه إلى تغيير الجو.

وتساءلت كريمة:

- تسافر وتتركنا وحدنا؟

قال مدحت بتأفف:

- أتركّم وحدكم؟ إيه معنى الكلام ده؟ هوه انتوا لسه صغيرين؟

وقال وهو يشير إلى ماريكا:

- وآهي طانط ماريكا معاكم، إيه المشكله؟

والتفت إلى ماريكا ليقول باليونانية:

- مش كده يا حبيبتي؟

وهزت ماريكا رأسها تأكيدا لكلامه.

قالت كريمة على مضض:

- زي ما تحب يا بابا. هتغيب كام يوم؟

فلما أخبرهم أنه سيتغيب لمدة شهر ظهرت الدموع في عيني البنت ولكنها ظلت تردد:

- زي ما تحب يا بابا.

ولم يسمح مدحت لتلك الدموع بأن تنال من عزيمته، وساد الصمت برهة حتى ظن أن الأمر قد انتهى عند ذلك الحد، ولكن كريمة عاودت الهجوم:

- ولكن ليه فيينا بالذات؟ ما تغير الجو في اسكندريه.

وأضافت فتحية:

- أو راس البر.

بل إن كريمة التي بدا وكأنها رضخت قالت:

- فكره هايله، وإيه رأيك يا بابا نيجي معاك كلنا؟

وأسقط في يد مدحت فلم يصد هذا الهجوم حتى واتته فكرة عبقرية. قال في خشوع بعد أن تنحنح:

- عارفين يا ولاد إن أنا وأمكم قضينا فتره في فيينا..

وتوقف لكي يدعو الله أن يسكن المرحومة فسيح جناته، ثم استأنف الكلام:

- كنت أيامها متعين جديد سكرتير تالت في السفاره، وكنا شباب. وكانت الأربع سنين اللي قضيناها في فيينا أجمل فتره في حياتنا. وأنا دلوقت عاوز أرجع للبلد اللي شفنا فيه أسعد أيامنا.. عاوز أشوف نفس الأماكن ونفس الشوارع...

وانفضّ الاجتماع وبقي مدحت وحده يهنئ نفسه على ما أبداه من ألمعية. فكرة تساوي مليون جنيه. إلى أن جاءه صوت فتحية وهي جالسة عند باب المطبخ تنتف ريش ذكر البط وتغني بنغمة ساخرة أغنية أسمهان:

«ليالي الأنس في فيينا..

دي فيينا روضه من الجنه».

واضح أنها لم تكن مقتنعة بسفر أبيها إلى عاصمة النمسا، ولكنه هو نفسه لم يكن يعرف على وجه التحديد سر اختياره لفيينا دون سائر العواصم الأوروبية وغير الأوروبية التي أقام فيها. ثم أعيد

فتح الموضوع على مائدة الغداء واحتدم الجدل واشترك فيه عزت زوج فتحية إلى أن حسمت ماريكا النقاش:

- إنتم لسه أطفال ولّا إيه؟ خلّوا أبوكم يستجم شويه وأنا هنا معاكم.

* * *

طال الصمت في غرفة المعيشة بعد أن انسحبت كريمة إلى غرفة نومها. ماريكا تجلس في الركن القريب من النافذة مطرقة برأسها معقودة الكفين. ما زالت تعصب رأسها بإيشارب أزرق ينحسر قليلا إلى الوراء ويكشف عن مقدمة رأسها - تماما كما كانت تفعل في الماضي، لولا أن شعرها أصبح الآن أشيب. ويبدو أنه لم يعد هناك ما يقال. أمر الذهاب إلى فيينا أصبح محسوما، وهو ينتظر الصباح بفارغ الصبر لكي يشتري تذكرة السفر. لقد قرر أن ينتهز الفرصة السانحة ويرحل في أقرب فرصة ممكنة. ماريكا التي تجاوزت السبعين ما زالت هي المرأة القوية التي عرفها في طفولته. لولاها لما فارق مسقط رأسه، ولعله كان سيعيش ويموت دون أن يرى القاهرة، ناهيك عن زيارة العواصم الأوروبية. يشعر أنه يدين لها بكل شيء، بما في ذلك احترافه للكتابة. بفضلها ذهب إلى المدرسة فالجامعة. وهي التي حببته وهو طفل في القراءة؛ وهي التي وضعت تركة سالم بين يديه ومكنته من التقاعد المبكر والتفرغ للعمل الوحيد الذي يحبه ويصلح له. وها هي تقف إلى جانبه مرة أخرى لتسهل له السفر إلى فيينا. تواطأت معه ووقفت إلى جانبه بحزم رغم أنها تعلم أنه يمارس النفاق

عندما يدعي أنه ذاهب إلى فيينا ليتذكر سنواته السعيدة مع «المرحومة».

إلا أنها خرجت عن صمتها فجأة لتقول باليونانية: «أنا في الحقيقة لست راضية عن هذه الرحلة». جاء صوتها من الركن الذي تجلس فيه فأصاب مدحت بالدهشة: «ولكنك أيدت سفري في الصباح.. ماذا حدث؟». قالت: «أيدتك أمام بنتيك وأخفيت اعتراضي مؤقتا... إلى أن أراك على انفراد». وسألها عن سبب اعتراضها، فقالت: «لأنني أخشى أن تضيع.. أخشى أن تذهب فلا تعود، أو أن تعود بكارثة». وضحك كأنه يعرف ما ترمي إليه. ومع ذلك فقد سألها عما تعنيه، فأجابت: «يجب أن تعلم أنني لم أشعر قط بالأمان بالنسبة لك؛ كنت أخاف دائما أن أفقدك». وضحك من جديد: «كيف تقولين ذلك يا ماريكا؟». قالت: «أنت في نهاية المطاف لست ابني. أخذتك من أهلك واقتلعتك من جذورك، وكنت أخشى دائما ألا تروق لك الحياة في الإسماعيلية في بيت امرأة يونانية، وتقرر العودة إلى قريتك. ثم إنني عانيت في تربيتك ما تعانيه الأم الطبيعية. كنت في طفولتك تصاب بمرض أو آخر، وكم سهرت عليك الليالي، وكنت في هلع دائم من أن تصاب بمرض قاتل. وسالم كان يكره وجودك في بيته وتعلقي بك.. كنت دخيلا في نظره. وكنت دائما أخاف أن يطردك – إلى أن طردك بالفعل، وكنت طيلة إقامتك معي سهل الضياع. لم تذهب في مشوار وأنت طفل إلا وعدت بعد ساعات مهما كان قصيرا. أحيانا لم تعد إلا بعد انتصاف النهار أو في نهايته. صحيح؟ وكنت أنتظر عودتك بفارغ الصبر، وأكاد أجن من شدة القلق. أتفهمني الآن؟»، فقال مدحت: «أفهمك». واستطردت: «وأردت لك أن تتزوج سلوى. سلوى هي التي اختارتك لي؛ هي

التي قادتك إليّ. ألا تذكر؟ رأيتها قادمة ويدك في يدها، فمال قلبي إليك، وخطرت لي عندئذ فكرة أخذك إلى الإسماعيلية، وأنت تعرف البقية». وكانت تهز رأسها وهي تقول فيما يشبه النواح: «كنت أريد لك أن تتزوجها. كانت بينكما قصة حب طويلة – ولا تحسب أنني كنت غافلة عما يحدث بينكما - كانت تعبدك. ولكنك تخليت عنها وتزوجت سنية رغم اعتراضي فاستولت عليك – كانت تكرهني لأنها كانت تعلم أنني أكرهها - وقهرتك عشرين سنة. هل هن عشرون سنة؟ لم أعد أذكر، وكنت أخشى أن تقضي عليك، وكادت تقضي عليك، أليس كذلك؟». قال: «أنت محقة تماما. ولكن ما علاقة كل ذلك بالسفر إلى فيينا؟». قالت وهي تتنهد: «شرحت لك، لماذا لا تفهم؟ لا تريد أن تفهم. إذن فافعل ما تشاء. ومن أنا حتى أقف في طريقك؟ لكن عد لنا. عد سالما. أريد أن أقضي البقية الباقية من حياتي وأنت قريب مني».

وسألها عما تعنيه بعودته سالما: «ماذا يمكن أن يحدث لى في فيينا؟». وردت على الفور كأن الإجابة كانت جاهزة: «أخشى عليك أن تذهب فلا تعود أو أن تعود بزوجة نمساوية». وضحك: «ليس لدي نية في الزواج من نمساوية أو غير نمساوية. ولكن ما العيب في زوجة نمساوية؟». قالت ماريكا بحزم: «أنا ضد الزواج المختلط». فتحول ضحكه إلى قهقهة: «تقولين ذلك وقد تزوجت أنت اليونانية من سالم المصري؟». فرفعت رأسها باعتداد: «أنا حالة استثنائية. ولدت في مصر، ونشأت فيها ولم أحلم – بل ولم يحلم أبواي في يوم من الأيام - بالعودة إلى اليونان. مصر كانت وطننا. نحن اليونانيين أقرب إلى المصريين من أي جنسية أخرى فيما عدا الأرمن. أما سكان أوروبا الغربية، فهم يعتقدون أنهم أفضل البشر وليس في قلوبهم رحمة. إذا عدت

بزوجة من النمسا أو من أوروبا الغربية فلن تبقى في مصر. ستحرضك بعد فترة تطول أو تقصر على الهجرة إلى بلدها أو تأخذ الأطفال وترحل بهم وتتركك وحدك.. صدقني».

وقالت بعد قليل بلهجة من تذكر شيئا مهما: «ثم انظر إلى زواجي من سالم، كان أيضا كارثة. أنا لا أستطيع مهما حييت أن أغفر له أنه طردك ونفاك إلى أبو كبير. وما هو السبب؟ لأنك سرت مثلك مثل زملائك في مظاهرة ضد الإنجليز، هل هذا معقول؟». قال: «كان ذلك سببا واهيا. أما السبب الحقيقي فهو أن سالم ..»، وتوقف فجأة ثم عاد ليقول: «الحقيقة أنني ألتمس له العذر. نحن لسنا ملائكة؛ نحن بشر في نهاية المطاف. وأستطيع أن أضع نفسي في مكانه، كنت ملاذه الأخير بعد عدة زيجات فاشلة. هل يلام إذا كان يريدك لنفسه دون غيره؟ جئت له بطفل من الريف ليستأثر باهتمامك في ..». وقاطعته ماريكا: «بل كان أنانيا عديم الحساسية، فلا تدافع عنه. لم يقدر مدى حاجتي إلى طفل. كان فارق السن بيننا كبيرا، وكان قد تزوج قبلي ثلاث نساء ولم ينجب، وكنت الرابعة ولم ننجب. ورضيت بما قسم لي، ولكنني كنت أريد أن تكون لنا أسرة. ولم يفهم. كأنما نسي أن عاطفة الأمومة تولد في نفس الأنثى عند ولادتها، تماما كما يولد الطفل مستعدا لتلقف ثدي أمه فور ولادته وقبل أن يتمكن من فتح عينيه. فكيف ينكر عليّ سالم رغبتي في طفل؟». قال: «ولكنه لم يطردني إلا وأنا في السنة الثالثة من الدراسة الثانوية. أي أنه حرمك مني لمدة سنتين ونصف قبل الذهاب إلى الجامعة في القاهرة، وكنت ستحرمين مني على أي حال». وأجابت ماريكا بقولها: «كنت أفضل أن تبقى معي حتى نهاية الدراسة الثانوية.

أنت لا تعلم كم كنت أعاني من القلق بسبب وجودك وحدك في تلك السن، وكم كنت أعاني من الكره له نتيجة لذلك».

وتوقفت قليلًا لتسأل: «وهل نسيت أنه طردني من البيت؟». قال مدحت: «كلا لم يطردك. أنت غضبتِ، وقررتِ ترك البيت». فاحتدت: «بل طردني. كان من حقي أن أغضب وأهدد بالرحيل. وكان عليه أن يمنعني. ولكنه تركني واقفة بالباب مستعدة للرحيل وانصرف، كأن الأمر لا يعنيه أرحلت أم بقيت. كان ذلك طردًا. لقد عشت معه راضية كل الرضا أيام فقره. كان حبه يكفيني، وكان يكفيني أن أكون معه مهما كانت الظروف. فكيف سمح لنفسه أن يذلني على ذلك النحو؟». قال مدحت: «أنت تبالغين. لم يحاول الرجل إذلالك. كانت هناك معركة؛ وكنتِ تتحدينه فواجه التحدي. وهو أمر طبيعي في حالات الخصام عندما يتمسك كل طرف بموقفه». فقالت: «ولكنها لم تكن معركة متوازنة، وكان يدرك ذلك. كانت كل أسباب القوة في يده، وكان يعلم أن تهديدي بالرحيل ليس له في النهاية أي وزن، وأنني لا بد باقية ولا بد أن أخضع. كان يعلم أنني لا أستطيع اللجوء إلى أي أحد ولا إلى أي مكان. وأين كان يمكنني أن أذهب؟». وكان الجواب سريعًا: «كيف تقولين ذلك؟ كان بإمكانك الذهاب إلى بيت أبويك. ولم لا؟». فقالت: «وهل تتخيل أن أبوي كان يمكن أن يقفا إلى جانبي ولو من قبيل التظاهر والضغط عليه؟ لم يكن باستطاعتهما ذلك. كانا يعتمدان عليه في رزقهما. أتى بهما إلى الإسماعيلية، وأصبح شريك أبي في التجارة، وكان الشريك الأقوى. ولذلك عندما انعقدت جلسة الصلح، كان أبي وأمي كلاهما في صف سالم. فماذا تسمي ذلك؟». قال مدحت بلهجة تشي باليأس: «لا أدري ماذا أقول. أنت تحيرينني يا ماريكا». فقالت: «ذلك هو التجبر.

هو استعمال كل أسباب القوة ضد خصمك مهما كانت النتيجة. وهل تريد دليلًا آخر على التجبر؟». ولم تنتظر الإجابة، بل قالت: «لقد وافق على أن يواصل إعالتك بعد نفيك إلى أبو كبير، فلماذا يبخل عليك بما يكفل لك حياة مريحة هناك؟ كان ثريًّا، ويستطيع بسهولة أن يكون كريمًا. أليس من العار أنه لم يكن يرسل لك أكثر من جنيهين في الشهر؟ ألا يعني ذلك أنه أراد أن يذلك كما أذلني؟ أليس هذا هو التجبر؟ ألا تعلم أن قلبي كان يتمزق كلما فكرت في الظروف التي كنت تحيا فيها طيلة سنتين ونصف؟ وكنت أفكر في ذلك ليل نهار».

ولم يجد ما يقوله دفاعًا عن سالم بإزاء ما سبب له من مشقة في أبو كبير. أما هي، فلم تسكت: «عندما فعل ما فعل أفسد كل شيء. انكسر في نفسي شيء. وما انكسر في هذه الحالة لا يصلح. كان من الممكن أن أغفر له لو شعرت بالأمان معه. لكنني بعد ما رأيت منه لم أعد أشعر بالأمان. إذا تخلى عني مرة، فمن الممكن أن يتخلى عني مرة أخرى. أصبحت أعيش معه في خوف ولا سيما بعد وفاة والديّ، والخائف لا يحب وإن تظاهر بالرضا. قال مدحت: «كان غاضبا.. أعمته الغيرة، ولكنها كانت غيرة العاشق». فأجابت بمرارة: «للحب موسم أو مواسم يزول بعدها كأنه لم يكن. لقد ضعف حبي لسالم عندما استولت على جسمي غريزة الأمومة. ثم زال حبي تماما عندما حرمني منك. ولم يكتفِ بذلك، بل قادك إلى تلك الزيجة البائسة. هو الذي أوقعك في براثن سنية وأبيها الداهية. لم يعد يجمعنا إلا أننا نعيش تحت سقف واحد. وزادت وحدتي عندما مرض. في تلك السنوات أصبح يتصرف كأنه طفل مذعور؛ كنت أرغمه على أخذ الدواء فيبكي؛ كنت أفتح فكيه بالقوة لأعطيه الدواء. هل تعلم لماذا كان

مذعورا؟». وهز مدحت رأسه علامة النفي، فقالت: «كان يدرك أنني أكرهه وكان يخشى أن أسقيه السم، تخيل!». وسألها: «وكيف عرفت ذلك؟»، فقالت: «جاء أهله ليعودوه ذات يوم. التفوا حول فراشه وتركتهم لأذهب إلى المطبخ، ولما عدت سمعته قبل أن أدخل يشكو لهم أن ماريكا تريد أن تسممه، وكان مع ذلك متعلقا بالحياة لا يريد أن يموت».

وتوقفت عن الكلام لحظات قال خلالها: «ليس هو الرجل الوحيد الذي يخشى أن تسقيه امرأته السم». وسألته عما يقول، فأجاب: «لا شيء». واستأنفت الكلام بصوت خفيض: «كان احتضاره صراعا مريرا وطويلا مع الموت. وأصبح يسترضيني بشتى الوسائل، كأن استرضائي سيطيل عمره. وانهار كل شيء عندما توفي. ووجدتني إذن «مقطوعه من شجره» كما تقولون باللغة المصرية. ولم يبق لي في الدنيا سواك فجئت إليك». ورفعت منديلا إلى عينيها وهي تقول: «وها أنت ذا تريد أن تسافر».

وعندما ارتفع أذان الفجر في الحي نظرت ماريكا في ساعتها وقالت: «آن أوان النوم». قال مدحت: «كلامك طير النوم من عيني، هل أفهم من كلامك أنني ينبغي أن ألغي سفري؟». فأجابت: «لا أستطيع أن أحرمك مما تريد، أنت بالفعل في حاجة إلى تغيير الهواء بعد المحنة التي عشتها. اذهب إذن إلى فيينا». وتوقفت قبل أن تنصرف لتقول: «أنت تعرف قصة السيدة مريم. كان لها خطيب – يوسف النجار – ولكنها لم تتزوج وحملت في يسوع وهي عذراء.. أريد لها أن تكون أما وهي عذراء، بل أريد لها أن تكون أما عند ولادتها، فماذا تعني هذه القصة؟ أنا أعرف أنك ضعيف الإيمان». وحاول أن يحتج، فقاطعته: «أنا لا أطلب

إليك أن تصدق القصة – تصدق أو لا تصدق هذا شأنك – ولكن يجب أن تلتفت إلى مغزاها». وشرحت المغزى بقولها: «هو أن دور الأنثى لا يقتصر على العلاقة الجنسية، هو أنها فوق كل شيء أم بطبيعتها. ذلك ما تريد القصة أن تقوله للمؤمنين وغير المؤمنين، وذلك ما لم يفهمه سالم، فهل تفهم أنت؟».

وغيرت الحديث لتسأله فجأة: «ولكن لماذا فيينا بالذات؟ لقد عشت في مدن كثيرة؛ فلماذا لا تذهب إلى باريس أو ميونيخ أو بودابست مثلا؟». ولم يجب لأنه لم يكن يعرف سر اختياره لفيينا، كان يبتسم وهو يفكر بعد أن تركته وحده: «هؤلاء اليونانيون! أناس متطرفون، لم يتغيروا منذ عصر هوميروس. الحب والكره لديهم بلا هوادة. ولا بد أن يكون لكل شيء بعد مأساوي». ثم برقت في ذهنه فكرة، وهي أن قصة سالم وماريكا تصلح موضوعًا لرواية.

* * *

وقف في ميدان اسطفان في مواجهة الكاتدرائية يتأمل الحمام الذي يطل من كوى الكنيسة ويتبختر على أفاريزها، ونسيم الصبح يترقرق، وتتنفس الصعداء. ها هو سليم معافى.. لقد نجا. الميدان يكاد يخلو من المارة في هذه الساعة المبكرة من الصباح. اليوم سبت وأهل المدينة ما زالوا نائمين. ودار حول الكاتدرائية مرتين. يحق لماريكا أن تخشى عليه من الضياع، وما أسهل أن يضيع. الحب زائل كما قالت. ليس بالشيء الهين أن يزول حبها للرجل الذي كان حبها الأول والأخير. كل شيء إلى زوال، وهذه هي الحقيقة التي يذكرها كلما ذكر طفولته في قرية القواسمة؛ كانت علامات الزوال قائمة في تلك الفترة، منها تدهور حالة

«الصيرة».. لم تعد تستقبل الضيوف الطارئين ولا المسافرين الذين هبط عليهم الليل ولا شعراء الربابة رواة الملاحم القديمة، أخنى عليها الدهر لأن الذين كانوا يمونونها ماتوا وكان آخرهم جدته زينب و«خاله» زكي. زكي كان آخر من وقف في وجه علامات الزوال إلى أن جُن. ولم يعد في القرية أحد ممن عرف في طفولته مثل ناعسة وحسنية الغجرية وعطية بائع الخضروات، ولم يعد بائع الحلاوة السكركر يمر، وخاله شبانة رحل، كلهم اندثروا، واندثرت أساطيرهم. ولا يبدو أن أحدا من أولاد قاسم في الجيل الحاضر يذكر «سدّينه». كلما التقى في القاهرة بأحدهم وسأله: «فاكر حكاية سدّينه؟»، جاءه الجواب: «سدّينه مين؟»، فيقول: «سدّينه اللي اجوزت ابو جاد». غير أن هذه العبارة لا تحرك في السامع ساكنا، شيء مؤسف. كان سكان القرية في طفولته يعرفون القصة، كانت نفيسة ترويها وهي تجلس على عتبة بيتها وتؤمن بكل تفاصيلها كما تداولتها الأجيال المتعاقبة، وكان خاله شبانة يحفظ الأغنية كاملة ويغنيها في الجرن عندما تستولي عليه حالة من السلطنة، وإن كان يشكك في بعض أحداث القصة. يبدو أنه هو الوحيد من قرية القواسمة الذي ما زال يحتفظ بشذرات من قصة الجميلة المظلومة التي أكرهت على الزواج من رجل لا تحبه. ولعل محنة سدّينه بقيت راسخة في ذاكرته لأنه هو نفسه تزوج من امرأة لا يحبها، وإن حدث ذلك باختياره. وقليل هم الناس الذين يدركون أن المأساة هي أن الإنسان – وكل ما يوجد على ظهر الأرض والأرض ذاتها – يتغلغل في كل ذرة من كيانه تيار من السم الفتاك.. سم بطيء المفعول لكنه فعال، سم يسمى الزمان. هو الذي يسري في أوصال حجارة الكاتدرائية الصلدة وفي نسمات الصباح المترقرقة. هو القيد الذي لا فكاك منه لكل كائن. تيار – أهو

تيار؟ - يأتي في موجة من المد بالأحداث ثم ينحسر بها ليلقي بها صغيرها وكبيرها كالنفايات في هوة سحيقة تسمى الماضي ولا يسترد منها شيء. تتراجع وتنهار وتختفي إلى الأبد، كأنها لم تكن. الماضي هو مزبلة النفايات، هو العدم. ومن المحزن أن النفايات كثيرة: أغلبية الأحداث وقد تكون أهمها.

تأمل ماذا يخفي الناس في صدورهم عندما يرحلون، ولا يبقى للتاريخ المعروف مما حدث إلا شذرات: بعض الآثار (في أفضل الحالات)، وبعض الوثائق، وبعض الذكريات والروايات المعرضة للشك. علم بائس، عليه أن يقنع بنتف من المعلومات والأخبار والأطلال، وكل ذلك لا يقارن بما ضاع وألقي به في الثقب الأسود الرهيب. معظم الناس يشعرون بالسخط قرب النهاية. قل من يسعد باقتراب الموت؛ معظم الناس يشعرون عندئذ بأنهم خدعوا وسلبوا حقوقهم، يعلمون أنهم سينتهون إلى تلك الحفرة ولا يبقى منهم شيء. لا يستقبل الموت بهدوء إلا بعض النساك والقديسين.. يفعلون ذلك لأنهم حلوا المشكلة منذ البداية عندما انصرفوا عن متع الدنيا وزينتها. قرروا أن يموتوا وهم أحياء حبا في الله. أما هو، فهو حريص على الحياة متعلق بها.. مثل عمه سالم.

ونظر في ساعته. وما سر اعتراضهم على متع الدنيا وزينتها؟ لا عيب فيها سوى أنها عابرة. من هنا كانت الحياة الأخرى في نظرهم نعيما دائما، امتدادا محسنا وبلا نهاية للحياة الدنيا. ولكن متى تفتح المقاهي لكي يشرب فنجانا من القهوة لعله يصرف عنه هذه الخواطر المزعجة؟ أليس من السخرية أن يستنجد بالزمان – يتوسل إليه أن يسرع – بعد أن كان يلومه على كل شيء كأنه لا

يعلم أن كل ساعة تمر به تخصم من عمره؟ وقال لنفسه إنه لا يستطيع أن يسلك طريق النساك والقديسين. ما دامت المتعة أو السعادة هي مطلب الجميع، فإنه يرضى بالحياة في الحاضر رغم مساوئها. أليس من الأفضل أن يعيش ساعة بساعة ويوما بعد يوم ويأخذ من الملذات ما يتاح له رغم السم البطيء الساري؟ تدّعي ماريكا أن الجنس ليس هو كل شيء.. ولكنها شبعت جنسا وأخذت حظًّا وافرا من الحب. أما هو فلم يعرف سوى الحرمان.. لم يعرف من حب النساء إلا قبلات سلوى. لم تكن سنية تسلمه شفتيها إلا على مضض؛ كانت تكره التقبيل ولا تحسنه حتى نفرته منه. أنسته أن عمل الفم لا يقتصر على العض والقضم والطحن، وأن الريق يمكن أن يكون رحيقًا يرتشف، وأن رائحة الفم قد تكون عطرًا، وأن التقاء الشفاه بالشفاه يصبح في بعض الأحيان عهدًا. لم تعترف به كما يعترف الحبيب بالحبيب، فهل من العدل أن يفارق الدنيا خاوي الوفاض إلا من بعض القبل حلوها ومرها؟

ولما جاءته القهوة في النهاية ظل يتصبر فيدير في نفسه كم هو إنسان محظوظ. فهو رغم كل شيء تزوج وأنجب. تزوجت بنته الكبرى، والصغرى في طريقها إلى الجامعة عما قريب. ولقد أدى واجبه تجاه المرحومة على نحو أو آخر – بلا حب ولا شهوة - وصبر على بلواه صبر أيوب. محظوظ جدا لأن القاعدة العامة هي أن المرأة ترث الرجل بعد أن تقضي عليه. أما هو فإنه من الرجال الفلتات، ها هو قد أفلت سليما معافى.. لا سكر ولا ضغط دم ولا مرض في القلب. كيف حدث ذلك وقد كان معرضا لكل تلك العلل طيلة حياته الزوجية؟ ولم يمرض منذ كان في السابعة عشرة من عمره إلا بنوبات من الزكام العابرة بين حين وآخر، و«قرحة اثنا عشرية» أصابته في ظل سنية وشفي منها.. إلى

الأبد فيما يرجو. ولقد نشر عدة روايات وأصبح يتمتع بقدر من الشهرة رغم كل شيء، وباستطاعته الآن أن يستمتع بالتقاعد المبكر – في الخامسة والأربعين - فلا رئيس ولا مرءوسين ولا ترقيات تنتظر أو يؤسف على فواتها، وكل ذلك بفضل ماريكا.

وانحسرت موجة الرضا لتتلوها موجة من الحزن والانقباض أطلقتها فكرة ميراث الزوجة للرجل. عندما جاءت ماريكا من الإسماعيلية لتسكن معه كانت قد ورّثته تركة سالم. لم تذكر وهي جالسة في ركنها تفاصيل أغفلتها كأن ثروة سالم هبطت عليه من السماء أو جاءته من سالم عن طيب خاطر. لم تذكر أن سالم أثناء مرضه الأخير الذي طال كان يسترضيها بأي طريقة كيلا تدس له السم في طعامه أو شرابه، فقرر – هل قرر من تلقاء نفسه أم بإيعاز منها؟ – أن يترك لها كل شيء رغم أن إخوته كان لهم حق في تركته لأنه لم ينجب. لا بد أنها أوعزت إليه أو ضغطت عليه، لأنه ترك لها كل شيء بطريقة ملتوية حتى لا يستطيع إخوته الطعن فيها أمام المحاكم، وهي أن «يبيع» ممتلكاته للإنسان الدخيل الذي جلبته من الريف، وتكفل المحامون بأن يكون عقد البيع سليما تماما من الناحية القانونية. فهل الزمان هو الذي يمكر بالناس أم إنهم يمكرون بعضهم بالبعض الآخر؟ من كان يصدق أن الطفل اليتيم الغريب الذي التقطته ماريكا من قريته هو من تئول إليه كل ممتلكات سالم؟ وكأن سالم كان يتنبأ عندما عاد إلى البيت ليجد في فراشه ذلك الطفل الغريب فهتف في انزعاج: «مين ده؟ إيه المصيبه اللي انتي جايباها دي؟». وأخذ رشفة من القهوة وهو يبتسم. لم يكن سالم ولا زوجته يعلمان أنه سمع تلك العبارة وما زال يذكرها حتى اليوم لأنه لم يكن مستغرقا في النوم. بالفعل كان مجيؤه إلى بيت سالم مصيبة كبيرة حلت

بالرجل، فهذا الطفل الدخيل هو من سيستولي على اهتمام زوجته ثم يستولي على أملاكه وفقا لعقد بيع صوري وإن كان سليما تماما من الناحية القانونية. هل هناك سخرية أبشع من ذلك؟ وهو يجد نفسه الآن ثريا واسع الثراء دون أن يبذل في ذلك جهدا. وقد جاءت ماريكا لتسكن معه، وهي الآن تحت رحمته لأنه هو مالك كل شيء. أرادت أن تفلت بثروة سالم، فأصبحت هي والثروة في يد الطفل الدخيل. ألذلك تخشى أن يذهب إلى فيينا فلا يعود أو يعود بزوجة تنافسها فيه وتستولي على كل شيء؟ هو الآن سيد نفسه وليس هناك من يحاسبه. أليس وجوده أمام هذه الأبراج السامقة والحمام الوادع الآمن نعمة لا تقدر بثمن؟ نعمة ولكنها نعمة مسمومة.. استطاع بفضلها أن يحصل على التقاعد المبكر وأن يتفرغ للكتابة – وهو ترف لا يناله الكثيرون في مصر – وأن يقضي بقية عمره مستقلا ومستغنيا ومرفها. ولكن هذه النعمة تثقل عليه. عندما طُلب إليه التوقيع على عقد «البيع» وقع بيد مرتجفة – لم يكن يصدق ما يحدث – لأن التركة آلت إليه بطريقة ملتوية ولعله لا يستحقها. صبحك الله بالخير يا أستاذ علي أينما كنت، والأرجح أنك فارقت الحياة الدنيا. كان يحلو للأستاذ – وهو القاهري - أن يحقر تلاميذه الريفيين وأشباه الريفيين، وكان يختتم درسه أحيانا بإنشاد البيت المشهور:

فغض الطرف إنك من نُمَير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولكن التلاميذ لا يستمتعون بشيء قدر استمتاعهم بهجاء الأستاذ، وهم يتشوقون للحظة التي ينصرف فيها عن الشرح ويجد سببا أو آخر لممارسة هوايته المحببة، وهو كثيرا ما ينشد الشطرة الأولى من ذلك البيت فترد عليه جوقة من التلاميذ بالشطرة الثانية. أما

لو نهضت الآن من قبرك يا أستاذ ورأيت تلميذك مدحت أمام كاتدرائية سانت اصطفان في قلب العاصمة النمساوية لما صدقت عينيك ولظننت أنك تحلم. تلميذك هذا نجا من الموت بأعجوبة، وهو لا يفهم حتى الآن كيف أفلت. كانت كل الظروف المحيطة بولادته تشير إلى هلاكه. الله وحده يعلم كيف أخرجته ناعسة من بطن أمه. لا بد أن ذلك كان معجزة من المعجزات على ضوء ما شاهد ذات يوم من عملها كقابلة. يذكر أنه كان يقف بباب قاعة تُجرى فيها عملية التوليد، ورأى كيف تجاهد ناعسة في إخراج الجنين من بطن أمه في ولادة متعسرة؛ فكانت كلما أمسكت بالجنين انزلق وأفلت من يديها. ورآها عندما أعيتها الحيلة تتجه إلى كانون وتعفر كفيها برماده («سكنه») تخشينا لهما. ولم يكن يفهم مما يرى شيئا. ولكنه يعتقد الآن أن من واجب الحياة عليه أن يحتفل بها. فلماذا وقع اختياره على فيينا دون سائر المدن التي عرفها؟ سؤال يطرحه على نفسه، ولا يعرف له جوابا واضحا. لعل الجواب متضمن في أغنية أسمهان عن فيينا. الحب زائل كما قالت ماريكا، وكل شيء إلى زوال؛ ولكن الحل ليس هو الانصراف عن الدنيا كما يفعل القديسون والنساك. لقد بدد من عمره سنوات الزواج، وينبغي أن ينفق ما تبقى له من سنين في الاستمتاع بما تتيحه الدنيا قبل زواله. جاء إلى فيينا إذن ليقضي على شعور متأصل بالحرمان؛ جاء إليها باحثا عن الحب والسعادة. دواؤه هو أن يملأ عينيه من مرأى بنات فيينا الضامرات الخصور ويرتوي من أجسادهن. سنية كانت رشيقة القوام عندما تقدم لخطبتها، كانت جارتهما العجوز تقول كلما رأتها: «ما أرشقها! كأنها أميرة!». ولم تمض ثلاث سنوات بعد الزواج حتى ظهرت علامات الترهل ثم تراكم اللحم والشحم على مر السنين. ولكن الأزمة بدأت منذ البداية، فللأجساد لغة تتفاهم

بها.. ولم يكن بين جسديهما من تفاهم. يعود إذن ليصارع شبح المرحومة ويهزمه. يريد أن يخونها وينتقم منها بعد أن فشل في ذلك وهي حية.

وطلب قهوة ثانية وقطعة من الجاتوه عليها جبل من القشطة. إذا كانت عجائز فيينا تلتهمن - كما يراهن الآن - مثل هذا الجاتوه، فلماذا يحرم نفسه من هذا الإسراف الجميل؟ كانت سنية تقاطع كل مأكولات النمساويين فيما عدا الحلوى. وأحب الحلوى إلى نفسها طورطة زاخر. كانا يجلسان ذات يوم في مقهى في الطابق الأرضي من فندق عريق اشتهر بصناعة هذه الطورطة التقليدية. وأتت الجرسونة فطلب منها قطعتين ورجاها مبتسما أن تسخو في تقديم القشطة المرافقة وأن ترش مسحوق الكاكاو على القهوة الكابوتشينو. مطالب تلبي رغبات سنية، ولكنها تنظر إليه شزرا، فيسألها: «جرى إيه يا حبيبتي؟». قالت: «أنا عارفه إن عينك زايغه». وأدرك على الفور ما تعنيه؛ كانت مستاءة لتلطفه مع الجرسونة، ومما زاد الطين بلة في نظرها أنه كان يخاطب الجرسونة بالألمانية؛ وهي لغة كانت تكره له أن يتعلمها لولا أنه أقسم كذبا بأيمان مغلظة أن الألمانية ضرورية لعمله. وطأطأ رأسه في خنوع عندما قال:

- أنا والله مستقيم ومخلص.

- مستقيم ومخلص آه لأني براقبك، لأني عارفه إنك ما بتخافشي من ربنا.

- الله يسامحك؛ ربنا عارف إني مظلوم.

- بشوفك واحنا ماشيين في الشارع بتبصلهم، ولّا فاكرني عبيطه؟

- معاذ الله إني أتهمك بالعبط ولكنك ناسيه إنك أجمل واحده في عيني.

فتسبل عينيها وهي تقضم قطعة من الطورطة اللذيذة مستسلمة لحلاوة الإطراء؛ لكنها تفيق بسرعة لتقول وهي مفتوحة الحدقتين:

- سيبك من البكش ده، كلامك ما يدخلشي دماغي يا مدحت.

كانت ثاقبة النظر. الحقيقة أنه كان يخونها طيلة الوقت بعينيه. يسمونه الزنا بالبصر. وها هي قد رحلت، وآن الأوان لكي يتحرر من رقابتها، فهل نجا فعلا؟ جسمه صحيح، ولكن ما معنى الصحة إذا كنت مهشما من الداخل؛ إذا كنت لا تجد لنفسك دواء إلا المواقعة؟ أليس هذا هو عين اليأس؟ استطاع في ظل الزواج أن ينفذ عدة مشروعات أدبية، ولكن ماتت لديه مشروعات أخرى. فهل تبقى له من العمر ما يعوض به تلك الخسائر قبل أن تُسحب منه امتيازات شبابه؟ هل يستطيع أن يعوض ما فات فيكتب الرواية المعجزة التي تقفز به إلى المقدمة في موكب الروائيين؟ وهل يجد من يحب فينسيه حرمانه الطويل؟ وصده تكاثر الأسئلة عن الطورطة وأكوام القشطة فتوقف عن الأكل باشمئزاز.

******

الجو مشمس وميدان الكاتدرائية مزدحم مليء بالضجيج، والناس في كرنفال. وهو جالس في مقهى يرقب الحواة والراقصين

والبهلوانات واللاعبين بالأطواق فتيانا وفتيات. وهناك رجل يحرك دمية تمثل لويس آرمسترونج، ولويس يغني: «ما أروعه من يوم». واليوم رائع حقا. وهو يعرف كيف يكون البرد قارسا في فيينا، وكيف ينفذ الليل المثلج إلى العظام والنفس. فإذا جاد الزمان بيوم وضيء مثل هذا اليوم، فتلك هدية لا تقدر بثمن. وهناك الرجال التماثيل – نابليون وكفه على صدره وشارلي شابلن بقبعته وعصاه، وموسيقيّ، تجمدت يده بالقوس فوق الكمان وهلم جرا، رجال يقفون - في أزياء مختلفة مطليي الوجوه ومتجمدين لا يطرف لهم رمش - على قواعد. لا يتحرك الواحد منهم إلا إذا أعطاه أحد المتفرجين قطعة من النقد أو تقدم منه طفل؛ عندئذ تدب الحياة في التمثال ويتحرك ببطء ونظام ويعبر عن شكره بطريقة أو أخرى، كأن ينحني للمانح رافعا قبعته أو يسمح بالتقاط صورة مع الطفل الذي تقدم منه نيابة عن والديه.

وتأتي خاتمة المهرجان عندما يتحرك ليبحث عن مطعم يتغدى فيه. ولكنه يتوقف لينضم إلى جمع من الناس تزاحموا على صوت غناء، فيخترق الصفوف ليواجه المغني. المغني فتاة تصدح بلغة لا يعرفها ولا يستطيع أن يحدد لها مكانا في العالم. لم تكن ألمانية بطبيعة الحال؛ ولم تكن لغة لاتينية. هل يمكن أن تكون روسية؟ محال. فهو يجهل الروسية تماما، ولكنه يستطيع التعرف عليها إذا سمعها. والغريب أن صوت الفتاة التي تغني على إيقاع الأكورديون يشعر السامع بالأسف لأنه يجهل ما تقول. وذلك أن الغناء الذي يبدو وكأنه آت من بعيد شجي ومثير للحزن ونافذ التأثير. يتمنى المرء أن يعرف ما تقول الفتاة، ولكنه على جهله يتجاوب معها ويعود معها إلى المكان البعيد. تقف الفتاة أمام حامل عليه النوتة الموسيقية، ولكنها لا تنظر إليها؛ بل هي مسددة

العينين نحو الفضاء. غناؤها صادر من القلب. فيميل على أحد المستمعين هامسا: «أي لغة هذه؟»، فيقول الرجل: «الصربو كرواتية». ويسأل من جديد: «ولكنها لا تنظر إلى النوتة». فيقول الرجل همسا: «إنها عمياء». عمياء؟ وتغني على هذا النحو؟ ولم لا؟ من قال إن الموسيقى في حاجة إلى عينين؟ صحيح، ولكن المغني الأعمى إذا كان موهوبا على هذا النحو - إذا كان قادرا على إمتاع ذوي الأبصار - ألا يشعر بالحرمان؟ ألا يشعر أنه يعطي دون أن ينال شيئا؟

ومنذ تلك اللحظة – لحظة من الانتشاء بالغناء – لم يعد قادرا على احتمال وحدته. كأنما تحركت في نفسه قوى كانت نائمة فأيقظها صوت الفتاة الآتي من بعيد، النابع من أعماق بلا غور. ولماذا يشعر الآن بالحزن وقد غمره الفرح وهو يستمع إلى المغنية العمياء؟ ولماذا يشعر أن فيينا تضيق به وأنه يضيق بها رغم أن نفسه تفتحت قبل قليل للموسيقى؟ أصبح لا يدري ماذا يفعل بنفسه ولا أين يذهب. وأتى المساء بالبرد كأن اليوم لم يعرف شمسا ولا نورا ولا بهجة؛ كأن الكرنفال حدث في عام سابق، وكأن احتفال لويس بروعة اليوم كان حلما عابرا.

ولكنه لم يكد يسير قليلا في شارع كيرتنر شتراسه حتى وجد فتاة تعزف على الناي فتوقف برهة وانصرف. وبعد مائة متر تقريبا من عازفة الناي وجد رجلا يعزف على الكلارنيت. ويشهد الله أن اللحن كان جميلا ولكنه بعد أن استمع لذلك العازف «المجنون»، لا يريد الاستسلام مرة أخرى لسحر الموسيقى. فلما مر أخيرا برجل ملتحٍ يعزف على الأكورديون انهارت مقاومته. خيل إليه أنه سمع شيئا يشبه هذا اللحن من قبل. وهناك جمع من الناس

انضم إليهم حبا في الاستطلاع، وبعد قليل جاء فتى وفتاة وبدآ يرقصان على أنغام الموسيقى. كانا في الأصل يجلسان متعانقين على دكة خشبية في وسط الشارع ثم نهضا فجأة ودون سابق إنذار وبدآ يرقصان على أنغام.. أنغام التانجو. هو التانجو إذن! ووقف مبهوتا. التانجو موسيقى مست أوتار قلبه في صباه، وأيقظت في نفسه وعيا جديدا بالعالم. ولكن ما أبعد التانجو في أغنية «يا زهرة في خيالي» – مناجاة رقيقة للزهرة – عما يرى ويسمع الآن! هذه رقصة سريعة الإيقاع حادة المعالم يشتبك فيها الراقص مع الراقصة فيما يشبه المراودة الجنسية. فالراقصة تتدلل على الراقص أو ترفضه، ولكنه يغالبها في مصارعة جسدية حتى يغلبها – يروضها حتى تسلس قيادها - فترتمي على صدره وتلف ساقها حول ساقه وتستلقي على ساعده حتى يكاد شعرها يلمس الأرض، فكأنها في هذا الوضع تقول: «هيت لك». والموسيقى جميلة في الحالتين. وحري بالإنسانية أن تثني على الأرجنتين وتوجه الشكر لها لأن التانجو خرجت من قاع المدينة – موسيقى الصعاليك والحثالات فيها - ولكنها بلغته وهو طفل في الإسماعيلية وتبلغه هنا في هذا الشارع في قلب فيينا، والعشاق يجلسون في وسط الطريق. وأمر العشاق غريب في فيينا. لقد شاهد وله العشاق في كل البلاد الأوروبية التي أقام فيها ولكن يبدو أن للحب في الشارع أسلوبا خاصا في العاصمة النمساوية. في لندن يغلب على الحب في الأماكن العامة طابع الرعونة والحمق: «غلام عبيط يهصر أو تهصره صبية هبلة». وفي باريس لا يخلو الأمر من الاستعراض: «يا خلق يا هوه تأملوا رشاقتنا وانظروا كيف نتفنن في التقبيل». أما في فيينا، فهناك رقة وهناك رغبة في الحديث بتلامس الأيدي. ولا أحد يزعج العاشقين، وهما لا يريدان أن يستفزا أحدا أو يسترعيا انتباه أحد.

كأنهما زوج حمام على واجهة الكاتدرائية يستقبلان الصبح بالقبل. وها هو يتجول وحده في شارع الموسيقى، والموسيقى تنتقل به من زمن إلى زمن آخر، ومن عالم إلى عالم آخر. أسمهان عندما غنت «إيه اللي يبقا لك من النعيم غير ظله؟» لم تقل شيئًا يختلف عما قاله فردي بكلماته وموسيقاه في لحن «النّخْب» في أوبرا «لا ترافياتا»: «دعنا نستمتع باللذات، عابرة وسريعة/ هي السعادة في الحب/ هي زهرة تتفتح وتموت». كلا ولم يقل كلاهما شيئا يختلف عما أراد أبو نواس قوله في خمرياته، كانوا جميعا يرون خطر الزوال ماثلا. وهؤلاء هم أهله وعشيرته، صحبه وخلانه. وهو يتذكر رمل البلاج، والبحيرة الزرقاء، وسلوى في المايوه تدعوه إلى ترك المياه الضحلة واللحاق بها، وفصاحة قبلتهما الأولى. ولن تزول وحدته إلا بالاندساس بين هؤلاء العشاق والاندماج فيهم. ذلك هو التبزك.

* * *

الحق ينبغي أن يقال . لقد حاول ذات مرة أن يخون زوجته بالفعل. كانت قد ذهبت إلى مصر عندما أبلغت أن المرض اشتد بأبيها وأنه أصبح بين الحياة والموت. فانتهز الفرصة وارتكب حماقتين. الحماقة الأولى هي أنه ذهب إلى الأوبرا ليشاهد «فيديليو» لبتهوفن، ولكن بتهوفن خيب ظنه، ولم يفلح في تحبيبه في الأوبرا. أما الحماقة الثانية فهي أنه التقى بفتاة في الشارع فدعاها إلى تناول فنجان من القهوة. وكم كانت دهشته عندما قبلت الدعوة على الفور. وكان منتشيا بهذا التوفيق وأراد أن يطيل الحديث والأخذ والرد قبل أن يصل إلى غايته، فقد كان من

الواضح أنها فتاة مهذبة على قدر من الجمال وأنها «بنت ناس»، ولكنها استوقفته عندما نظرت في ساعتها:

- لا تؤاخذني إذا قاطعتك. أنا فتاة عاملة.

فأخذ يعتذر:

- آسف لأنني عطلتك عن مواعيد المكتب، ولكن لا بأس، بإمكاننا أن نلتقي مرة أخرى ونستأنف الحديث.

فأخبرته مرة أخرى بأنها «فتاة عاملة». ولم يفهم، فاضطرت إلى الشرح:

- أعني أنني أعمل مع الرجال، وأحاسبهم بالساعة. يمكننا إذا أردت أن نذهب إلى فندقك أو أن تأتي إلى شقتي لقاء أجر.

فهمهم.. وصلته الرسالة.

واتفقا على أن يذهبا إلى مسكنها وعلى الأجر. واشترطت أن يكون الدفع مقدما، فدفع. وعندما بلغا شقتها اندفعت إلى داخل الحمام. وبقي وحده يحاول التغلب على الرعشة التي انتابته، فهو لم يعرف من قبل فتاة «عاملة» وكان شبح زوجته يتراءى أمام عينيه. والفتاة تساومه من وراء باب الحمام بينما يحاول جاهدا أن يجاريها راجيا أن يساعده الاستمرار في أداء الدور على التحكم في ارتجاج ركبتيه. سألته: «كيف تريدني؟ إذا كنت تريدني عارية فينبغي أن تعلم أن هناك رسما إضافيا على ذلك». قال: «الأمر لديّ سيان. كما تريدين يا حبيبتي». فصاحت باستنكار:

«هل قلت «حبيبتي»؟ لا تحاول خلط الأمور. نحن هنا نؤدي عملا - بيزنس إذا شئت - علاقة بين بائع ومشترٍ. فهمت؟ أرجو أن تكون قد فهمت. على أي حال ما دمت في غير حاجة إلى مطالب خاصة، فباستطاعتنا أن ننجز العملية في خمس عشرة دقيقة على أكثر تقدير». واحتج قائلا: «خمس عشرة دقيقة. هذا مستحيل. وفيم العجلة؟». فقالت: «هذا هو الشرط». قال: «ولكنك لم تضعي هذا الشرط عند التفاوض». فقالت: «فها أنا ذا أخبرك. لك أن تقبل أو أن ترفض، لكن تذكر.. الفلوس لا ترد للزبون». وهكذا استمر النقاش. ولكنها عندما خرجت من الحمام انتابها غضب عارم لأن الزبون قرر أن يولي الأدبار. وكان يسمع صراخها ولعناتها وهو يهبط السلم قفزا: «لماذا لا تأخذ حقك؟ يا رخو يا عديم الهمة يا أبله. ضيعت وقتي وفقدت فلوسك».

فليحاول الآن أن يتجنب الفتيات «العاملات» ويتقرب إلى العاديات منهن. وتوجه فورا إلى الفندق، الأقربون كما قال لنفسه أولى بالمعروف، ها هي موظفة الاستقبال. ليست على قدر كبير من الجمال وهي ترتدي نظارة طبية وتبدو «غلبانة». ولكنه رغم تحفظاته لم يكن لديه مانع؛ المهم أن يطرق بابا آخر في فيينا.

وفي البداية كان يتلمس طريقه في حذر؛ فقال:

- تعلمين أنني سأغادر فندقكم بعد غد لأسكن في شقة مفروشة، ولكني سعدت بالإقامة معكم.

قالت:

- لقد سعدنا بك. أرجو أن تتكرر الزيارة. نحن في خدمتك.

قال:

- جميل. فمتى سنتعشى سويا؟

فضحكت وهي تتمتم:

- شكرا على لطفك.

فسأل الفتاة:

- متى تنتهي ورديتك؟

فلما أخبرته أن ورديتها تنتهي في الثامنة مساء قال:

- ما رأيك لو صعدت إلى غرفتي عندئذ. في الثلاجة مشروبات كما تعلمين و...

ولكنها قاطعته:

- هذا ممنوع منعا باتا أيها السيد.

قال:

- فلنخرج إذن إلى أحد المقاهي أو المطاعم.

ولم ترد وإنما أدارت ظهرها له لتنظر في الكوى المخصصة للمفاتيح. وفي نفس اللحظة انفتح باب مكتب محاسب الفندق ليطل منه وجه رجل نحيل شاحب مرهق. وعندما استدارت الفتاة لتواجهه قالت له:

- آسفة، ليس لدينا أي رسائل لك.

بنت الكلب تحاول تغيير مجرى الحديث أمام المحاسب. وشعر بجفاف في حلقه؛ وتبددت كل شهواته لمرأى عيني المحاسب وراء نظارتيه. منظر يصد النفس. ولكن ذلك المشهد فيما قال لنفسه لا يمكن أن يمثل فيينا.

وأسرع إلى كافتيريا أحد الفنادق الكبيرة. ولفتت نظره رئيسة النادلات. لم تكن أجملهن، ولكنها كانت أنيقة رشيقة في بدلتها الكحلية التي يتدلى من جيبها منديل من الحرير الأبيض. وهي بسامة ودودة تطوف بالزبائن لتحييهم وتسألهم عما إذا كانوا راضين عن الخدمة. وسألته:

- أرجو أن يكون شاينا قد أعجبك.

فقال:

- في غاية الروعة.

وهمت بالانصراف فاستوقفها:

- وبالمناسبة، هذه الفناجين الجميلة من أين أتيتم بها؟ أعني هل يمكنني أن أشتري مثلها لأحمله إلى مصر في طريق عودتي؟

ودار بينهما حديث طويل عن تلك الفناجين إلى أن عرضت عليه أن تطلب له من المورد عدد الفناجين الذي يريد، فما عليه إلا أن يحدد العدد ويأتي إلى الفندق في مثل ذلك الوقت من الأسبوع التالي ليجد الفناجين تحت تصرفه. بل إنها وعدت بأن تعمل على أن تكون الفناجين معبأة بالطريقة المناسبة التي تحفظها من الكسر أثناء السفر. واستأذنته لحظة وعادت لتقول:

- استفسرت عن السعر.. ثمن الفنجان الواحد تسعون شلنا، وهو ثمن ليس بالقليل ولكن الفناجين جميلة بالفعل ولن تستطيع شراءها من أي مكان آخر لأنها تصنع خصيصا للفندق، فكم فنجانا تريد؟

وزمّ شفتيه:

- هي بالفعل غالية ولكنها جميلة كما تقولين وعليّ أن أفكر قليلا وإن كنت أشك في أنني قادر على مقاومة إغرائها.

قالت الفتاة:

- لو كنت مكانك لما ترددت ولكن القرار لك.

قال:

- سأفكر وأخبرك.

ثم أطرق قليلا. كان ينوء بعبء ثقيل ولم يستطع أن يستمر في التمثيل فباح بمكنون صدره. قال:

- الحديث معك شيق، واستعدادك للمساعدة يثير الإعجاب ولكنني لا أريد أن أعطلك عن عملك. ما رأيك لو تعشينا معا في أحد هذه الأيام؟

وابتسمت الفتاة ابتسامة عريضة:

- أشكرك شكرا جزيلا. وكم كان بودي لولا أن صديقي غيور شديد الغيرة.

قال وهو يبتسم بعذوبة:

- لا تخبريه إذن.

قالت:

- محال. أنا لا أخفي عنه شيئا. أخبرته ذات يوم أنني تعشيت - مجرد تعشيت - مع أحد الزبائن. ولا يمكنك أن تتخيل مدى ثورته. كدت أن أفقده. فهل يرضيك أن أفقد حبي الوحيد؟

بنت اللئيمة! انظر كيف قالت الجملة الأخيرة بدلال وبلهجة تشبه الاستعطاف. يا ويلك يا مدحت من بنات فيينا! وماذا يمكن أن تقول ردا على ذلك؟

وعاد الشعور بالجفاف إلى حلقه فأخذ يتمتم:

- الواقع .. الحقيقة أنه .. ليس هناك ما يدعو للغيرة.. تعلمين أنه..عندما يستلطف الإنسان حديث إنسان آخر.. فإنه.. فإنه يريد أن يطيل أمد الحديث معه. أليس كذلك؟ إنها الرغبة في الحديث وتبادل الأفكار ولا شيء غير ذلك.

فقالت الفتاة وهي تهم بالانصراف:

- أفهم ما تعنيه تماما؛ ولكن يؤسفني... فكر في موضوع الفناجين على أي حال وأخبرني عندما تقرر.

ونظر في ساعته، كانت تشير إلى الثالثة والنصف بعد الظهر. ما زال في الوقت متسع لطرق الأبواب. وتذكر أن له صديقا قديما يعمل في مبنى الأمم المتحدة، فأسرع إلى هناك. ولكنه توقف قبل أن يصل إلى مكتب صاحبه أمام ورقة ملصقة على باب موارب وقد كتبت عليها سطور من الشعر الحلمنتيشي:

«مين قال إن انا تعبانه..

ولّا انا قلقانه

ده انا حاخد مليونير

ولما أخينا يموت

هورث وافضل فرحانه

ويجيلي بداله أمير».

ونقر على الباب ودخل:

- يوم سعيد.

وردت صاحبة المكان على التحية بمثلها وإن لم ترفع عينيها عن الكمبيوتر. كان شعرها ذهبيا مشربا بحمرة خفيفة وشفتاها مكتنزتين. أما استدارة ردفها وامتلاء فخذيها، فهو لم يرَ لهما مثيلا إلا في لندن. لولا أنها ردت عليه بالألمانية ولولا أنها كتبت شعرها بالألمانية لقال إنها من بنات الإنجليز. قال:

- يعجبني إعلان الزواج هذا.

هنا رفعت رأسها للحظة خاطفة ثم استأنفت النقر على المفاتيح:

- وماذا نفعل؟ نحاول أن نسلي أنفسنا هنا.

فسألها:

- فهل اجتذب الإعلان أي خطّاب؟

- على الإطلاق. ليس لنا حظ.

ليس لها حظ! البنت مليحة طرية عذبة. لهطة قشطة؛ حبة فراولة؛ أو الاثنان معا.. فراولة بالقشطة. آه لو أنك تكرمت فجلست على ركبتي عمك مدحت!

- معقول؟ مؤكد أن هذا المبنى مليء بالشباب المؤهلين للزواج. كيف لا يلاحظون كل هذا الجمال؟

فتنهدت:

- آه لو تعلم. لا تغرك المظاهر.. الجميع هنا مشغول بالترقيات والدرجات والعلاوات والامتيازات وصناديق الادخار وفوائد القروض العقارية والقروض الشخصية. آه لو حضرت ساعة وصول كشف المرتب الشهري، هي الساعة الوحيدة التي يزدهر فيها الجميع، ولكن أي ازدهار؟ تراهم – بما في ذلك الشباب – كلا في ركن أو وراء مكتبه مسلحا بالآلة الحاسبة، منهمكا في الجمع والطرح والضرب والقسمة ليتأكد من أن كمبيوتر المنظمة لم يخطئ في أي من التفاصيل، وعلى وجه الإنسان منهم علامات لذة تكاد تبدو فاحشة.

واضح أن البنت تعاني من الملل والإهمال في مجتمع لا يهتم إلا بالفلوس، فتنحنح مستجمعا أطراف شجاعته:

- أنا مليونير وغير متزوج أو بالأحرى أرمل وقد تجاوزت الأربعين، ومعنى ذلك أنك لن تنتظري طويلا قبل أن تجدي المجال مفتوحا أمام أميرك المنتظر. فما رأيك؟

قالت:

- يا لها من صفقة! ومع ذلك أرجو ألا تكون جادا.

ورفعت عينيها فلم تجد على وجهه أي أثر للهزل؛ وإنما رأت عينه الحولاء مسددة نحوها تتفرس فيها كأنها تريد أن تجردها من ملابسها، فامتقع وجهها غضبا وسبته بالإنجليزية: «فاك أوف». قالت العبارة كأنما كانت تبصقها. بعدها عاد أدراجه إلى الطابق الأرضي، فهو لم يعد يجد في نفسه رغبة في رؤية صديقه. لقد بلغته الإهانة وكانت قاطعة كالسكين.

وفي أوائل المساء كان يسير بالقرب من كنيسة القديس أوغسطين. فلما بدأ المطر يتساقط احتمى بمدخلها، وعندئذ لمح فتاة في نهاية المدخل تجلس إلى مائدة صغيرة. فلما اقترب منها وحياها تحية المساء وجدها تبيع تذاكر لقداس لموتسارت سيقام في الكنيسة بعد أسبوع، ولم يكن هناك من مشترٍ. الفتاة نحيلة ضئيلة ولكنها رقيقة الملامح حزينتها. لا بأس! واستفسر عن القداس وعن أثمان التذاكر؛ بل واشترى تذكرة ليجبر خاطر البنت المسكينة التي خيل إليه أنها ستصاب بالعنوسة تفانيا في خدمة الكنيسة. وقرر أن يعطف عليها فقال:

- يبدو أن يوم عملك طويل.

وابتسمت الفتاة ابتسامة خيل إليه أنها لا تخلو من الحزن:

- إن هي إلا نصف ساعة وأنصرف.

فقال:

- ولا بد أنك متعبة. ما رأيك لو انتظرتك حتى تفرغي من عملك فنتناول مشروبا سويا؟

عندئذ بدا على وجه الفتاة الرعب. كانت شفتاها ترتجفان كأنما هاجمتها عاصفة ثلجية. وخيل إليه أنها توشك على البكاء؛ فانسحب بسرعة. وعادت إليه الشتمة التي وجهتها إليه الفتاة الإنجليزية. كانت تحز في نفسه كأنها شوكة غرست في جنبه ولا يستطيع زحزحتها.

وتمهل في البهو الخارجي لمحطة المترو يحاول أن ينسى ما تلقى من صد وإهانة قبل الصعود إلى سطح الأرض. يبدو أن هناك رأسمالية في الحب كما أن هناك رأسمالية في الاقتصاد. وهناك سوق حرة للحب تتحدد فيها أسعار الناس. الرجال الذين يتمتعون بالشباب تنجذب إليهم النساء من تلقاء أنفسهن ويتهافتن عليهم، ويأخذون من الحب أكثر مما يحتاجون، بينما يعاني غيرهم من الفقر العاطفي والحرمان. وتنخفض قيمة الإنسان كلما تقدمت به السن أو قل حظه من الوسامة. فالشاب الوسيم تتهافت عليه النساء – طالبات الزواج أو المتعة العابرة – وليس عليه أن يبذل أي جهد. فأما الذي عنده فيعطى ويزاد. أما هو، فلا يصح وفقا لقوانين العرض والطلب أن يلقى معاملة حسنة، كهل يفتقر إلى الوسامة، و«ما لوش غير ربنا» كما يقال في مصر. وتأكدت لديه تلك العبر عندما رأى فتاة حسناء توزع على المارة ورقة مطوية كتب عليها «دعوة إلى الحب»، وعندما فتح بلهفة الورقة التي دُست في يده وجدها تحتوي على دعوة إلى حب المسيح. ذلك ما خرجنا به من يوم قُضي في طرق الأبواب.

ومرت بذاكرته مشاهد قديمة ترجع إلى طفولته المبكرة. رأى كيف اصطحبته فريدة ذات صباح إلى مقام الشيخ عاشور. كانت جاموسة هنية امرأة عمه عشراء، وأرسلت بنتها سعاد معه هو وفريدة إلى مقام الشيخ المختص بحماية البهائم لالتماس معونته في المحافظة على الحمل في تلك المرحلة الحرجة. وسارت البنتان يتبعهما هو وكلبه بمحاذاة القناة التي يطل عليها بيت فريدة لمسافة طويلة، ومرا بعدة قرى (وكان ذلك في حد ذاته مثارا لاهتمامه وسعادة الكلب، فلم يكن قد حدث من قبل أن ابتعدا إلى هذا الحد عن قرية الصوالحة). وكان المقام بيتا من الطين يتوسطه قبر الشيخ ولا يضيؤه إلا كوة صغيرة في قلب تجويف في الحائط، ولم يكن فيه بالإضافة إلى جانب القبر المربع إلا مجموعة من الأوتاد دقت في الحائط، وصندوق للنذور تحت تصرف حارس المقام. ووضعت سعاد قطعة نقد في صندوق النذور، بينما علقت فريدة حبل الجاموسة على أحد الأوتاد. وبتلك الطقوس أصبحت «المبروكة» في حماية الشيخ بإذن الله. وفي طريق العودة توقفوا لصيد السمك في القناة، وكانت سعاد أشد الثلاثة مهارة فلا تفلت من بين يديها سمكة؛ وتليها في المهارة فريدة، أما هو فكان مشتت الانتباه فاشلا: يطارد سمكة حتى يرى أخرى فينصرف عن الأولى ليلحق بالثانية، فتفلت منه هذه وتلك. وكانت فريدة تضحك: «يا واد يا مدحت يا اهبل. والله انت عمرك ما صايد ولا سمكه». كأنما كانت فريدة تتنبأ بمستقبله مع الجنس الآخر.

******

ولم يكن يدري أين يتجه وهو في طريقه إلى الخروج من محطة المترو. ولكن وقع بصره على عمود ضخم ألصقت به مئات من قصاصات الورق المطبوعة. وخيل إليه لأول وهلة أنها إعلانات غرامية أو دعوات إلى اللهو، فلا بد أن تكون في هذه المدينة قلوب وحيدة. فلما اقترب من القصاصات المطبوعة اكتشف أنها قصائد وأنها لشاعر واحد. ومن عجب أنه سماها «قصائد طائرة»، وهو عنوان جميل، إلا أن كثيرًا من القصائد كانت خفيفة الوزن. هي بالفعل قصائد طائرة؛ لكن بعضها استرعى انتباهه. منها قصيدة من بضعة سطور تقول:

غادية أنت رائحة

وجهك وضّاء والابتسامة لا تفارق ثغرك

كأن الربيع دائم والسماء لا تعرف المطر

تلقّي إذن قصائدي

زهورا قطفتها من بستان حبي، قبلاتي

أضعها على كفي وأنفخ فيها

لعل وريقة منها تعلق بشعرك

أو تحط على وجنتك.

وهز رأسه: «لا بأس. هذا أفضل مما كتبته الإنجليزية ذات اللسان الجارح»، ثم عاد شاعر القصائد الطائرة ليؤكد ما يريد:

تمرين بي جيئة وذهوبا منذ مطلع الربيع

ومنذ مطلع الربيع أرسل إليك أغانيّ

ها هو الصيف أقبل بأنفاسه الحارة

حذار أن تذوي الأزاهير العطشى.

هل يكون الشاعر فتى خجولا يقف عند باب الخروج في المحطة ينتظر مرور الفتاة التي يحبها؟ لا بد إذن أنه موجود في هذا البهو يترقب اللحظة المناسبة. فلعل حبيبة القلب تتوقف عند عمود الأغاني لتقرأ ما كتب، ولعله عندئذ يتقدم إليها ويعرفها بنفسه. طريقة غريبة في الاقتراب ممن تحب. ولكن من قال إن هناك قواعد صارمة للغزل؟ وأخذ يتلفت يمنة ويسرة لعله يرى الشاعر العاشق. ولكن البهو خلا أو كاد من المسافرين ولم يظهر أحد. هل يكون الشاعر العاشق مختبئا خلف أحد الأعمدة؟ لنخرجه إذن من مكمنه. وأخذ ينتزع بعض القصائد – ورقة ورقة – ويضعها في جيبه على نحو لافت للنظر. ولكن أحدا لم يظهر ليحتج على ما فعل.

غريب أمر هذا الشاعر يؤلف قصائده ويلصقها بعناية ثم يتركها ويذهب، يتركها في مهب الريح. يعلقها لكي يقرأها المارة أو يأخذوها أو يدوسوها بالأقدام، فكل ذلك في نظر الشاعر سيان.

كأن الأمر في نهاية المطاف لا يعنيه؛ المهم أن القصائد ألفت ونشرت على الناس، وليحدث بعد ذلك ما يحدث. وهكذا يفعل الفنانون المبدعون على نحو أو آخر؛ يصنعون أعمالهم ويلقون بها للرياح. صحيح أنهم يتمنون لها الشهرة والتقدير، ولكن طلب الشهرة ليس هو الدافع الأساسي للإبداع. الإبداع صفة مميزة للإنسان وجزء من طبعه. هل يكون الإبداع إذن غريزة كما يحدث في حالة النحل صانع العسل؟ محال لأن الإبداع ليس بالقوة العمياء، وهو لا يحدث وفقا لوصفة جاهزة موروثة. الفنان المبدع يصنع عمله واعيا باحثا له عن الصيغة المثلى. الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يأتي واعيا بأعمال يتجاوز بها ماضيه وعصره الحاضر؛ بل ويتجاوز بها نفسه. وقديما قالت العرب إن أعذب الشعر أكذبه، وهو قول صادق. الكاتب المجيد لا يتقيد بما حدث له حتى ولو كتب سيرته الذاتية، بل يكذب لكي يحقق لعمله أفضل أو أجمل تأثير. والناس يتقبلون عن طيب خاطر ذلك الكذب الجميل لأن الإبداع من طبيعة الإنسان كل على قدر استطاعته. والأعمال الإبداعية العظيمة هي الأشياء الوحيدة التي تتغلب على حتمية الزوال وتفلت من قيود الزمان. ما إن تأتي إلى حيز الوجود حتى تبقى ما بقيت البشرية ولا تفنى إلا بفناء الجنس البشري.

وتساءل: متى وكيف يكتب الرواية المعجزة؟ الغريب أنه وقد أصبح حرا وقادرا على التفرغ للكتابة لا يجد الحافز القوي. كانت الحوافز تنهال عليه عندما كان أنفه في الرغام، وتدفعه دفعًا نحو الورق. فهل ينبغي أن يقنع الآن بتسجيل مشاهداته وخواطره كما تعرض له في فيينا، لعلها تصلح في يوم من الأيام مادة للكتابة؟

سيحاول.. ولكنا لسنا في عجلة من أمرنا؛ هناك كأس ينبغي أولًا إفراغها حتى الثمالة.

* * *

صرفته القصائد الطائرة عن أحزانه للحظة، ولكن التفكير في خلود الأعمال الإبداعية خلف في نفسه شعورا بالحزن من نوع آخر. ذكره بالظروف التي كتب في ظلها روايته الأولى. حدث ذلك أثناء زيارته الأولى لفيينا. كان قد تنكر لحب سلوى وتخلى عنها، ولكن لم تمضِ عليه بضعة أسابيع في فيينا إلا وبدأ يشعر بالندم. كان يقيم عندئذ في فندق في انتظار العثور على شقة مناسبة، وينتظر بفارغ الصبر فرصة للاستقرار. وخيل إليه أن الفرصة سنحت عندما قرأ إعلانا عن شقة معروضة للإيجار بثمن معقول في إحدى الضواحي القريبة. وأقنعه مالك الشقة على التليفون بمزاياها، فهي لا تبعد عن المدينة إلا بمقدار دقائق في القطار وهي مريحة - كانت أمه تسكنها قبل وفاتها - وأبدى استعداده لاصطحابه في السيارة لرؤيتها. وقرر على الفور أن يرحل عن الفندق، فحزم حقيبته وسدد الفاتورة. لم يكن قد زار الشقة بعد، ولم يكن يود أصلا السكن بعيدا عن وسط المدينة، ولكنه طرح تحفظاته جانبا طلبًا للاستقرار رغم كل شيء. ثم أصابه شعور بالانقباض عندما رأى ما يعرض عليه.فالشقة تتكون من غرفة واحدة ألحقت بها دورة مياه ودش ومطبخ صغير، وهي مظلمة، والأثاث فيها بالٍ. كيف ارتضى المالك لأمه أن تعيش في ظل هذا التقشف؟ ودار ببصره في أرجاء المكان: أين يوجد السرير؟ ونبهه المالك إلى أن السرير لا يوجد على الأرض، بل مثبت في وضع قائم فلا ينزل إلا عندما تحين

ساعة النوم، ثم يعاد إلى وضعه السابق. من الواضح أن المالك أراد بهذه الطريقة إفساح أكبر مساحة ممكنة للجلوس والحركة في الشقة ذات الغرفة الواحدة الضيقة. ورضي بالسكن على مضض. لم يكن التراجع عن إتمام الصفقة سهلا على نفسه، ولم يكن مستعدا للعودة إلى الفندق واستئناف البحث عن سكن. وقرر أن يرضى بما أتيح له ولو بصفة مؤقتة، ولكنه هيأ نفسه لحياة من العزلة وقضى في الشقة فصل البرد بأكمله.

لم يكن يعود إليها في نهاية يوم العمل إلا بعد تلقي درس في اللغة الألمانية وتناول عشاء مبكر في المدينة، أو شراء ما يأكله في مسكنه، فلا يخرج إلا صباح اليوم التالي. وكان الظلام يهبط مبكرا ويعلن الشتاء عن نفسه بقسوة فتثلج السماء أو تمطر. فإذا وصل إلى محطة القطار وجد على الرصيف ثلاثة رجال من الغجر يعزفون على الكمان ويغنون. أنغامهم وأغانيهم كانت حزينة، ولكنه كان يجد فيها خاتمة مناسبة لحياته في المدينة، وتمهيدا مناسبا لرحلته إلى مسكنه في حي رمادي موحش خلا من أنوار المتاجر والمطاعم – لم يكن هناك متاجر ولا مطاعم – ويكاد يخلو من المارة إلا من عجوز هنا أو هناك يتوكأ على عصاه. وكانت الشقة باردة استقرت الرطوبة في جدرانها وأثاثها فلا تجدي فيها التدفئة المركزية.

كيف كانت السيدة العجوز تقضي أيامها الأخيرة في هذا المكان؟ يتخيلها جالسة في وسط الغرفة وعلى رأسها شال تحتمي به من البرد، تغالب النعاس فيغلبها، لا تكاد ترفع رأسها حتى يرغمها على الإطراق. كيف هانت على ابنها حتى يعزلها في هذه الثلاجة؟ من الواضح أنها كانت تنتظر الموت. فلماذا وضع نفسه

تحت رحمة هذه الظروف البائسة؟ يخيل إليه الآن أن الندم كان قد بدأ يتسلل إلى نفسه لأنه تخلى عن سلوى، وأن رضاه بذلك السكن كان نوعا من عقاب النفس، ويخيل إليه أيضا أن ظهور الندم اقترن بأشياء أخرى تتحرك في أعماقه وتدفعه إلى الكتابة.

الكتابة فيما قال لنفسه ليست في حاجة إلى حياة مترفة. بل لعلها تزدهر مع النظام – أخذ النفس بالشدة – والتقشف. ولعل الكتابة – كتابة روايته الأولى وما تقتضيه من نظام - كانت جزءا من عقاب النفس. إلا أن ذلك الجزء من العقاب كان أيضا بابا للأمل. روايته الأولى لا بد أن تكون مهداة إلى سلوى. فهو يشعر ضمنا ودون سبب واضح أنه يكتبها من أجلها ولها، ويعد نفسه بأن يتصدر العمل عند نهايته إهداء صريح إليها. كتابة الرواية في ظل تلك الظروف ليست إلا تمجيدا لحبها. مساره من المدينة في أوائل المساء إلى مسكنه محدد ومرسوم له، تودعه موسيقى الغجر وتسلمه إلى عمله في الرواية.

وهو يجلس إذن على نفس المقعد الذي كانت تحتله السيدة العجوز مرتديا الروب وعلى كتفيه كوفية ثقيلة. وتحت هذه الأغطية تواجهه الأوراق البيضاء تنتظر عمل القلم ويجد نفسه مرتحلا في فضاء فكري رائع. العقبات التي تواجهه في ذلك الفضاء عقبات روائية – صعبة ولكنها في الوقت نفسه معالم على الطريق تهديه في النهاية إلى حلول روائية، حلول من ابتكاره وليست مستلهمة من أي رواية قرأها أو هكذا كان يشعر؛ حلول لا تفرضها إلا ضرورات القص ومطالب الجمال. فأي عمل يمكن أن يفوق ذلك في التكفير عن ذنبه في حق حبيبته؟

الرواية لا تنفصل عن مؤلفها بعد اكتمالها، بل تستقل عنه أثناء الكتابة. فهو يكتشف «أسرار الصنعة» وهو يعمل لأن الرواية توجهه. فهو يكتب الفصل أو الفقرة ثم يتوقف لأن الشوط الذي قطعه ورضي عنه في البداية يخبره الآن أن الإضافة الجديدة لا تصلح لأنها سردية مملة أو تقريرية لا تصلح إلا في مقالة. تقول له الرواية: أين المشاهد الحية، وتعدد وجهات النظر بين شخصيات لكل منها وزنه ومطالبه؟ أين الصراع، وأين الدراما؟ وكيف تنسى أن الحوار ينبغي أن يكون مثيرا للاهتمام أو موحيا ذا دلالة أو كاشفا عما في النفوس؟ ولا ينبغي إذن أن يخلو من الفكاهة أو المفارقة أو التحولات المفاجئة المثيرة للدهشة. والجو الذي تدور فيه الأحداث، أفلا ينبغي أن يكون شاعريا أو مظلما أو منذرا بالخطر؟ ولا تنسَ أمر اللغة: ينبغي ألا تسير على وتيرة واحدة، فهي ملتصقة بالأرض ونثر الحياة اليومية تارة، ومحتشدة أو محتدمة أو مجنحة تارة أخرى. ويتعين عليك في جميع الحالات أن تضع القارئ المحتمل في اعتبارك، فتسعى إلى إشراكه في عملية التأليف. لا بد للمؤلف أن يترك فجوات هنا وهناك لا يسدها إلا القارئ. الكتابة الروائية الحقيقية تستعين بالواقع ولكن لا تسمح له بتقييدها واستعبادها، تسترجع ملاحظات الكاتب ومشاهداته، ولكنها تنقب فيها عن الأبعاد الخيالية الكوميدية أو المأساوية الدفينة. الواقع كما اكتشف يومئ إلى ما وراء ظاهره، يفتح للكاتب منافذ إلى ما يباينه، والكاتب المجيد هو من يلتقط تلك الإشارات أو يبتكرها.

وتتاح له أثناء الكتابة لحظات من الحياة خارج الزمن، من الخلود. وهو إذن زاهد في حياة الناس راضٍ بمصيره. لقد اهتدى إليه في نهاية المطاف. مصيره هو الكتابة والعيش من أجلها.

مصيره ليس هو البحث عن المغامرات النسائية أو غير النسائية في أوروبا أو أي مكان آخر، فهو مكلف بمهمة أخرى ينبغي أداؤها على خير وجه، والتكليف نابع من داخله ومن صميم حياته منذ كان طفلا. وإذا كانت حياته حافلة بالمصادفات، فإن هذه المصادفات تؤدي إلى نتيجة واحدة ليست من قبيل المصادفة، وهي أنه كاتب. لقد عاش صدفة وذهب إلى المدرسة صدفة وأحب القراءة صدفة، ولكن الكتابة أمر ضروري في حياته. هي تعبير عن تغربه الدائم واعتراف بالجميل الذي أسدي إليه واحتفال بكل تلك المصادفات السعيدة. وليس عليه أن يأسى كثيرا بسبب وحدته، ولا أن يبحث عن أي إشباع عاطفي أو جنسي. فسلوى ما زالت هناك، ولن ترفضه عند عودته تائبا، وسترضى بمرافقته وتأييده. المهم أن يعود وقد اكتملت الرواية. أجل، كانت الرواية موجهة من أولها إلى آخرها إلى ذات الشعر الأحمر والرداء المخملي.

في بعض الليالي كانت حمى الكتابة تستولي عليه فلا ينزل سريره عن وضعه القائم إلا في الثالثة أو الرابعة صباحا، وهو لا يأوي إلى الفراش قبل أن يضع أسطوانة على لاعبة الموسيقى..الموسيقى كما كان يقول لنفسه هي مكافأته في آخر يوم العمل. ولم يكن يوم العمل ينتهي عند دخول السرير لأن عملية التأليف قد تستمر أثناء النوم، فهو يضيف ويحذف؛ وقد يجد حلا لمشكلة واجهته أثناء اليقظة أو تطرح عليه مشكلة جديدة؛ وهو يرى السطور والفقرات أمام عينيه، ويحاول أن يزحزح بعضها عن مكانه فيطيعه أو يستعصي عليه. وهو سعيد بعبوديته. ومن وراء السطور والصفحات تعلن الموسيقى عن نفسها أحيانا – فهي لا تفارق وعيه؛ وقد تطفو صورة سلوى في

ثياب البحر بين الرمل والماء الأزرق والسماء، أو محتمية بحضنه من الخوف والحزن، فكيف تخلى عنها؟

في أواخر سنة الليسانس نبهته إلى أن الأوان قد آن لكي يتقدم لخطبتها بصفة رسمية: «العيله بتعتبرك خطيبي، وعمرهم ما اعترضوا على خروجنا سوا، وعارفين إن احنا بنحب بعض. ما فاضلشي غير إن الموضوع يبقى رسمي». كانا عندئذ يجلسان ليلا على النجيل تحت شجرة بالقرب من ترعة الإسماعيلية. وقال: «لكني عاوز بعد الليسانس أسافر علشان أدرس في السوربون». قالت: «هايل. أسافر معاك، إيه المشكله؟». فأجاب: «إنتي عارفه إن الحياه في فرنسا مش حتكون سهله بالنسبه لطالب ما معاهوش حاجه. عندي أمل إني أروح ومعايا مبلغ بسيط من عمي سالم أو من ماريكا، بعد كده كله حسب التساهيل». قالت: «أنا مستعده أعيش معاك في فرنسا حتى لو كلنا عيش حاف»، وبكت: «إنت حبيبي.. أرجوك ما تسيبنيش هنا لوحدي». وحاول أن يطيب خاطرها، فقال: «طيب. نأجل الموضوع سنه. أسافر أنا لوحدي، واستقر في الدراسه والسكن، وأرجع أخطبك ونسافر سوا».

اختمرت في نفسه فكرة السفر إلى باريس أثناء إقامته في القاهرة التي وجدها أعظم وأجمل مما كان يتخيل، تضاءلت بجانبها الإسماعيلية ناهيك عن أبو كبير. كانت رائعة في أحيائها الإسلامية القديمة، ورائعة في أحيائها العصرية. وهي في هذه الأحياء الأخيرة تطل على أوروبا وتشير إليها بإلحاح. الإسماعيلية بدورها كانت تطل في بعض أجزائها على أوروبا، ولكن القاهرة هي المدينة الحافلة بالمعرفة والثقافة. القاهرة لها

روح مستقل وليس مستعارا من أحد حتى في أجزائها العصرية. طبعت كل شيء بطابعها وما زالت على عهدها تفتن الناس بوصفها حاضرة الدنيا كما فتنت ابن خلدون.

وفي قسم الاجتماع كان زملاؤه من الطلاب المتفوقين يعتقدون أن المجد كل المجد هو نيل دكتوراه الاجتماع من السوربون كما فعل بعض أساتذتهم في الماضي. فكيف لا يكون واحدا منهم وهو الذي تعرض لإغراء أوروبا منذ طفولته؟ ربته ماريكا اليونانية وعلمته لغة أهلها كما علمته الفرنسية في سن مبكرة؛ وعرف في الإسماعيلية حي الإفرنج والبلاج الفرنساوي؛ وأتاح له سالم - دون أن يدري ورغم أنفه – كل تلك الروايات المترجمة عن الإنجليزية والفرنسية. ولكن الاقتران بسلوى سيشده إلى الماضي وسيغلق دونه أبواب المستقبل. لم تحصل على تعليم جامعي، ولم تتقن أي لغة أجنبية، وستكون معتمدة عليه تماما إلى أن تتأقلم - هذا إذا تأقلمت.

قالت ماريكا: «كلام فارغ. لا يمكن أن ترفض البنت لأنها لم تحصل على شهادة جامعية. وما هي قيمة الشهادة الجامعية؟ أنت تعلم أنني توقفت عن الدراسة وكنت أتطلع إلى الالتحاق بجامعة أثينا، ولكنني طرحت كل شيء جانبا واكتفيت بشهادة إتمام الدراسة الثانوية عندما ظهر عمك سالم في الأفق». وبلهجة في غاية الرقة: «إنت يا حبيبي لست محتاجا إلى شهادات في حالة سلوى. هذه البنت تقدسك، وسترعاك، وستعينك في الغربة وتقف معك في الأوقات الصعبة. ما قيمة الشهادات مقارنة بتلك المؤهلات؟ اترك الشهادات جانبا، فهو نقص يمكن تعويضه، وإذا لم يعوض فسيكفيكما الحب والولاء...». ولكن كان هناك اعتبار

آخر يخفيه ولا يفصح عنه، وهو أن سلوى ستحول بينه وبين خوض المغامرة الأوروبية بحرية. المغامرة الأوروبية.. ذلك هو الإغراء الأعظم.

الغريب أنه كان يدرك أنه يعيش تجربة تشبه ما حدث لبطل رواية «أديب» لطه حسين عندما تعرض لنفس الإغراء – إما زوجته أو الفوز ببعثة إلى فرنسا - وقرر التضحية برفيقة حياته لكي ينعم بالحرية الكاملة في خوض التجربة الأوروبية دون عائق. ويخيل إليه أن ذلك البطل عقد صفقة مع الشيطان مثل فاوست، وكان عليه أن يدفع الثمن الباهظ. (هل كانت قصة فاوست حاضرة في ذهن طه حسين عندما كتب روايته؟). ومع ذلك، فقد قرر التضحية بسلوى. كانت بين ذراعيه مستسلمة لحضنه بشعرها الغزير ولينة دافئة في فستانها المخملي وملمس ثدييها على ساعده. وكانت في وضعها ذلك مطمئنة إليه تماما، مستسلمة له تماما؛ فلو أنه طلب منها أي شيء لأعطته إياه عن طيب خاطر. لحظة من الصراع الحاد عاشها بالقرب من ترعة الإسماعيلية يتأرجح بين من سكنت إلى حضنه مستنجدة به وبين أوروبا. كان يضمها ويلثم شعرها بينما ينزلق ببطء ولكن على نحو مطرد نحو هذا الخيار الأخير فقرر أن يماطل. ثم حسم الأمر عندما نجح في امتحان وزارة الخارجية والتحق بالمعهد الدبلوماسي تمهيدا للسفر في إحدى البعثات الدبلوماسية. عندئذ أسقط فكرة الدراسة في السوربون. قال لنفسه إنه ضل طريقه عندما التحق بقسم الاجتماع – كان ينبغي أن يدرس الفلسفة مثل صديقه بيومي – وإنه لا يصلح للحياة الجامعية على أي حال، ولكنه لم يسقط فكرة التخلي عن سلوى.

كيف تخلى عنها؟ ظهورها في حياته كان إحدى المصادفات العجيبة السعيدة. بل إنه ليدهشه الآن أن كل ما جرى بينهما كان تمهيدا لارتباطهما. هي التي هدته إلى مستقبله منذ رأته في قريته مع مجموعة من الصبية فوضعت يدها في يده وقادته إلى ماريكا؛ وهي التي كان يلعب معها لعبة «البيوت» محاكاة للحياة الأسرية ويختارها دائما لتكون زوجته فتنام في حضنه. وهي التي أحب غيرها، وإن بقيت قائمة دائما في حياته، تتوارى لفترة ثم تعود إلى الظهور لتذكره بنفسها وتدعوه. كانت ما زالت طفلة – في المرحلة المبكرة من مراهقتها – عندما أهدته مجموعة من الصور: إحداها وهي في زي الكشافة مرتدية البيريه، وثانية وهي في مايوه أسود، وثالثة وهي تجلس على حافة نافذة في ثوب فضفاض أسود يبرز شقرتها وحمرة شعرها. تدعوه وتثبت له وفاءها وهو غافل عنها منصرف إلى غيرها، فكيف سولت له نفسه أن يتخلى عن حبيبة طفولته وصباه؟ هل كان الشيطان حاضرا معهما في تلك الليلة بالقرب من ترعة الإسماعيلية؟

* * *

في نهاية خط المترو رقم واحد مبنى يؤوي حماما للسباحة مع كامل مرافقه. ذهب إليه في يوم سبت وقرر أن يفيد من كل التسهيلات المتاحة، فاشترى أغلى تذكرة من السيدة التي تبيع التذاكر في مكتب خلف شباك، وهبط بعد خلع ملابسه إلى طابق أدنى ليجد نفسه في صالة رئيسية تتفرع منها منافذ إلى كل المرافق. ولكنه ما إن فتح أول باب ليدخل تلك الصالة حتى توقف وفغر فاها وأغمض عينه الحولاء ليحدق بالعين السليمة. ثم مس حاجبيه كأنما كان يمسح قطرات عرقه ولم يكن عرقان. كان

الرجال عراة «زلط ملط»، وكان هو الرجل الوحيد الذي يرتدي مايوه، أو بنطلون شورت بالأحرى.

ولاحظ على الفور أنه أصغر الموجودين سنا. وانتابته قشعريرة عندما رأى أحدهم مبتور الساق يستند إلى عكاز. ثم رأى رجلا آخر يرقص تحت الدش، كان يضحك كاشفا عن سقوط أسنانه الأمامية ويهز خصيتين متدليتين على نحو فاحش. قصير لم يبق له الصلع إلا شعرات معدودات ولا بد أنه كان يناهز الثمانين. وتلفت حوله، لماذا لا يجتذب هذا المكان الجميل إلا الطاعنين في السن؟ أين الفتيان، وأين الفتيات؟ ثم استدرك: كيف يطرح على نفسه هذه الأسئلة السخيفة؟ من الواضح أن المكان مخصص للرجال وللرجال الذين لا يريدون أن يموتوا. وخير للنساء ألا يرين هذه المناظر وإن كان ذلك لا يحل مشكلته؛ فهو ما جاء هنا ليتفرج على حيوانات هذه الغابة. وأخذ يدور في أرجاء المكان ويحاول أن يتعزى بما فيه من مزايا: حمام للبخار، وغرفتان للساونا، وبركة تسمى «البركة الدافئة» للاسترخاء على مرأى من النباتات التي أقيمت في وسطها، وحوض للجاكوزي، وغرفة باردة لمن يفضل جوا يشبه جو الشارع.. روضة من رياض الجنة إذن ولكن بلا حوريات. فليبحث عن حمام السباحة فقد يجدهن هناك.

وفي حمام السباحة رأى إلى يمينه صفا من الفتيان والفتيات مستلقين على مقاعد طويلة وليس منهم من يسبح. بل وليس منهم من يحدث الآخر. بعض الفتيان في غاية الوسامة ولكن ليس منهم من يبدي اهتماما بالفتيات، وبعضهن شديدات الحسن ولكنهن منصرفات عن الفتيان. يبدو إذن أن رواد المكان إنما جاءوا

لينشدوا الهدوء والاستجمام. وعجب لأهل فيينا كيف يجعلون للمبنى من الداخل قبة من الزجاج الملون ويقيمونه على طوابق وأعمدة وشرفات كأنه قصر أو كاتدرائية. والأعجب من ذلك الهدوء المطلق. أين زعيق الأطفال وصياح النسوان؟ أهو مكان للرياضة أم للعبادة؟ وتذكر ساعة قضاها في أحد نوادي القاهرة. لم يكن في المسبح مكان يسبح فيه من كثرة السابحين ولم يكن ثمة مكان يجلس فيه؛ فقد ضُرب حول المسبح نطاق من البشر منهم أسر جاءت بغدائها في الأواني التي طبخ فيها فضلا عن البطيخ والشمام.

وعندما نزل إلى الماء وجد نفسه مع أطفال ورجال مسنين بيض الشعر وامرأتين في عمر جدته. وفي طريق العودة إلى غابة القرود فتح بابا فما إن دخل حتى كاد يرتطم بامرأة شقراء. كانت عارية بدورها كما ولدتها أمها، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ووقف أمامها مبهوتا. إذن فالنساء مسموح لهن بدخول هذا المكان!؟ يا للعار! ومسموح لهن بالتعري ورؤية تلك الأجساد القبيحة ما بين أغلف ومختون؟ تناهز الخمسين من عمرها؛ وتحمل منشفة لا تستر منها شيئا، فهي لا تستخدمها ولو كورقة توت. وتوقفت أمامه بدورها وتفحصته طولا وعرضا؛ وإنه لمن حسن الحظ أنه كان مستور العورة. وابتسمت له وحيته بالتحية المألوفة في النمسا: «السلام والتحية لله»؛ ولكنه أشاح بوجهه وانصرف.

ووجد نفسه حائرا بين الكروش الضخمة والملامح التي شوهتها الشيخوخة، والسيقان التي لم تعد تقوى على حمل أصحابها والأطراف المبتورة والأيدي التي ترتعش. فألقى بنفسه في حوض

الجاكوزي وأغمض عينيه مستسلما لدوامات الماء تترجرج على عضلاته وتدغدغها. يا لسخرية القدر! لم يكن يعلم وهو يكتب روايته الأولى ناعما بسعادة الإبداع وتجاوز حدود الزمان، أن ثمة زلزالا رهيبا يستيقظ في غفلة منه ويستجمع قواه قبل أن يضرب ضربته الكاسحة. فعندما عاد إلى مصر وجد أن سلوى قد تزوجت. صار يترنح داخل نفسه من هول الصدمة، وسالت دموعه بين يدي ماريكا، وقالت: «حذرتك ولم تستمع إليَّ». وأخبرها أنه ندم في فيينا على التخلي عن الفتاة وعاهد نفسه على إصلاح خطئه عند عودته في أول زيارة إلى مصر، وها هو قد عاد فلا يجدها. قالت ماريكا: «كان ينبغي إذن أن تكتب إليها وتعلن لها نواياك. لماذا لم تكتب إليها؟ انتظرتك طويلا حتى فقدت الأمل فيك. انتظرت أن تعود إلى صوابك عندما عينت وأصبح الزواج في مقدورك، وانتظرت أن تتخذ الخطوة الصحيحة. ولكنك سافرت دون أن تتلقى منك ما يدل على أنك راجعت نفسك. خطاب واحد منك كان يكفي لشفائها من اليأس. ولكنك لذت بالصمت، ورضيت هي بأول شاب يتقدم لها، ولا يمكنك أن تلومها، وإن كنت أنا ألومها: كان ينبغي أن تتروى، ولكن المسكينة أصابها اليأس».

توارت سلوى طيلة سنوات، لم تعد تشغل حيزا كبيرا من اهتمامه. كان يراها دائما، وتذكره بين حين وآخر وعلى نحو أو آخر بوجودها. ولكنه كان منصرفا عنها إلى غيرها، كأنها كانت زهرة تنمو في الظل ببطء منطوية على أنوثتها التي تنضج على مهل قبل أن تظهر للعيان يانعة. ثم خرجت فجأة ذات يوم من الظل في كامل بهائها. حدث ذلك في البلاج الفرنساوي عندما كانا يسيران على شاطئ البحيرة، ورآها تقفز إلى الماء وتخوض في

المياه العميقة – كانت تجيد السباحة - وتشير إليه من بعيد تدعوه إلى أن يلحق بها، وهو لا يجرؤ على السباحة إلا في المياه الضحلة. ونادته فظل واقفا في موقعه الآمن من البحيرة فلا يصل الماء إلا إلى أدنى صدره. وعادت إليه ليحزم أمره ويتغلب على خوفه من الماء: «إيه حكايتك يا مدحت؟ إنت بتعرف تعوم، مش ناقصك غير إنك تتجرأ». قال: «ما انتي عارفه العوم في الترع، هوه ده اللي تعلمته في بلدنا». قالت: «هوه عوم الترع ده عوم؟ دي اسمها بلبطه. تعالى معايا. بس جرب». وأمسكت بيده ورأته يرتجف، فخرجت من الماء وعادت بطوق للنجاة من المطاط، وسارت به نحو المياه العميقة فتبعها. وقالت: «أنا عاوزاك تسيب الطوق وتنام على ضهرك؛ عاوزاك تبقى مسطح تماما ومادد دراعاتك كل واحد في ناحيه وما تتحركش. ما تخافش أنا معاك». فأطاعها بعد تردد، وتشجع عندما وجد أنه يستطيع الطفو بسهولة طالما بقي على وضعه ذاك. وطلبت إليه أن يقف في الماء ممسكا بالطوق فوقف. وقالت: «ودلوقت عاوزاك تسيب الطوق بس تحرك رجليك وإيديك زي ما انا بعمل كده». فحاول أن يحذو حذوها ففقد توازنه وأشرف على الغوص، فأمسكت به: «قلت لك حرك إيديك ورجليك ما تبطلش، وما تحاولشي تلمس الأرض بطراطيف صوابعك». ووجد ذراعها ملتفة حول خصره، ورأى لصقه سلوى لا يعرفها، لم تعد تلك الطفلة النحيلة النمشاء. فانتهز الفرصة وطبع قبلة خاطفة على وجنتها. فنهرته: «يا قليل الأدب، يعني أشتكيك لطانط ماريكا؟». واضطر إلى الاعتذار، واستأنفا درس السباحة. وعندما تمكن من تنفيذ تعليماتها، قالت: «ودلوقت عوم وما تخافش. أنا معاك، والطوق موجود إذا احتجت له». وعامت فعام بجانبها دون مساعدة حتى بلغا الشاطئ.

وها هي قد خرجت من الماء فتاة في ريعان الصبا. تسير إلى جانبه وتلمس كتفها كتفه وتهز رأسها لتنشر شعرها الأحمر المبلل. كأنها مهرة تهم بالانطلاق. كأنما كانت تدخر فتنتها له. والمايوه الأسود – كانت تحب اللون الأسود- يضيق بجسدها. وخرجا من البلاج دون أن ينطق أي منهما بكلمة، كأنما كانا يعلمان أن هناك أمرا ما ينتظرهما في الخارج. وسارا على الطريق المسفلت ثم خاضا في الرمال، ثم توقفا في وقت واحد صامتين بين الرمال الصفراء والسماء والبحيرة، والأمر الذي ينتظرهما كان معلقا في الجو كأنه طائر يحوم فوقهما، يحوم ويدوِّم إلى أن واجهته وتقدمت منه والتصقت به فكانت قبلتهما الأولى، وأعقبت القبلة الأولى قبلة أخرى أطول وأعمق لتروي الظمأ الذي ثار واشتد. لم يكن يعلم يومذاك أن التقبيل يعني من بين ما يعني ارتشاف الريق والاعتراف بالحب عن طريق الشفتين، فمتى وكيف أتقنت سلوى هذا الفن؟ ولم لا؟ ألم يقل كيركجارد: «إن الله منح الرجل الكلام، ولكنه منح الفتاة فصاحة القبل؟». ما أفصحها! كيف تخلى عنها؟

كان لسالم رأي آخر. قال له: «ولا يهمك. نخطب لك بنت الأستاذ حسين أسعد. البنت حلوه ومعاها بكالوريوس صيدله وبنت ناس، وأبوها صاحبي». وكانت الإجابة: «ما فيش مانع. بس انت عارف إن انا مش هقبل اتجوز بالطريقه التقليديه. لازم اتعرف على البنت قبل ما يحصل أي ارتباط». ورد سالم: «ولا يهمك. هنروح نتعرف على العيله، وبعدين يزورونا ونزورهم وتشوف البنت مره واتنين، وبالتدريج يمكن نقدر نقنعهم بإنكوا تخرجوا سوا ولو مع أخ أو أخت من اخواتها، ولو مؤقتا في البدايه. إنت

عارف التقاليد المصريه. فواحده واحده وناخدها بالهداوه. وبعدين يفرجها ربنا».

ولقيا ترحابا بالغا في بيت الأستاذ حسين أسعد، وساد على الفور جو من الاحتفال لا تخطئه العين. فجاء إلى غرفة الجلوس أم سنية وإخواتها: بنتان وفتيان. ودخلت سنية في فستان طويل تحمل الشربات. بدا واضحا أن الأسرة كانت على علم بالغرض من الزيارة، وموافقة تماما. قال الأستاذ حسين موجها الحديث لسالم: «إنت عارف إن ابنك الأستاذ مدحت زي ابننا، ويا أهلا وسهلا بيكم». وأضاف بعد تناول الشربات: «بس مش نقرا الفاتحه؟»، ومد إليه يده لقراءة الفاتحة، فنظر إلى سالم مستغربا – ألم يتفق معه على ألا يكون هناك اتفاق رسمي قبل تبادل الزيارات وما إلى ذلك؟ - لكن سالم مال نحوه هامسا: «مد إيدك»، فلم يجد بدا من وضع يده في يد الأستاذ حسين. وقرئت الفاتحة، ونهضت أم سنية فزغردت. وجاء أخوها الأكبر بكاميرا: «لازم ناخد صوره». ووجد نفسه واقفا أمام الكاميرا بجانب العروس التي وضعت ذراعها على كتفه، فأحاط خصرها بذراعه من باب المجاملة. وقال سالم: «طيب. ربنا يتمم بخير، بس مش نتكلم في المهر؟»، فكان جواب الأستاذ حسين حازما: «مهر إيه وبتاع إيه؟ ما فيش بين الخيرين حساب؛ دا احنا نجهز له البنت ونوديها له لغاية البيت، دا مدحت ده ابني».. حدث كل شيء بسرعة وشعر كأنه يسير وهو نائم.

وفي طريق العودة إلى المنزل ذكّر عمه سالم باتفاقهما، فقال: «إنت اتجننت ولَّا إيه؟ معقول تروح تخطب بنت من أهلها وتشترط إنك تخرج معاها لوحدها؟ فيه حد يقبل كده؟»، وتعجب:

سالم – الذي استولى على ماريكا رغم أنف أهلها - يتهمه الآن بالجنون لأنه أراد أن يتعرف – مجرد تعرف - على البنت بمعزل عن الأسرة. كان يريد أن يعترض، ولكن لم يجد في نفسه من القوة ما يمكنه من الاعتراض. أما ماريكا، فقد اعترضت واستنكرت ورفضت الموضوع بأكمله. قالت إن قراءة الفاتحة ليست إلا إعلانا للنوايا، ولا تعني الالتزام النهائي، وإن بإمكانه فسخ ذلك الاتفاق المهزلة والتنصل منه بسهولة: «الناس بتغير رأيها بعد الفاتحه – ما هياش عقد - والناس حره». ولكن كلامها لم يؤثر عليه. كان يائسا وخائر القوى، كأنه كان ينتحر. إذا كانت سلوى أصابها اليأس، فهو يائس بدوره.

وأخذ يتساءل من جديد: هل كان فاوست بطل جوته ماثلا أمام طه حسين عندما كتب روايته؟ القصة قديمة ولكنها لا تفتأ تتجدد. الشيطان حاضر دائما ومستعد لعقد الصفقات. حاضر لدى دستويفسكي في «الإخوة كرامازوف»، ولدى نيتشه الذي كان في غزل دائم مع الشياطين رغم زهده، وأصابه الزهري بالجنون بعد زيارة يتيمة إلى ماخور، ولدى توماس مان عندما ألف «الدكتور فاوستوس»، فالموسيقار العظيم بطل القصة كان زاهدا بدوره ولكنه تحالف مع الشيطان كي يُعدى بمرض مماثل ويصاب بالجنون. وهل كان الشيطان ثالثهما هو وسلوى عندما جلسا بالقرب من ترعة الإسماعيلية وتوسلت إليه ألا يرحل بدونها؟ لا بد أن مفستوفيليس كان حاضرا يوسوس له ويعده بما يشاء من الأوروبيات. إذا كان ذلك هو ما حدث، فإن وعد الشيطان لم يتحقق. أمضى ما يقرب من العام في فيينا دون أن يلمس امرأة واحدة، وعندما عاد إلى مصر صفر اليدين ولم يجد حبيبته في

انتظاره أصابه الجنون؛ فارتضى لنفسه زواجا مدبرا من مصرية وفقا للتقاليد المصرية العريقة وللشروط التي فرضها أبوها.

وكف الماء عن القرقرة فخرج من الحوض الدافئ وانتقل إلى الساونا، حيث كانت ألسنة الحرارة تلسع الأجسام العارية التي يتفصد منها العرق. وخطر له أن منظر الإنسان بذيء على أي حال، وتذكر مسار الشيخ خيرت من غرفته إلى المراحيض، كما تذكر الفئران الليلية في جامع أبو كبير. من رحمة الله على البشر أنهم - على خلاف القرود - اكتشفوا الملابس. وهل يمكن أن تتخيل ملكا يحكم أو رئيسا يدير شؤون البلاد، أو قاضيا يجلس إلى المنصة ليقيم العدل أو خطيبا يستنهض الهمم وهو عارٍ؟ أليس مرآه مقبلا أو مدبرا كفيلا بإفساد كل شيء؟ وهل يستطيع الأعضاء في نوادي العراة أن يقول بعضهم للبعض الآخر شيئا ذا بال؟ وخيل إليه أن أولئك القردة الذين يدورون في المكان على غير هدى قد تدب فيهم فجأة نوبة من الهرج والمرج؛ وإذا هم يتصايحون ويتدافعون ويكشر كل منهم عن أنيابه لأنهم يتنازعون على الأنثى الشقراء - رغم دمامتها. ولن ينفض النزاع حتى يبرز منهم أقواهم مفتوح الخياشيم حاد الأنياب والشرر يتطاير من عينيه. عندئذ يتفرق المنافسون وتستكين الأنثى لسيد القطيع. منظر يندى له الجبين.

كانت سنية هي العقاب الذي جوزي به لمدة تزيد على عشرين سنة. حكم بالمؤبد. مرت السنة الأولى من الزواج بسلام نسبيا. فقد عاهد نفسه أن يقطع صلاته بالماضي وينسى سلوى ويتجاهل الملابسات والحيل التي أحاطت بزواجه، ويغض الطرف عن مكر الأستاذ حسين أسعد. عند قراءة الفاتحة رفض الرجل تماما

مناقشة موضوع المهر. ثم ظهرت للموضوع أبعاد أخرى بعد أن سمح له بالخروج مع سنية وحدهما. قضيا أمسية في كازينو بالقرب من الميناء وشربا عصيرا ووضع يده على ظهرها فارتجفت. وأخذت أم العروس تطالب بإنهاء فترة الخطوبة وكتابة عقد الزواج. عندئذ رأى الأستاذ حسين أن يكون المهر عشرة آلاف جنيه، وأن يشتري العريس شقة في الإسماعيلية تكتب ملكيتها لسنية، وبرر ذلك بأن بنته ستتغرب وأن وجود شقة باسمها سيكون ضمانا لمستقبلها لو حدث شيء «لا قدر الله». فماذا يفعل؟ يستطيع أن يدبر مبلغ العشرة آلاف جنيه، ولكنه إذا فعل ذلك لن يكون في إمكانه تدبير ثمن الشقة. عندئذ اقترح الثعلب العجوز ما عده حلا سهلا، وهو شراء شقة يجري بناؤها في عمارة يعرف مقاولها، وفي هذه الحالة يُدفع ربع الثمن (عشرة آلاف جنيه فقط) على أن يقسط الباقي على مدى سنتين ونصف يتم خلالها البناء. وكان هذا الاقتراح مصدر حيرة بدوره. من أين له بهذا المبلغ؟ وهنا تدخلت ماريكا. قالت: «أنا ضد الجوازه دي، وشروط الراجل المكار ده يجب ترفضوها وتكون فرصه للانسحاب»، وصاحت فيه: «إنت مستعجل على إيه؟ ما بكره تلقى عروسه أحسن منها. إيه المشكله؟». واستنكر سالم هذا الرأي: «يعني احنا قرينا فاتحه. عاوزانا نرجع في كلامنا ولّا إيه؟». عندئذ وجدتها ماريكا فرصة سانحة «لتدبيسه» على حد تعبيرها فيما بعد، فقالت: «يبقى انت يا سالم تدفع المبلغ المطلوب، اعتبره هديه لمدحت». وأسقط في يد سالم، فلم يستطع التراجع.

ولما ولد أول طفل – وكان بنتا – ظهرت على سنية بوادر تشي بالاكتئاب – إن لم يكن النفور. ما الذي حدث إذن؟ كانت لذلك

مقدمات منذ البداية. يبدو أن للأجساد حاسة تميز بها بين الرفيق الحقيقي والرفيق الزائف. يبدو أن سنية وجدت – دون أن تعي ذلك في البداية – أن جسد زوجها يمثل عليها دورا. ويبدو أن جسد الزوج اكتشف أن زوجته لا تستسلم له إلا على مضض. ألم تكن تعرض عن تقبيله إلا إذا أصر؟ لا حب بدون قبل. القبلة الأولى التي منحته إياها سلوى بالقرب من بحيرة التمساح قادت الجسد إلى الجسد والنفس إلى النفس، فانقاد الجسدان والنفسان.

وترامت إلى سمعه أطراف من الحديث الذي يدور في الساونا، ولكنه رفض أن يصغي. هل ينبغي أن يلوم سالم على ما حدث كما فعلت ماريكا؟ ليس باستطاعته أن يفعل ذلك. لا يمكنه أن يتهم الرجل بسوء النية. يخيل إليه أن الرجل غير موقفه منه بعد أن أبعده وخلصت له ماريكا - فيما يبدو. وانعقد بينه وبين سالم صلح صادق. وأصبح سالم فخورا به لأنه نجح في الدراسة ودخل الجامعة. وصار يشتري له أفخر الملابس عندما يزور الإسماعيلية ويسخو عليه بالنقود: «بس ما تقولشي لماريكا»، هكذا كان يوصيه. وكانت ماريكا تعطيه ولكنها تقول: «بس ما تقولشي لعمك سالم». أصبح إذن هو الطفل المدلل، والحقيقة أنه أحب سالم منذ البداية، وما زال يحبه رغم أنه قسا عليه.

ولو أنه كتب قصة سالم مع ماريكا لجعل الخوف من السم تِيمة أساسية وأمرا له ما يبرره. كانت سنية تهدده دائما بالسم: «وما تنساش إني خريجة صيدله». هكذا كانت تردد، فكان لا يأكل الطعام الذي تقدمه إلا ويشعر أن ما أكله قد يكون آخر وجبة في حياته. ثم قل ما يأكله من طعام البيت، وأصبح يتناول غداءه في أي مكان قريب من المكتب، ويقنع في المساء بسندوتش يعده

بنفسه ويتعلل بأنه لا يشعر بجوع شديد، ولكن الشعور بالأمن تبدد تماما. أصبح يعيش على كف عفريت. وأبناء الكلاب هؤلاء لا يكفون عن الشوشرة. ماذا يجري في الساونا؟ وما سر هذا الهرج والمرج؟

وأصغى فأدرك أن المكان ملتقى لقدماء المحاربين. هناك رجل يدعى «السيد الجنرال»، قصير القامة ضخم الجثة يتدلى كرشه على فخذيه وتنتشر على ساقيه عروق زرقاء بارزة، وتنبثق من جسمه كريات متورمة. لا يقوى على حمل نفسه ولكنه لا يكف عن الحركة. لا يكاد يجلس دقيقتين حتى ينهض ليرش المدفأة بسائل معطر، أو يخرج ليملأ زجاجة بالماء ليرش به الحديد الساخن لأن المدفأة فيما يقول قد بردت. وهو يزأر ويزمجر ويلوح بساعده المبتور الكف: «انظر يا فلهلم إلى هذه المهزلة. هل رأيت مثل هذا النظام في أي بلد من بلاد العالم؟ إنهم يطفئون الكهرباء كل خمس دقائق لأنهم يريدون للساونا أن تعمل وفقا لدورة صارمة. تبدأ الحرارة بالتدريج حتى إذا بلغت أقصاها انفتح صنبور ليرش المدفأة المتوهجة بالماء، فتسري في الجو موجات من الحرارة اللافحة. ثم تطفأ الكهرباء وتبرد الساونا بالتدريج وتصبح غير صالحة للاستعمال». ثم يصيح: «لقد جئنا هنا يا فلهلم لنتدفأ لا لنعاني البرد، سننا لا تسمح بذلك، وقد عانينا في شبابنا ما كفانا من البرد على الجبهة الروسية يا فلهلم. أليس كذلك؟ إذن لماذا يستخدمون هذا النظام السخيف؟ ولماذا لا تظل درجة الحرارة ثابتة؟ وما قيمة هذا الصنبور الذي يذكرني بكلب يتبول؟». وفلهلم الذي يخاطبه الجنرال رجل أصلع نحيل ضامر يهتز فرقا من زئير القائد، ولا يكف عن إبداء آيات الولاء والطاعة: «أنت على حق يا سيدي الجنرال. البرد غير محتمل

في سننا يا سيدي الجنرال. الصنبور مهزلة يا سيدي الجنرال. دعني أخرج لأملأ الزجاجة ولا تزعج نفسك يا سيدي الجنرال».

ولم يسد الهدوء إلا عندما انفتح الباب عن فتاة ملتفة في بشكير أبيض يمتد من فوق النهدين إلى أسفل الركبتين. وارتاح لمرآها: ها هي أخيرا فتاة لا بد أنها من عائلة كريمة أحسنت تربيتها. فتاة تحترم أنوثتها ولا تنشرها على مرأى من اللئام. ولكن ما الذي أتى بها إلى مثل هذا المكان؟ كيف وهي الفتاة الرقيقة فيما يبدو تلقي بنفسها وسط هذا القطيع من الحيوانات الداعرة؟ كان منهمكا في هذه الأفكار مستسلما لعطر اليوسفي الذي يضوع من المدفأة عندما سمع صوت الجنرال ينهره:

- وأنت أيها السيد، كيف تدخل الساونا مرتديا الشورت؟ ألا تعلم أن هذا ممنوع؟

فرد في وجل:

- أهو ممنوع حقا؟

وارتفع زئير الجنرال:

- هذا أمر بديهي.

وهمّ بخلع الشورت - فهو لم يأتِ إلى فيينا لينازع أهلها في تقاليدهم - لولا أن الفتاة تصدت للجنرال. قالت مستنكرة:

- من الذي قال إن العري في الساونا إجباري أو بديهي؟

وتلجلج الجنرال قبل أن يقول:

- أمر بديهي بطبيعة الحال؛ فالثياب - أي ثياب - تحمل الجراثيم.

فردت الفتاة على الفور:

- فلماذا أتيت ببشكير تجلس عليه؟ ألا يحمل الجراثيم؟ ولماذا لا تعترض على هذا البشكير الذي أرتديه؟ ألا يحمل جراثيم؟ أليس أكبر حجما من الشورت؟ انظر.

وفي لمح البصر نهضت وفكت البشكير عن جسمها:

- انظر كم هو مليء بالجراثيم.

تجردت فيا لروعة الجسم! كأنه ومضة من برق خاطف. ولم يستطع مواصلة النظر فغض طرفه. وسقط فك فلهلم. ثم قالت الفتاة:

- ومع ذلك أنا أفضل ارتداء البشكير رغم جراثيمه.

وبهدوء لفت البشكير من جديد حول جسمها وجلست.

وبعد فترة من الصمت قال الجنرال:

- كل ما أردت أن أقوله هو أننا جئنا هنا لنتخفف من كل شيء، وأن منظر الشورت في هذه الحالة يبدو نابيا.

فقالت الفتاة:

- وهل يبدو البشكير نابيا؟

وسكت الجنرال ولكن الفتاة لم تدعه يفلت:

- هذا المكان مفتوح للجميع وليس مستعمرة للعراة، أم أنك تعتقد أن الناس يجب أن يتصرفوا كالقطيع؟

صدقت! وطأطأ الجنرال رأسه، ويبدو أن فلهلم أراد أن يخفف من وقع الهزيمة على نفس قائده فنهض ليرش المدفأة بالعطر، وما هي إلا ثوان حتى ضاع في الجو عبير الخزامى ولكن ذلك لم يرضِ الجنرال فعاد إلى الزئير:

- لقد قلت لك مرارا يا فلهلم إنني لا أحب رائحة الخزامى.

أما هو فقد طابت له الرائحة واستسلم لها؛ وجد فيها شيئا من الراحة بعد أن هزه مرأى الفتاة عارية. والغريب أنها جلست هادئة ساكنة بعد ذلك المشهد الباهر، كأن شيئا لم يحدث. وها هو يجلس خلفها على طبقة تعلو مكانها. ولو أنه مال قليلا إلى اليسار لرأى صفحة خدها الجميل. ومال بحذر. خدها ناعم البشرة كأنه لطفل وليد. وعلى الأذن الرقيقة هبطت خصل من الشعر الكستنائي. البشرة لم يمسها مرّ الزمان بسوء. لكن لندع الزمان جانبا ولننعم بمرأى الجمال الذي ما زال يقف صامدا في وجه التغير. ولماذا لجأت إلى التعري في ذلك النقاش؟ كان يمكنها أن تكتفي بما قالت عن البشاكير والجراثيم. كان ذلك كافيا لإفحام

الجنرال ومساعده فلهلم. فلهلم أصابه الرعب على أي حال عندما تجردت. ومع ذلك فقد كان السلاح الذي لجأت إليه فتاكا: ألم يهزم الجنرال بالضربة القاضية؟ وبمثل ذلك السلاح تستطيع الفتاة أن تفوز في أي نقاش. وهي على أي حال استخدمت سلاحها دفاعا عنه. ومن حقها عليه أن يتقدم لها بالشكر، وهو جاهز لتحيتها بانحناءة الرأس والابتسامة اللائقة؛ ولكنها – وا أسفاه ! - لم تلتفت إليه. كأنما أرادت أن يكون وقوفها إلى جانبه دفاعا عن مبدأ وليس لفتة موجهة إلى شخص بعينه. أكثر الله من أمثالها. قامت بالواجب، وإن كنت لا أفهم موضوع التعري. وهي حورية. هناك في هذا الجحيم إذن ركن صغير مخصص للجنة. وكان هناك ركن مماثل في أبو كبير. كانت أمل – ذات البيريه الأخضر - تمر كل يوم أمام نافذته كأنها لفحة من النسيم النقي في بلد موحل علت رائحته دون أن تزعج فيما يبدو أحدا سواه. كان يستغيث بالرحمن أن ينتشله من تلك الحمأة حتى أغاثه على نحو ما، فأرسل أمل لتخفف من بلواه - ولو إلى حين. وفي الإسماعيلية كان هناك ركن مماثل ولكنه كان فسيحا يشمل الجزء الأكبر الأخضر من المدينة، وما أكثر الحوريات هناك. سلوى دائمًا وإبتسام في الصباح، وبائعة العطر يوم الجمعة، ومحاسن الحلو مرة في العام، وبنات الإفرنج على دراجاتهن في الشورتات الكاشفة.

ولعل صاحبة البشكير أحسنت صنعا لأنها فعلت ما فعلت دفاعا عن المبدأ فقط. لو أنها التفتت إليه لاستشفت أنه محطم في داخله: دمرته سنية، تركت في نفسه رغم رحيلها شعورا باقيا بالخوف. وإلا لماذا أصابه الذعر أمام الجنرال؟ كان باستطاعته أن يرد عليه بألمانية لا عيب فيها بدلا من أن يهم بخلع الشورت في

خنوع لا يغتفر. أصبح بعد سنية يشعر بالذنب دون سبب واضح. عاش طيلة حياته معها خانعا يتفنن في منافقتها اتقاء لشرها. جبن أمامها حتى أصبح الجبن متأصلا فيه ولكنه نجا في النهاية، انحنى للعاصفة حتى زال مصدرها وما زال هو باقيا.. نجا بفضل جبنه، وبفضل الكتابة.

* * *

رأى وهو يطل من النافذة سيارة مرسيدس بيضاء تتوقف أمام باب العمارة. فلماذا جاء مالك الشقة وقد تقاضى إيجار الشهر منذ أيام؟ إذا كان الغرض من الزيارة إخطاره بإخلاء الشقة بعد شهر – حسب الاتفاق - فسيكون ذلك أمرا مزعجا ومؤلما. الشقة مريحة وفي غاية الأناقة وفيها كل ما قد يحتاجه بما في ذلك التلفزيون ومستلزمات الموسيقى، على أن يدفع تكاليف صيانتها أو استبدالها إذا أصابها ضرر. وأخبره المالك السيد لوبيز عندما راقت له الشقة أن بنته كانت تقيم فيها قبل سفرها إلى باريس لتلحق بصديقها، وأنها قد تعود في أي لحظة، وهذا ما يرجوه لأنه غير راضٍ عن تلك العلاقة؛ فإذا حدث ذلك فسوف يخطره بمغادرة الشقة مع إعطائه مهلة كافية للعثور على سكن بديل، ومع الرضا حتى يحين الحين بإيجار مناسب وصفه بأنه «مريح جدا». وتم الاتفاق على ذلك.

وتأكدت مخاوفه عندما فتح الباب فبادره السيد لوبيز بقوله: «آسف لإزعاجك، ولكنني واقع في ورطة». أي ورطة؟ الرجل لا يبدو متجهما، وهو في أناقته المعهودة: المعطف المصنوع من الكشمير والوجه الحليق المعطر والبابيون. وقال: «لا أريد أن

أثقل عليك، ولكني لاحظت اهتمامك بالموسيقى. ولذلك أريد أن أسألك عما إذا كنت ترغب في اصطحابي إلى بعض الحفلات الموسيقية». الحمد لله! ليس هناك إذن ورطة حقيقية، وليس هناك إخطار بإخلاء الشقة. ولكن ما هي المناسبة التي تستدعي تلك الدعوة؟ وجلس السيد لوبيز: «لعلني أخبرتك في البداية أنني كنت مغنيا أوبراليا. درست الموسيقى في فيينا ومارست الغناء لفترة ثم تركته لمرض ألم بحنجرتي، وأكتفي الآن بالتمرين ساعة في الأسبوع، وبكتابة تقارير ومراجعات أرسلها إلى الصحافة في بلادي عما يجري في فيينا من أنشطة موسيقية. أنا الآن مراسل مختص بالموسيقى لبعض الصحف الإسبانية. ولذلك أتلقى كثيرا من الدعوات والتذاكر لحضور العروض الأوبرالية والحفلات الموسيقية».

- جميل. أنا أحسدك. ما هي الورطة إذن؟

- أنا أكره أن أحضر وحدي تلك المناسبات. في الماضي كنت أصطحب زوجتي أو بنتي، ولكن كرستينا سافرت إلى باريس، وزوجتي صارت لا تحب الخروج ليلا، وقد تعودت على أن يكون معي صاحب، لا بد من صاحب.

وضحك:

- لا تكتمل السهرة عندي إلا بالعشاء في أحد المطاعم.. هي عادة إذن، ولا أحب الأكل وحدي. هل هي عادة سيئة؟

- على الإطلاق. عادة حميدة تماما.

وفرك لوبيز يديه في جذل:

- جميل. فهل يناسبك أن ترافقني بين حين وآخر؟ ولك أن تطمئن؛ التذاكر كما قلت مجانية ولكن المشكلة هي العشاء.

- يسعدني أن أصحبك، وتكاليف العشاء لا تعد مشكلة في نظري، إلا أن اهتماماتي الموسيقية محدودة، وثقافتي الموسيقية ليست كما ينبغي.. حصلتها على سبيل الخطف.

- على سبيل الخطف؟ ماذا تعني؟

- أعني... لذلك قصة طويلة، والأفضل أن نطرح ذلك جانبا. يكفي أن أقول إنني في السنوات الأخيرة لم أعد أقبل على الأوبرا ولا الباليه، ولم أعد أحب إلا الموسيقى الخالصة بمعزل عن الغناء والرقص.. موسيقاي المفضلة هي موسيقى الحجرة.

- يا سيدي العزيز كيف تحرم نفسك من بذخ السيمفونية والألعاب النارية في سماء الكونشرتو؟ وكيف تحرم نفسك من الأوبرا وأنت تسمع فيها أحيانا غناء الملائكة؟

- الحقيقة أنني لم أشاهد كثيرا من الأوبرات وأحببت القليل منها. أحببت «لا ترافياتا» على سبيل المثال. وشاهدت «فيديليو» لبتهوفن – وأنا من محبيه - فأصابني الملل. أنا آسف إذا كان رأيي في هذه الأوبرا مستنكرًا في نظرك! ولكن ليس لي في الأمر حيلة. و«دون جيوفاني» هي الأوبرا الوحيدة التي أعجبتني

لموتسارت وشاهدت بعض أوبرات فاجنر، ولكنه لم يرق لي. أنا آسف. لا أستطيع أن أجاريه.

- لا ألومك فيما يتعلق بفيديليو. هي الأوبرا الوحيدة التي ألفها بتهوفن، وخيرا فعل. أما فاجنر، فلندعه جانبا ولو بصفة مؤقتة. وما دمت قد أعجبت بـ «لا ترافياتا»، فرأيي أن نركز على الأوبرا الإيطالية، أوبرا الأغاني الجميلة. وبهذه المناسبة أبشرك؛ في الأسبوع القادم سنذهب إذا شئت لمشاهدة أوبرا «إكسير الحب» لدونيزيتي، وغدا السبت هناك حفلة لموسيقى الحجرة يقوم بالعزف فيها فرقة رباعية وترية من الشبان الهواة، وأنا أعطف عليهم وأحب تشجيعهم لأنهم ممتازون وأهل للتشجيع. ما رأيك؟

وبدأ الحفل برباعية وترية لهايدن تلتها رباعية لموتسارت. وبعد الاستراحة عزفت الفرقة رباعية ثالثة لبتهوفن. وفي الاستراحة سأله لوبيز: «ما رأيك؟ أليسوا جديرين بالإعجاب؟ لا تنسَ أنهم هواة»، فلم يستطع الإجابة لأنه أصبح شارد الذهن عاجزا عن التركيز، بعد أن لاحظ أن وجه عازفة الكمان الثانية مألوف لديه. فأين رأى صاحبته؟ وعندما وقف الموسيقيون على المنصة لينحنوا أمام الجمهور ويتلقوا تحيته أصيب باضطراب عظيم عندما أدرك أن العازفة لم تكن سوى فتاة الساونا. لم يصدق عينيه في البداية، ولكن تأكد لديه بعد تردد أن عينيه لا تكذبان. ها هي بلا أدنى شك تقف أمامه في فستان أسود طويل يكشف عن كتفيها وقد أرسلت عليه شعرها الكستنائي. فستانها الأسود الأنيق ضلله إلى حين.

منذ تلك اللحظة التي بدا له فيها وجه عازفة الكمان مألوفًا لديه انصرف بانتباهه عن الموسيقى إلى العازفة. كيف كان عزفها؟ وكيف كان أداء الفرقة؟ وكيف وجد الموسيقى؟ أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها؛ لأن انتباهه كان مشدودا إلى حركة الذراع الممسكة بالقوس ترتفع وتهبط وتشتد وتهدأ. وتمنى لو استطاع بعد الختام أن يتسلل إلى مقصورتها وراء الكواليس. ولكن ماذا عساه يقول لها؟ وهل سترحب به؟ أرجح الظن أنها ستقابله بفتور، فهي لا تعرفه، ولم تلتفت إليه في الساونا رغم أنها أنقذته من قبضة الجنرال.

وحاول التملص من الدعوة الثانية دون جدوى. لم يدع له لوبيز فرصة للإفلات. ولكنه لم يشعر بالندم عندما شاهد «إكسير الحب»، ولم يخيب دونيزيتي ظنه، وقد أحسن لوبيز الاختيار، ففي الأوبرا بعض الأغاني الرائعة – مثل أغنية التينور عن الدمعة المختلسة – وتأكد لديه بعد العرض أنه يفضل أوبرا الأغاني الجميلة حتى لو قامت على قصة هشة أو افتقرت إلى دراما المسرح الجاد، وظلت لتلك الأغنية أصداء تتردد في داخله طيلة السهرة. ذلك حقا هو غناء الملائكة.

وفي تلك الليلة تعشيا في مطعم متواضع متخصص في لحم البقر الأرجنتيني. وكان العشاء شهيا رغم بساطته: شريحة سميكة مشوية من لحم البقر (ستيك)؛ وسلطة، وخبز، وقارورة من النبيذ الأحمر. وأشهى من اللحم الأرجنتيني أحاديث لوبيز عن الموسيقى. كانت في الواقع دروسا في التذوق الموسيقي على نطاق واسع. وبدا له من خلال تلك الأحاديث أن ما طرأ عليه عبر السنين من زهد موسيقي، واقتصاره على شكل واحد من

أشكال الموسيقى الكلاسيكية – موسيقى الحجرة – كان تعبيرا عن انكماش النفس ودخولها في حالة من الحداد. وكان مطرقا برأسه وهو يستمع إلى لوبيز:

- الموسيقى يا سيدي العزيز شأن إنساني. أنت تعلم أن الموسيقى المتنوعة الرائعة التي نسمعها لا توجد في الطبيعة إلا على شكل موجات صوتية لا ترى ولا تسمع. أما ما نسمعه أو الموسيقى من حيث هي نغم، فلا توجد إلا بوجود الإنسان، لا لأنه يصنعها فحسب، بل لأنها في حاجة إلى حواسه وقدرته على التجاوب معها لكي تتحقق كاملة. الطبيعة بمعزل عن الإنسان تخلو من النغم وإن لم تخل من بنيته التحتية المادية. ونحن إذن مسؤولون عن الموسيقى: ليس لها غنى عنا ولا غنى لنا عنها. وهي إذ تصدح تدعونا إلى المشاركة فيها.

- ولكن هذا ينطبق على جميع أشكال الفن. الرواية مثلا تدعو قارئها إلى المشاركة بخياله في التأليف. القارئ يكمل عمل المؤلف فيستحضر الأحداث ويعيد التأليف بينها مع سد الفجوات التي يتركها المؤلف عن عمد في بعض الأحيان. كاتب الرواية لا يقول كل شيء، وهو في حاجة إلى تعاون القارئ وتواطئه.

- هذا صحيح. ولكن الموسيقى لها طريقتها الخاصة في دعوة المتلقي إلى المشاركة. تدعونا إلى الاستجابة لها بالحركة أساسا، فنحن نهتز لها أو نتمايل أو ننقر بأصابعنا على شيء أو آخر، أو ندندن أو نصفر أو نغني أو نرقص. أليس كذلك؟ نتحرك بقلوبنا على الأقل وفقا لإيقاعها، كأننا نريد أن ننضم إليها لتقودنا أو تحملنا، أو – إذا كانت عظيمة – لتحلق بنا. وعلينا أن نثبت

بالحركة الظاهرة أو الخفية أن الموسيقى جزء لا يتجزأ من وجودنا، وإن لم تكن جزءا من الطبيعة في حد ذاتها. فكيف يرفض الإنسان – وهو المسؤول الأول عنها – الحركة المناسبة لها بالغناء أو الرقص؟ وكيف تستبعد الغناء والرقص من حياتك؟ أنت لست مجبرا على أن تغني أو ترقص – الأمر متروك لك - ولكن ينبغي أن تفسح في قلبك بوصفك محبا للموسيقى مكانا لمن يغني أو يرقص.

وعندما ودع صاحبه في آخر الليلة قال له: «تستطيع أن تعتمد عليّ إذا اعتذرت السيدة زوجتك. سأذهب معك إلى الأوبرا أو إلى أي حفل موسيقي وقتما شئت. عليك التذاكر، وعليّ دفع ثمن العشاء». صفقة رآها مربحة لأنها تتضمن بالإضافة إلى حضور الحفل أحاديث لوبيز على مائدة العشاء عن الموسيقى. صفقة أتاحها حظ سعيد أتاه دون جهد. يبدو أن الأوان قد آن لكي يستمع إلى من يحدثه عما يحبه، يبدو أن الأوان قد آن لكي يفهم هذا الفن الغريب – غرابة الوجود في العالم والترحل بين أماكنه – بعد افتتان به. فهو يدرك الآن أن الافتتان بالموسيقى ظل لسبب ما يرافقه طيلة عمره. لا يذكر فترة من فترات حياته لم يهتز فيها لسماع تلك اللغة العجيبة. وهو سعيد الحظ لأن فيينا كانت وما زالت هي أنسب مدينة عرفها للاقتراب من الموسيقى. لا يخلو فيها مكان من الموسيقى. هذه مدينة عاش فيها الأربعة الكبار - هايدن، وموتسارت، وبتهوفن، وشوبرت – فيما يشبه حلقات السلسلة الواحدة. هايدن – بابا هايدن - عرف الفتى موتسارت وباركه؛ وموتسارت الرجل التقى ببتهوفن الشاب ولمح فيه بوادر العبقرية؛ وبتهوفن فيما يقال حملت إليه وهو في فراش الموت بعض مؤلفات شوبرت وأدرك أن في موسيقاه قبسا إلهيا.

وأصبح ينتظر الصباح بفارغ الصبر لكي يزور متاجر الأسطوانات ومتاجر الكتب المعنية بالموسيقى. وأصبح يجد رابطة تربطه مباشرة بأولئك الأربعة، ففيهم مصدر للعزاء. هايدن لا تفارق ثغره الابتسامة ولم تحل سعادته دون غزارة الابتكار، والثلاثة الآخرون عرفوا الشقاء كما لم يعرفه أحد، واستطاعوا مع ذلك ابتداع أعمال شامخة لا نظير لها. والغريب أنهم ابتدعوا أعظم أعمالهم في أواخر العمر. لم يكن اشتداد الشقاء واقتراب الموت سببا لاضمحلال القوى، بل حافزا إلى مزيد من الازدهار. وعندما استمع لأول مرة في حياته إلى جزء من خماسية شوبرت الوترية لم ينم طيلة الليل من شدة الفرح. جاءته الموسيقى من خلال منور المطبخ، ولم يكن يعرف من هو صاحبها. وعندما تحقق من ذلك فيما بعد، عرف أن ما استمع إليه في المطبخ كان نتفا من الحركة الثانية (المتمهلة)، وأن الخماسية من بين الأعمال التي أنجزها صاحبها قبل أسابيع من وفاته، وكان عندئذ في قبضة المرض الذي فتك به. ومع ذلك فإن هذا العمل الرفيع يتضمن بالإضافة إلى احتدامه بالاحتجاج والتظلم لحظات رائعة من السكينة والطمأنينة والفرح. كيف تمكن شوبرت من ذلك؟ كيف وجد تلك اللغة التي هزم بها الموت؟ أكد له أولئك الأربعة أن المبدعين يحيون في أفق زمني أعلى، أنهم يعرفون الخلود حتى قبل أن يموتوا، ينالونه وهم يؤلفون.

* * *

تأتي الموسيقى غير مدعوة وتفرض نفسها عليه. ماذا تريد الموسيقى منه؟ وإلام تدعوه؟ من أين يأتي النداء: من أعماق نفسه أم من وراء المجموعة الشمسية؟ عندما تصدح تفقده وعيه بوجوده المحدود. ذلك ما كان وهو طفل، وذلك ما يحدث اليوم وقد تجاوز الأربعين. ما زالت الموسيقى تفاجئه في كل مرحلة من مراحل حياته. أجل، الموسيقى دخلت حياته منذ البداية. يذكر الآن كيف كانت بنتا هنية تغنيان له وهما تحملانه رضيعا جيئة وذهوبا بين أمهما في قرية الصوالحة وجدته في قرية القواسمة. ويذكر ليلة – أم لياليَ؟ - استمع فيها إلى غناء شعراء الربابة في الصيرة، وهو على صدر ناعسة بين النوم واليقظة. قالت له ناعسة عندما أشار إلى ذلك: «مش معجول. دا انت كنت على سدري بترضع». وقد داهمته وهو في البلاج الفرنساوي، وفي بيت يقع في السيدة عائشة، وفي محطة قطارات الضواحي، وفي العمارة التي كان يسكنها هو وزوجته، وفي شارع كيرتنر شتراسه. وهي في كل مرة تنتزعه من وجوده الأرضي وترفعه، ثم يأتي السيد لوبيز ليحدثه عن «ورطته» وليلقي عليه دروسا في الموسيقى الكلاسيكية. الموسيقى تلحق به أينما توجه. لولا أنها جميلة وخيّرة لقال إنها تطارده. ما الذي يغريها به؟ وما حقيقة هذه الخمر التي تفوق في تأثيرها أي مخدر؟ وما معنى مرافقتها له عندما يتجول في فضائه الممتد بلا نهاية؟ وماذا يعني هذا الذهول الذي يصيبه عندما يستولي عليه لحن؟ وما مغزى انتقال فتاة الساونا إلى فرقة للرباعيات الوترية؟ ولماذا تخصه الموسيقى بهذا الاهتمام وهو قليل العلم بها؟ هل يمكنه أن يستجيب لها في كتابة الرواية؟ وكيف يكون ذلك؟ الكتابة الروائية تعنى أساسا بنثر الحياة. هناك بعض اللحظات الشاعرية؛ هذا صحيح. ولكن يحدث

أحيانا أن يسري نغم في الرواية ويصبح جزءا منها؟ هل تستطيع الرواية أن تحاكي السيمفونية؟ أمن الممكن أن تتكون من «حركات»؟

حياته في القاهرة وجمال المدينة اقترنا بذلك السكر. مسيرته الطويلة هو وصديقه بيومي من العباسية إلى السيدة عائشة، كانت تعني بالإضافة إلى الاستمتاع بمشاهد القاهرة التاريخية الاستماع لدى صديقهما سعيد إلى المؤلفين الروس (تشايكوفسكي بصفة خاصة). برنامج محدود فرضه عليهما سعيد، ولكنه كان مناسبا في البداية. كان كافيا للاستيلاء عليه وأسره طيلة طريق العودة من السيدة عائشة إلى العباسية، وهو الآن يدرك أنه كان امتدادا لانتشائه منذ كان طفلا بالعالم وتوهانه فيه. وكان ذلك كل حظه من الموسيقى الكلاسيكية؛ ولكن هذا القليل كان كافيا إلى أن سافر إلى فيينا لأول مرة.

هناك وجد الموسيقى في كل مكان، وهناك اقتنى لأول مرة في حياته لاعبة أسطوانات، وهناك – في أول سكن له، في غرفته الباردة الموحشة - اشترى أول أسطواناته، تشايكوفسكي ورحمانينوف في بداية الأمر ثم أخذ يتوسع. ظل لفترة لا يفارق تشايكوفسكي إلى أن تجرأ ذات يوم واشترى أسطوانة عليها كونشرتو للكمان من تأليف باخ، فأدهشه أن الكونشرتو - رغم غرابته أو بسبب غرابته – مستساغ وجميل على نحو لا يفهمه. وأوعز إليه ذلك العمل أنه قادر على تذوق مزيد من المؤلفين، فأقدم.

وفي فيينا عرف – كما لم يعرف أحد – شر الحرمان من الموسيقى. سكتت الأصوات الرائعة ذات يوم في مسكنه. سنية ترفض الموسيقى الغربية رفضا قاطعا. ترفض دخولها البيت، وترفض اصطحابه إليها خارج البيت، وتثير عاصفة هوجاء إذا سولت له نفسه أن يذهب إليها وحده. وعندما بدأت فتحية بنتهما الأولى تحبو وتتفحص بأصابعها الأشياء تركتها أمها تعبث بلاعبة الأسطوانات، وكانت تلك نهاية الجهاز ونهاية بعض الأسطوانات. وخلا عش الزوجية من الموسيقى ومن أدواتها. كلا، لم يخل تماما. فقد وجدت الموسيقى كعادتها منفذا للوصول إليه لا تتوقعه الزوجة ولا تستطيع سده. كانت لهم جارة عجوز تسكن في الطابق الأعلى من العمارة. رآها ذات يوم على السلم تلهث، فحمل عنها مشترياتها، وعندما بلغا بسطة الطابق الثالث توقفت لتقول: «يخيل إلي أن سنوات العمر تشبه درجات هذا السلم. بعد كل عشر درجات مثلا توجد بسطة، وعند كل بسطة أو عند نهاية كل عقد من الزمان يكتشف الإنسان – أو لنقل الإنسان بعد منتصف العمر – أنه فقد جزءا أو آخر من قواه، وهكذا تراني بعد نهاية العقد السابع من عمري. شكرا على لطفك». ودعا لها بطول العمر، فضحكت: «أنا لا أتعجل الموت ولا أشتهيه». وتوقفت عن الضحك فجأة لتقول: «ولكني أشكو من فقدان القدرة على الاستمتاع. في شبابي كنت أحب الرجال والأكل والنبيذ، هكذا بالترتيب. ولكن لم يبق من ذلك شيء. الحساء في الغداء مع كأس واحدة من النبيذ، والحساء في العشاء مع كأس ثانية، وهذا هو كل ما تبقى». فسألها: «ولماذا تنسين الموسيقى؟»، فنظرت إليه باستغراب وهي تدير رأسها نحوه بصعوبة لتقول: «وكيف عرفت؟». قال: «لأنني أسمع أسطواناتك».

تأتيه الموسيقى من شقتها كل يوم حتى الثامنة أو التاسعة مساء. تنفذ إليه عن طريق المنور الذي يطل عليه المطبخ، وسنية تضيق بالموسيقى المقتحمة أثناء الطبخ - أو أثناء تناول الطعام على المائدة الرخامية في المطبخ - فتقول: «الطرشه بنت الكلب. يعني لازم تعمل لنا الدوشه دي؟». فإذا رأته يصيخ السمع، قطبت جبينها، وهي في بعض الأحيان تعصب رأسها وتشكو الصداع.

ولم تكن العجوز طرشاء، وإن كان من المؤكد ومن حسن حظه أن سمعها يتضاءل عند كل «بسطة»، فأصبحت في حاجة إلى رفع مستوى الصوت. وصارت بعد ذلك الحديث على السلم تبادله التحية إذا رأته أو تتوقف لتجيبه إذا سألها عما سمع من موسيقاها. وسألها ذات يوم عما سمع البارحة. فقد توقف عن الأكل عندما طرق سمعه لحن لا نظير له هبط عليه من شقتها. تعلقت نفسه به وتفتحت له وأصابه ذهول وتجمد في مكانه، وظلت سنية تسأله: «ما لك؟» دون أن يحير جوابا كأنما أصابه الصمم. ولم يتنبه إلا عندما صرخت: «لازم الأكل مش عاجبك»، وبدأ التوبيخ: «يعني أنا أهلك نفسي طول النهار في المطبخ وتيجي سعادتك تقول لي الأكل مش عاجبك، كإنك عيل صغير مدلّع». وظل يتمتم (وأذنه ما زالت مسددة نحو نافذة المنور): «أبدا يا حبيبتي. طهيك جميل. تسلم إيديكي». وأخبرته الجارة العجوز أنه استمع البارحة للخماسية الوترية لشوبرت، وسألها على استحياء إن كان بوسعها أن تسمعه تلك الأسطوانة في الساعة العاشرة والنصف من صباح الأحد التالي. وابتسمت العجوز بعذوبة: «بالطبع أيها السيد. بوسعك أن تطلب أي شيء». في العاشرة والنصف من صباح الأحد تحرص سنية على الخروج وحدها إلى سوق تشتري منها المأكولات التركية والعربية، ويبقى هو في البيت من أجل الطفلة.

وتمكن في غيابها من سماع خماسية شوبرت كاملة ودون مقاطعة. وأصبح المنور ممرا لشريان السعادة في حياته.

سنية لا تكف عن وصفه بأنه «فلاح» جاء من بيئة «متخلفة» و«بدائية». وهي تتساءل: «مش أهلك لسه عايشين في بيوت الطين؟ وكانوا من قريّب عايشين في خيم من شعر الجمال والمعيز؟». فيقول: «كلامك صحيح يا حبيبتي. بس أنا مش عارف إيه الشعر اللي كانوا بيستخدموه». من الأفضل ألا يرد على ما في كلامها من تحقير. لا شأن له بما كان أجداده يفعلون؛ فقد انسلخ عنهم وإن استبقى منهم الصبر وطول النفس. الأفضل أن يخنع ويراوغ ويتحرك تحت السطح. المهم هو المقاومة السرية. تكره أن يكون «الفلاح» قارئا – أو كاتبا – وترى في ممارسته القراءة أو الكتابة إهمالا للحياة الأسرية وغيابا عنها وشكلا من أشكال الأنانية المفرطة. تثور إذا وجدته منصرفا إلى قراءة جريدة أو كتاب أو مستغرقا في التفكير: «إزاي ترجع من الشغل – يعني تغيب طول اليوم – وتفضل في البيت غايب؟ ما لكش وجود. مش أحسن تكلم مراتك اللي قاعده طول النهار لوحدها؟». تريد أن تستولي على انتباهه بالكامل. وهو يتفنن في صرف انتباهه عنها وإن تظاهر بالاهتمام. تبدأ حملة جذب الانتباه في الصباح على مائدة الإفطار، وتُستأنف ما إن يُفتح له الباب عند عودته من العمل. سنية تنتظره متحفزة عند الباب وتهاجمه وهو ما زال قدما في الشقة وقدما في الخارج. هل كان عداؤها لكل ما يتصل بالثقافة الغربية – فيما عدا طورطة زاخر - جزءا من رغبتها في الاستحواذ عليه؟

هناك إذن طبقة عميقة من النشاط السري. فهو يستيقظ في الثالثة صباحا ولا يعود إلى الفراش إلا في السادسة لينعم بجولة ثانية من النوم قبل الذهاب إلى المكتب. وخلال فترة اليقظة القصيرة يجلس إلى غرفة المائدة في الصالة الخارجية ليضع على الورق أفكاره التي تلح عليه طيلة النهار.. بسرعة قبل أن يستيقظ النيام. آه لو أن سنية أفاقت من نومها العميق وأمسكته متلبسا بجريمة الكتابة! ولن يجديه شيئا أن يحتج على مصيره في الدنيا ويلعنه. فها هو الزمان يدور دورته فتحل سنية محل عمه سالم. سالم يحرم عليه القراءة خارج مقرر الدراسة، وسنية تحرم عليه القراءة والكتابة والموسيقى. وها هو يتحايل على الحظر كما كان يفعل في ظل سالم، فيمارس ما يحب سرًّا - بعناد وولع واشتهاء محموم. عليه مهما حدث أن يرضى بالساعات القليلة المتاحة، وأن «يتغيب» كلما أتيحت له فرصة للتأليف - في المكتب، وفي المترو، وفي الشارع، وعند جلوسه بجوار زوجته - داخل رأسه بطبيعة الحال.

ويحدث أحيانًا أن تباغته سنية بسؤال مفاجئ مثل: «بتبتسم ليه؟»، فيقول ما يعن له من أجل المراوغة. وقد ينتابه الضحك فجأة، فتنظر إليه شزرًا أو تتهمه بالجنون. وماذا عساه يقول؟ هل يقول: «هكذا تؤلف الروايات»؟ وأصبح يتمادى في التخفي، فينشر رواياته تحت اسم مستعار؛ فهو على يقين من أن ظهور كتاب يحمل اسمه سيعد عملًا استفزازيًّا.

وأصبح لا يستمع إلى الموسيقى إلا على سبيل الخطف في غياب سنية إذا خرجت للتسوق، أو قضت وقتا في المستشفى بسبب المرض. أما إذا سافرت إلى مصر لترى أهلها، فتلك هي السعادة الكبرى. تدب الحياة في مبنى الأوبرا وصالات الموسيقى بعد أن

تجمدت. تدعوه فيهرع إليها لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع. يريد أن يلتهم ما يجد أمامه متاحا قبل أن يعود السجان وتسد أبواب الرحمة إلا من نغمة شاردة هنا أو هناك. يهرع إلى الموسيقى متلهفا يريد أن يروي ظمأه. وهو يشجع زوجته على السفر دون أن تلاحظ. ولا يكاد يودعها في المطار أو يتركها في المستشفى حتى ينقض على اللذة المحرمة. ولم يفتر حماسه قط لتلك الخماسية الوترية لشوبرت. فهو يرحل إليها أينما عزفت. وشوبرت هو الذي شفاه على نحو قاطع من إدمانه لتشايكوفسكي.

ولعل تلك الخماسية هي التي انتهت به إلى تفضيل موسيقى الحجرة على سائر أشكال الموسيقى الكلاسيكية. لا يفهم بوضوح سر ذلك التحول. هو انكماش بطبيعة الحال. لعله وجد في تلك الخماسية ما يغنيه على نحو ما عن الأشكال الموسيقية الأخرى؛ ففيها أحاديث ممتدة (توسع واستطراد)، وفيها غناء رائع، وهي ذات طابع سيمفوني واضح. فهل كان في ذلك التفضيل نوع من الحداد؟ ربما. لأن خماسية شوبرت فيها شكوى مريرة من إطباق الظلام (الموت؟)، وفيها بحث عن العزاء، وفيها ما يشبه البحث عن منفذ إلى الفرح. لماذا ترضيه تلك الموسيقى الحزينة أكثر مما ترضيه موسيقى تشايكوفسكي وهي حزينة بدورها؟ ولماذا ترفعه – رغم الحزن والشكوى – إلى نوع من التصالح مع العالم ولو للحظات؟ تشايكوفسكي يئن ويتوجع (يكاد المستمع يسمع بكاءه ونواحه)؛ أما شوبرت.. أما شوبرت... ما هو الفارق بين حزن وحزن؟ يخيل إليه أن أحزان شوبرت تتحول على يديه إلى هموم إنسانية وجودية. فهو يطرح شكواه: يكاد المستمع يراه رافعا وجهه إلى السماء متظلما، ويكاد يراه بعد أن طرح شكواه.. يتلمس مخرجا من تلك الهموم، كأن يسير متمهلا أو مسرعا بين

الحقول أو متوغلا في غابة أو متأملا قمم الجبال أو مناشدا إياها أن تخرج عن صمتها. كأنما يقول لنفسه بعد الوصول إلى حافة اليأس: «لنقم بجولة في الخلاء فلعل مرأى الزهور البرية وسريان الغمام فوق القمم يشفينا». شوبرت يذكره باحتجاجات أيوب وعتاباته وبحثه عن العزاء.

* * *

بدأ الرذاذ يتساقط فنشر مظلته ووقف على قارعة الطريق لا يدري أين يذهب. سنية تقترب من الحقيقة عندما تصفه بالتخلف والبدائية. هذا صحيح. فهو يمارس دون أن يدري نوعا من عبادة الأجداد، وذلك أن جدته زينب بقيت بعد رحيلها حاضرة تمارس نفوذها في حياته لزمن طويل. لم يعرفها إلا في السنوات الأربع الأولى من عمره، ولكنه ظل ردحا من الزمن يشعر على نحو غامض أن في الانتساب إليها مزايا – من الشرف والامتياز - تحميه ولا تسقط بالتقادم: من كان ابن زينب لا يناله سوء مهما حدث. ذلك ما كان يشعر به طالما بقيت زينب حاضرة. ثم وهنت هذه الحصانة بالتدريج وفي النهاية رفعت زينب عنه حمايتها.

ودخل متجرا للآلات الموسيقية، فحيا البائع الشاب، وأخذ يستفسر منه عن أسعار الكمنجات. لم يكن ينوي الشراء، ولكنه كان «يغازل» الموسيقى من أجل قتل الوقت. وسأل الشاب:

- هل تعتقد أن بوسع إنسان مثلي أن يتعلم العزف على الكمان؟

- ولم لا؟ ما المانع؟

- لقد تجاوزت الأربعين.

- ولكن يمكنك أن تتعلم. ليس هناك ما يحول دون ذلك ما دام هناك دافع. تعلم الكمان بالذات أمر بالغ الصعوبة ولكنه ممكن مع العمل الشاق والمثابرة.

وتوقف الشاب لحظة ثم استدرك ضاحكا:

- أرجو ألا تسيء فهمي؛ فأنا لا أحاول أن أغريك بالشراء. ولكن عليّ أن أخبرك أنك تستطيع أن تتعلم لكي تصل إلى مستوى معين، مستوى إمتاع نفسك ولعلك تستطيع أيضا أن تمتع أصدقاءك. هذا إلا إذا حدثت معجزة، فهناك مجال للحالات الاستثنائية. أنا شخصيا تعلمت العزف على الكمان وأنا طفل والتحقت بمعهد للموسيقى، ولكنني أدركت بعد بضع سنوات من الدراسة المنظمة أنني لست عظيم الموهبة وأنني لا يمكن أن أواجه الجمهور في فيينا فانقطعت عن الدراسة، ولكنني ما زلت أستمتع بالعزف وأصدقائي يقنعون بأدائي، وهذا يكفيني.

وأخذ الشاب يعرض عليه ما لديه من كمنجات وآلات وترية أخرى، ويشرح مزايا وصعوبات كل منها إلى أن قطع المستمع حديثه بقوله:

- الواقع أنني لا أدري. سأفكر في الأمر لكن أخبرني: هل لك أن تدلني على مطعم نمساوي جيد لأتعشى فيه؟

جاء السؤال مفاجئا، فحك الشاب رأسه متفكرا:

- هناك في الواقع مطعم ممتاز وهو قريب من هنا. عيبه الوحيد أن أسعاره مرتفعة شيئا ما.

وأخذ يشرح له كيف يجد المطعم. ولما رآه شارد الذهن لا يدري في أي اتجاه يسير، تناول ورقة وكتب عليها اسم المطعم وعنوانه ورسم خريطة مبسطة مزودة بالأسهم. غير أنه لم يخط بضع خطوات نحو الهدف المحدد حتى توقف في حيرة عند أول تقاطع. هل يريد حقا أن يتعشى في مطعم؟ العشاء في مطعم يعني أن يجلس إلى مائدة وحده بينما يتعشى سائر الناس أزواجا أو جماعات. يبدو من الأفضل أن يتعشى في البيت ويأكل ما تيسر في الثلاجة. تكفيه بيضة مسلوقة وقطعة من الجبن. ولكن الذهاب إلى البيت في هذا الوقت المبكر من الأمسية يعني أيضا مواجهة الوحدة. هو في حاجة إلى امرأة، وهذا هو الأمر ببساطة.

وتذكر آخر درس للأستاذ علي عبد العظيم. كان الأستاذ على وشك الانتقال إلى مدرسة أخرى في بلد آخر. وفي ذلك الدرس الأخير ظل الأستاذ يشرح حتى آخر دقيقة من الحصة. وعندما دق الجرس توقف عن الشرح وأخذ يجمع أوراقه استعدادا للرحيل. ثم قال:

- أود أن أوصيكم بالصلاة لولا أنني أعلم يا أبناء الريف أن وعظي لن يؤثر فيكم. بعضكم لا يقرب الصلاة والبعض الآخر يخطف الركعات خطفا. لماذا؟ لأنكم تتلهفون على العودة إلى حياتكم الدنيئة، حياة الانغماس في العرَض الزائل. أنا أعرفكم يا أبناء الريف: أهل ضلال ولجاجة. يقضي الواحد منكم عمره في المحاكم لينازع شقيقه على قيراطين من الأرض، وينتهي الأمر

بهما إلى الإفلاس بعد إنفاق ما لديهما على أتعاب المحامين ورشوة المحضرين والكتبة والحجاب. ولكنني لا أستطيع أن أمضي دون أن أوصيكم باللغة العربية خيرا، لغة القرآن ولغة أهل الجنة. وأخشى ما أخشاه أن تأتوا يوم الحساب وأنتم ما زلتم تلحنون وتخلطون الفصحى الشريفة بالدارجة المبتذلة. عندئذ قد لا تجوز فيكم شفاعة لأن معاصيكم كثيرة.

وهم بالخروج ولكنه عاد أدراجه ليقول:

- هناك واحد منكم قلما يلحن.

وسعى إليه بين الصفوف حتى وقف بجواره، ليقول:

- موضوعات الإنشاء التي تكتبها تطربني؛ فأتعجب: كيف لفاسق مثلك أن يحسن الكتابة. ولكن الله قادر على كل شيء.

قال وقد تضرج وجهه بالخجل:

- ولكنني لست فاسقا.

- اخرس. أخبار فضائحك تصلني أولا بأول. أخبرني: ماذا حدث عندما رأيت بنت آل عبد الرحيم في الشارع يوم الجمعة الماضي؟

- أنا يا أستاذ؟ أنا مظلوم والله. كلها تهم باطله.

- أخبرني ماذا حدث على وجه التحديد.

وتدخل أحد زملائه من أجل إنقاذه:

- البنت هيه اللي غلطانه. كانت ماشيه في الشارع بتهز...

- اخرس. لا تنطق بكلمة أخرى.

واستدار الأستاذ نحو الطلاب:

- أرأيتم كيف يحاول هذان الفاسقان تبرير السلوك المشين بعذر هو أقبح من الذنب. البنت كانت ماشيه بتهز...

وتوقف الأستاذ ثم لم يجد مناصا من استخدام الكلمة المعنية:

- تهز ردفها فلم يستطع صاحبنا أن يقاوم الشيطان فظل يقتفي أثرها حتى صاحت فيه وهددت بجمع الناس من حوله. أليس كذلك؟

- أنا لم ألمسها.

- اخرس.

وأمسك بشعره:

- لولا أن لي على آل عبد الرحيم دالة لأنني ألقي خطبة الجمعة وأؤم الصلاة لقتلوك. فحذار ثم حذار أن تعود إلى مثل هذه الفعلة. ثم أخبرني: لماذا تتخيل أن الله خلق البنات للمشاكسة؟

وتدخل الزميل الذي يحاول إنقاذ أخيه:

- إذا كانت جليلة الأدب تستحج كل اللي يحصل لها.

فقال الأستاذ:

- لا بد أن تفهموا يا أجلاف الريف أن واجبكم هو المحافظة على البنات. ولا بد أن تفهموا أن هز الر..دف في الشارع ليس إلا إعلانا، إعلانا للزواج؛ ومعناه أن من استطاع منكم الزواج فليتقدم إلى أهلي ليطلب يدي. والإعلان إذن لا يعنيكم لأنكم ما زلتم عالة على آبائكم. فهمت يا مدحت؟

وهز رأسه علامة الموافقة، ولكن عينيه كانتا دامعتين، فرق له قلب الأستاذ وربت على كتفه:

- هات يدك وعاهدني.

وكان عليه أن يضع يده على المصحف ويقسم ألا يتحرش بالبنات وأن يحميهن من كل سوء.

وقال الأستاذ بصوت حنون:

- أنت موهوب يا ولدي. إجادتك للغة العربية هدية من الله، فصنها وتولّـهَا بالرعاية ولا تطاوع طبعك الخسيس.

ولكنه ما زال أسير طبعه الخسيس. الكتابة لا تصرف عنه وساوسه وهلوساته الجنسية إلا بصفة مؤقتة - عندما تسلس له

القياد. آه لو أنه تزوج سلوى ... كانت مؤهلة لكي تصبح رفيقته التي تؤنسه في وحدته القاتلة. أما صحبة سنية، فقد زادته هوسا على هوس وفتحت الباب على مصراعيه لأحلام اليقظة السخيفة التي تراوده. هي التي هشمته، وما زالت آثار الدمار مستقرة في داخله رغم رحيلها. والغريب أنه ظل طيلة حياته معها يؤمن بجدوى الحديث الهادئ والعتاب، بأن من الممكن للزوجين بعد الاحتداد والشجار أن يتصافيا وأن يفتحا صفحة جديدة. وهو يقضي وقتا طويلا بعد انتهاء الشجار في الحديث إليها - بينه وبين نفسه - ويستمر الحديث في الشارع وفي مكان العمل وفي الفراش عندما تنام. كانت تشغله في أوقات اليقظة وأوقات النوم حتى ينتابه الصداع أو يشعر بالغثيان. لماذا لا يستطيع الانصراف عنها؟ لماذا لا يستطيع التخلص منها؟

كانت تجلس بجانبه ذات ليلة استثنائية سادها الهدوء والوئام عندما قال:

- إيه رأيك يا حبيبتي ننسى اللي حصل امبارح وأول امبارح ومن عشر سنين؟ إحنا هنقعد نتخانق طول عمرنا؟ يا ستي إذا كنت غلطان، سامحيني. هاتي راسك لما أبوسها، وصافي يا لبن.

وقبل رأسها، فقالت:

- والله ما أسامحك أبدا، ولا يوم القيامة. دا انت سودت عيشتي. ما شوفتش معاك يوم كويس.

وبكت. ليس من المجدي أن يدافع عن نفسه، وليس من المجدي أن يشرح لها كيف أخطأت في حقه، وكيف أنها تتجنى عليه. فليحاول فقط التفاهم معها على طبيعة الأزمة التي بينهما، فمن الممكن بعد التفاهم أن يتفقا على الحلول. فقال:

- أنا بيتهيأ لي أحيانا إن الذنب ما هواش ذنبك ولا ذنبي. إحنا كان لازم نطول فترة الخطوبه ونتصاحب قبل الجواز...

فالتفتت إليه في تحفز، ورأى كيف اختفت دموعها كما ظهرت فجأة:

- وليه ما عملناش كده؟ الذنب كان ذنب مين؟

- ذنب الظروف. عمي سالم كان مستعجل، وأبوك كان مستعجل، ومامتك كذلك.

وصاحت فيه:

- إنت بتتهم أهلي بإنهم كانوا راميين نفسهم عليك؟

وبدأ يشعر بالخطر، فأخذ يتراجع:

- لأ مش قصدي. أنا قصدي أقول إن أنا كنت مقيم في الخارج بحكم عملي، والجميع كانوا مستعجلين وعاوزين ربنا يتمم بخير وهيه دي المشكله. وأنا برضه كنت غلطان، فما يصحش أعفي نفسي من المسؤوليه.

وأصاب وجهها الشحوب وارتجفت شفتاها:

- يعني قصدك تقول إنك ندمان لأنك اخترتني؟

فأمسك بيدها:

- برضه مش قصدي. وأنا كنت هَلْقى زيك فين؟ أوكيه. سيبينا من كل ده. إحنا عندنا بنتين زي الفل، وممكن نتعلم من أخطاءنا، ونتصاحب. ليه لأ؟ دول كنز. وما تنسيش طولة العشره...

وعادت الدموع غزيرة إلى عينيها. واتهمته بالالتواء والمكر، وبأنه يحاول بكل ما أوتي من دهاء أن يلقي باللوم عليها ويشعرها بالذنب... وانتفضت غاضبة وهرعت إلى غرفة النوم. وبدأ هو يشعر بالذنب ويندم على ما فعل. لماذا فتح باب الحديث الهادئ والعتاب والتفاهم، وهو يعلم من تجارب سابقة كثيرة أن غضبها يصل إلى ذروته عندما يحاول شرح المشكلة بهدوء؟ صوته الهادئ يستفزها - فيما تقول – ويخفي ما يخفي من احتيال. والنتيجة واحدة في جميع الحالات، وهي أنه يحاول إلقاء اللوم عليها. لينسَ الموضوع إذن، فستهدأ بعد قليل... أصبحت في السنوات الأخيرة من حياتها هي السيد الآمر الناهي في البيت، وتمكنت من السيطرة التامة عليه، وأصبح دوره يقتصر على تجنب الخلاف معها، بل وتجنب أي نقاش مهما كان هادئا وأيا ما كان حظ الموضوع من الأهمية. وكان يلتمس لها العذر أحيانا – عندما يجد في نفسه فائضا من القوة – فيرى أنها امرأة مسكينة مكرهة على حب رجل لا تحبه وتعلم أنه لا يحبها.

ولكنها ظهرت بعد قليل لتقول: «سيبك من كلامك الناعم يا مدحت. أنا فاهمه ألاعيبك. إنت عاوز تدمرني». باغتته بقولها ذلك، فنسي ما وعد نفسه به، فقال: «أدمرك ازاي؟ يعني أنا عمال أتعرض لشتايمك طول الوقت. إنتي نسيتي إن امبارح..». فقاطعته: «إنت كداب. أنا عمري ما شتمتك. إنت كداب..». وتوقفت قليلا لتستدرك: «وإذا كنت شتمتك، فلإنك تستاهل». وأغضبه استدراكها وإن تمالك أعصابه وأخذ يشرح – بهدوء – كيف أنه لا يستحق أن يشتم لأنه عاد من الثلاجة بالخس بدلا من الطماطم، وبأن هذا الخطأ ليس جريمة، وبأن الشجار حول موضوع بمثل هذه التفاهة أمر لا يليق ومضيعة للوقت. وأصابها الذهول للحظة كأنها لم تجد ردا على كلامه. ثم جاء الرد على نحو عاصف. هل كان عتابه يوقظ ضميرها، يولد لديها شعورا بالذنب تكرهه، فتعبر عن ذلك بصب جام غضبها على من أيقظ ضميرها؟ هل يلتمس لها العذر لأنها لا تحبه وتعلم أنه لا يحبها، فتشعر كلما أتاها بأنه يغتصبها؟ وظهرت فجأة. عادت فوقفت في مواجهته مبتسمة وكانت تحمل على ذراعها كريمة (أخرجتها من مهدها وكانت الطفلة لم تستيقظ بعد تماما) وتحمل باليد اليسرى وسادة. ودخلت المطبخ وهي ما تزال تبتسم، وخرجت وهي ما تزال تبتسم. ولكن النار كانت مشتعلة في الوسادة التي ألقت بها في وجهه. وكانت تلك ليلة فاصلة. شعر عندئذ أن الحماية التي كانت تحيطه زينب بها قد رفعت، وأصبح عرضة لأسوأ المخاطر.

قال لماريكا: «لم أكن أومن بأن الشر متأصل في طبيعة الإنسان حتى تلك اللحظة. رأيت الشر يشعل النار في وسادة محشوة بالقطن في شقة مسكونة وفيها أطفال». فقالت: «لا تبسط الأمور.

البنت مسكينة وأنت تظلمها. البنت مريضة بكل بساطة. لماذا لا تعرضها على طبيب نفساني وتساعدها؟»، فأجاب: «طبيب نفساني؟ هي لا تطيق سماع ذلك، وردها الدائم هو أنني أنا المجنون. وأنا أعرف أن أول الشفاء من المرض النفسي هو اعتراف المريض بأنه مريض وفي حاجة إلى مساعدة. أليس كذلك؟»، قالت ماريكا بعد تفكير: «لماذا لا تطلقها؟ مثل هذه الحالات ينبغي ألا تستمر. في مثل هذه الحالات، قد يكون هناك قاتل ومقتول، ومعرفتي بك تدلني على أنك لن تكون القاتل». وقال باستنكار: «أطلقها؟! وماذا عن البنتين؟». وكان عليه أن يتعايش مع خطر السم والحريق.

ماريكا كانت واهمة. كانت تتخيل أن باستطاعته النجاة عن طريق الطلاق. لا تعرف سنية حق المعرفة. كان باستطاعتها أمام الناس أن تبدو وكأنها مثال للوداعة والطيبة، وهو لا يدري كيف كانت تستطيع بسهولة إطلاق دموعها في أي لحظة لكي تبدو ضحية للظلم. وسيكون انتقامها مروعا لو أنه طلقها. إن لم تقتله، فستحرمه من رؤية فتحية وكريمة إلى الأبد. ومن حسن الحظ أنه لم يكن هناك قاتل ولا مقتول. تدخل السرطان، ففض الاشتباك بعد سبع سنوات من العذاب ما بين علاج كيميائي واستئصال. وتركت له البنتين. وهو يشعر الآن بالندم لأنه تركهما وجاء إلى فيينا لأنه ما زال متعلقا برواسب شبابه. البنت الكبرى في رعاية زوجها، أما الصغرى، فهي في رعاية ماريكا، ولكن أين السلطة الأبوية؟ لا ينبغي له أن يتركها في هذه المرحلة الحرجة من الدراسة الثانوية. وهل نجا حقا؟

رُفعت عنه الحماية. وها هو يقف وحده ملقى به على قارعة الطريق. أفرج عنه، ولكنه ما زال أسيرًا لتلك الكوابيس. رحل السجان، ولكن كيف يعوض ما ضاع من زمن في ذلك السجن المؤبد. وهاله أنه قضى سنوات عديدة من عمره في المراوغة والتحايل والنفاق والعتاب. والعتاب بصفة خاصة، ذلك الحديث المطول الذي يذهب سدى أو يشعل نيران الغضب والعنف. سنوات قضاها دون أن يجد من يستمع لما يقول. أصبح منهك القوى، وتوقف عن التأليف. انتهت المقاومة سرًّا وعلنًا، ولم يعد قادرًا على الكتابة. حريته لم تعد تعني شيئًا أمام الورق والقلم. لم يعد هناك ما يقال.

******

وها هو يقف تحت مظلته لا يريم ممسكا بورقته. قضى ثلاثة أيام لم يكلم فيها أحدا. وهو لا يشعر بالجوع، ولكن إذا لم يذهب إلى مطعم أي مطعم، فأين يذهب والساعة لم تتجاوز التاسعة؟ وماذا عساه يفعل في شقته؟ وليس في الشارع إلا قليل من المارة، كل منهم يهرول فرارا من البلل وومض البرق وما يتلوه من هزيم للرعد وضخ السماء للمطر. ثم لمح في النور الخافت ثلاثة أشخاص قادمين؛ رجلا وامرأتين، فاندفع نحوهم:

- معذرة أيها السيدات والسادة. هل لكم أن تدلوني على هذا العنوان؟

ومد يده نحوهم بالورقة التي كتب عليها العنوان. فأما الرجل الذي كان يسير في المقدمة، فقد مضى في طريقه دون أن يلتفت. ولكن

إحدى المرأتين توقفت وقرأت الورقة وقالت:

- تريد ذلك المطعم؟ نحن ذاهبون إليه. اتبعنا إذن.

وسألته:

- من أي بلد أنت؟

فلما أخبرها هتفت قائلة:

- من مصر؟ يا للمصادفة!

ونادت الرجل:

- هل تصدق يا أبي أن هذا السيد من مصر؟

وعندئذ أبطأ الرجل السير وحياه بهزة من رأسه. واستقبلهم رئيس الجرسونات ليرحب بهم، فسألته الفتاة وهي تهمس:

- تريد أن تنضم إلينا أم تفضل الجلوس وحدك؟

وتلعثم قليلا قبل أن يعرب عن سعادته بالانضمام إليهم. فهمست في أذنه مرة أخرى:

- إذن لا تذكر أننا التقينا قبل اليوم.

وأمعن النظر فيها وهو يراها الآن ويتعرف عليها. هي فتاة الساونا، هي عازفة الكمان. فكأنما تلقى ضربة على رأسه، فأذهلته عما يدور حوله. كيف انشقت الأرض عن هذه الفتاة التي يراها الآن للمرة الثالثة؟ أمن المعقول أن تظهر له ثلاث مرات في مدينة كبيرة مثل فيينا في غضون بضعة أسابيع؟ معقول جدا لأنها تقف الآن أمامه وتحدثه. تعرفت عليه هي التي لم تلتفت إليه في الساونا، ولم يتعرف عليها عندما رآها خارج المطعم في معطف أحمر مرفوع الياقة لم يظهر من وجهها إلا وجنتها. وها هي الآن تقف أمامه بلحمها ودمها. وجاء إليه من أخذ معطفه، وأجلسه إلى مائدة بالقرب من المدفأة، وجاء جلوسه إلى جانب الفتاة وفي مواجهة الأب والفتاة الأخرى. وسمعها وهو ما زال مذهولًا تقوم بمهمة التعارف: «هذا هو أبي واسمه كارل، وهذه هي أختي واسمها سلمى، وأنا ناهد». وكررت الفتاة اسمها، فتنبه وقدم نفسه.

وأصابته بحة في صوته عندما سأل:

- سلمى وناهد؟ اسمان عربيان، وناهد على الأقل اسم مصري صميم.

ورفعت ناهد صوتها قليلا موجهة الخطاب إلى أبيها:

- السيد مدحت يستغرب لاسمينا. هلا شرحت له.

قال الرجل:

- نحن مسلمون من يوغسلافيا، من البوسنة. وقد أقمت في دمشق والقاهرة موفدا من الأمم المتحدة. سلمى ولدت في دمشق، وناهد ولدت في القاهرة. واخترنا اسما من كل مدينة حبا لها وإحياء للذكريات الطيبة.

وأحاط سلمى بذراعه:

- أليس كذلك يا عزيزتي؟

وهزت الفتاة رأسها بالموافقة؛ وكانت شاحبة الوجه أبرز شحوبها فستانها الأزرق. وقالت ناهد:

- نحن نحب مصر وأنا شخصيا أغرمت بها عندما زرتها في العام الماضي لأول مرة بعد طفولتي الأولى. وأنت هل تزور فيينا للمرة الأولى؟

- بل هي زيارتي الثانية؛ جئتها للمرة الأولى منذ ربع قرن تقريبا.

وانحنت عليه لتهمس:

- أرجوك أن ترفع صوتك قليلا حتى يسمعك أبي فهو ثقيل السمع.

وتنحنح لكي يزيل البحة في صوته:

- أقول جئت فيينا للمرة الأولى منذ ربع قرن تقريبا، وكنت عندئذ أعمل في القنصلية المصرية.

وضحكت ناهد:

- إنني أتضاءل إلى جانبكم. أبي كان موظفا كبيرا في الأمم المتحدة، وأنت يا سيد مدحت كنت تعمل بالسلك الدبلوماسي المصري، وسلمى مهندسة اتصالات. أما أنا المسكينة فأعمل سكرتيرة في إحدى الشركات.

وقالت سلمى:

- لا تصدقها، فهي عازفة كمان من الطراز الأول.

وجاء الجرسون ليتلقى الطلبات، وسأله عما يريد، فقال:

- سآكل كما تأكلون.

فقالت ناهد:

- جئنا لنأكل لحما مسلوقا.

فقال:

- أنا إذن معكم.

وكانت المدفأة الضخمة التي تشتعل فيها كتل ضخمة من الخشب ترسل موجات من الدفء. وزال عنه حرجه:

- لا بد أن أعترف أنني أعشق المطبخ النمساوي. المطبخ الذي يحتفي باللحم المسلوق كما تحتفون هو في رأيي مطبخ جدير بالاحترام.

ومال كارل نحوه وهو يرهف السمع:

- وكيف ذلك؟

- اللحم المسلوق إن لم يخني الظن هو طعام أهل الريف. وأنا رجل ريفي؛ ولا شيء يعدل في نظري العودة إلى طعام أجدادنا. ولقد عشت في عواصم أوروبية عدة لم أجد فيها مثل هذا الاهتمام باللحم المسلوق. الإنجليز لا يقبلون عليه والفرنسيون والإيطاليون أكثر تقدما وأرقى منهم ذوقا في هذا المجال. ولكن الفرنسيين والإيطاليين لا يجارون النمساويين. فاللحم المسلوق وجبة رئيسية هنا وهو يقدم في أرقى المطاعم، وهو حقا فاخر. أما ما يعجبني بصفة خاصة وما تتفوقون فيه على أهل الريف المصري فهو طبق السبانخ الذي يقدم مع اللحم المسلوق.

قالت سلمى:

- ولكن هناك عدة أنواع من الخضار يمكن أن تقدم مع اللحم المسلوق.

فرد بقوله:

- السبانخ في رأيي أفضلها. لماذا؟ لأن الطاهي الذي اخترع هذا اللون من الطعام اكتشف اكتشافا عبقريا وهو أن الثوم - قليلا من

الثوم - يرتفع بالسبانخ إلى أعلى مرتبة.

وضحكت الفتاتان. وقال كارل:

- كان ينبغي أن تخبرني ونحن نطلب الطعام. قلت: «سآكل كما تأكلون» فطلبت لك ما طلبنا لأنفسنا: بازلاء.

ورأت ناهد أن الفرصة لم تفت بعد ونادت الجرسون وطلبت إليه أن يأتي للسيد بطبق من السبانخ بدلا من البازلاء. وقالت:

- أما أنا فقد أحببت الملوخية في مصر، وهي أيضا تزدهر بتقلية الثوم.

وهتف:

- الملوخية! الأوروبيون الذين يزورون مصر إما أن ينفروا منها أو يمرضوا بعد أكلها.

قالت ناهد:

- كنت آكلها أينما ذهبت في مصر. أكلتها في القاهرة وأكلتها في سيناء وأكلتها في أسوان؛ وفي أسوان وجدت ألذ ملوخية. ولم يحدث لي شيء.

وانتقل الحديث بين ناهد وأختها عن وادي الملوك ومعبد نفرتيتي وآثار إدفو وكنيسة مار جرجس في مصر القديمة وجامع ابن طولون، فأسقط في يده وخشي أن يوجه إليه سؤال في أي من هذه

الموضوعات، فيتبين أنه مثل أغلبية المصريين بما في ذلك مثقفوهم قليل العلم بآثار بلاده. وهم بأن يقول: «نحن المصريين لا نطيل النظر إلى آثارنا لكثرة ما فيها من كنوز. مصر متحف كبير من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ولكننا من شدة غنانا ننسى أننا أثرياء». ولكنه أحجم وآثر السكوت عن هذا الموضوع. لم يكن يعرف من هذا التاريخ سوى ما درس في الابتدائية: مينا وحد القطرين، وخوفو هو من بنى الهرم الأكبر. أما خفرع ومنقرع، فهو لم يعد يذكر من منهما بنى الهرم الأوسط ومن منهما بنى الهرم الأصغر. أما عن تلك الكنيسة في مصر القديمة، فقد سمع بوجودها ولكن لم يزرها قط. كلا ولم يدخل جامع ابن طولون وإن مر به. وأصابه الحزن لجهله. عاش في القاهرة وفتن بآثارها ولكن جولاته انحصرت في أجزاء محدودة منها. ولم يزر صعيد مصر ولا الإسكندرية ولا سيناء. وسره انقطاع الحديث عن الآثار المصرية عندما جيء بالطعام. وكان ذلك في موكب عظيم: جرسون رئيس ومعه مساعدان. وكانت النار تشتعل بشدة ويتطاير منها الشرر وتشيع في الجو أنسا وبهجة. وكانت البداية طبقا بديعا من الشوربة بالعظم ونخاعه. بارك الله فيكم أيها النمساويون! وتوقف قليلا عندما لاحظ أن سلمى تسترق النظر إليه. وهو يكره أن يتمعن الناس في ملامحه. وقد تمنى للحظة أن يكون جلوسه في مواجهة ناهد لكي ينعم بجمال وجهها، ولكنه الآن يحمد للحظ أن ذلك لم يحدث. لا يريد لأحد أن يكتشف مدى افتقاره إلى الوسامة.. وأخشى ما يخشاه أن يستشف الرائي من ملامحه أنه مدمر في داخله ومذعور. كانت قواه مشحوذة في إبان المعركة الكبرى. أما الآن وقد وضعت الحرب أوزارها، فهو يشعر بأنه مرهق ومنهك وهش. فكأنه استنفد قواه.

وعادت ناهد إلى الحديث عن مصر:

- قضينا ليلتين في سيناء بجوار دير سانت كاترين. ليلتين من أجمل ليالي العمر. كنا نفترش الأرض - كل منا يدخل في كيس هو فراشه - ولا نغمض أعيننا إلا وقد امتلأت بمرأى السماء ذات النجوم. وكنا...

وقاطعها:

- تقولين «كنا». هل كنت في مجموعة؟

فأجابت:

- كنا اثنين فقط: أنا وسلمى. وفي سيناء أدركت لأول مرة أننا أهل المدن لم نفقد فقط مرأى النجوم والقمر؛ وإنما فقدنا أيضا القدرة على الاستماع إلى السكون.

قال دون اقتناع، فقد كان يمثل:

- هذا كلام يشبه الشعر.

وشعر برغبة جارفة في توجيه الحديث نحو الموسيقى، فقال:

- أنا أعلم أن للحظات السكون في الموسيقى أهمية تعادل أهمية النغمات.

وقالت ناهد:

- صحيح.. للسكون كلام لا نسمعه عادة.

وفكر قليلا ثم قال:

- عرفت ذلك عندما وقعت في هوى الموسيقى الكلاسيكية.

وغيرت سلمى مجرى الحديث:

- ولكن كيف وجدت فيينا عندما رأيتها للمرة الثانية؟

فأجاب:

- في المرة الأولى كنت أراها من بعيد. أما الآن وقد عدت إليها فإنني أود أن أقبل جدرانها وأعانق أهلها.

وضحكت سلمى وأشرق وجهها وهي تقول:

- قبل الجدران كما شئت. أما تقبيل أهلها فذلك شيء خطر.

وضحكوا ثلاثتهم. أما كارل فيبدو أنه انسحب من الجلسة، اكتفى بما سمع وانشغل عنهم. وبدا كما لو كان يتخفى خلف شاربه الأبيض الكث وابتسامة حالمة. وسألته ناهد عمن يحب من المؤلفين الموسيقيين، فقال:

- أحب منهم كل من سكن فيينا بداية من هايدن، وإن كنت أستبعد مالر وشونبرج

وقالت سلمى:

- ولماذا تستبعد مالر؟ أعتقد أنك تظلمه.

فأجاب:

- لا أكرهه...

وتوقف قليلا ليفكر قبل أن يقول:

- يبدو أنني أظلمه بالفعل. الحقيقة أنني أحاول جاهدا تقديره حق قدره، ولكنني لم أفلح حتى الآن مع الأسف. وأحاول جاهدا أن أحب فاجنر، فلا أستطيع...

وقالت ناهد باستنكار:

- وكيف ذلك؟ أنا أعشق فاجنر. أنت لا تدري مدى خسارتك؟

فهل يعرب عن آرائه في فاجنر أمام موسيقية محترفة، أم يطلب الأمان ويلزم الصمت؟ الأفضل أن يلزم الصمت، ولكن ناهد لمست كتفه بكتفها لتحفزه:

- قل لنا إذن لماذا لا تحب فاجنر؟

فتشجع وقرر أن يغامر بعد الاعتذار عن جهله:

- للأسف لم تتح لي فرصة في صغري لتعلم الموسيقى. لم يكن أحد يعني حيث نشأت بتعليم الموسيقى. جاءنا معلم للموسيقى في المدرسة الثانوية ليعلمنا العزف على العود، ولكنه اختفى بعد زيارتين أو ثلاث زيارات. كان يأتي بآلته ويعزف عليها لدقائق، ويحدثنا عن النوتة الموسيقية: دو ري مي فا صو لا سي، ثم اختفى إلى الأبد. وثقافتي الموسيقية محدودة. أما فاجنر...

ما زالت سلمى تغافله لتتفحص وجهه، ولا بد أنها لاحظت الحول في عينه اليسرى، ولكنه الآن تورط ويجب أن يبدي رأيه في فاجنر، وليحدث ما يحدث:

- أما فاجنر، فقد حاولت أن أحبه، وما زلت أحاول. ولكنني أجد نفسي عاجزا عن تقديره. أولا، أنا لا أستسيغ أساطير الشمال الأوروبي التي يستلهم موضوعاتها. أنا أنتمي إلى البحر المتوسط، أو لنقل إنني يوناني العقل والقلب. وثانيا، أنا أكره تمجيده للموت. هو يعتقد أن الحب لا يتوج إلا باتحاد المحب بمحبوبه في ظلام الموت. وأنا أحب النور وأحب وضح النهار، وأعتقد أن الفناء في شخص المحبوب لا يتاح لنا إلا في دنيانا هذه ولبضع لحظات وعلى طريقتنا كبشر، أي بعد انفصال ونزاع. نشوة الاندماج في المحبوب لا تتاح إلا لمن عرف الانفصال والوحدة كما نعرفهما في حياتنا هذه. أما الفناء الكامل، فليس فيه اندماج ولا نشوة ولا حب.

وقالت ناهد:

- ولم لا إذا كانت هذه هي فلسفته في الحب؟

فقال بعد تردد:

- من الصعب عليّ أن أتقبل هذا السخف. أستطيع أن أتفهم العاشق الذي يتشوق إلى الموت مع من يحب راجيا أن يلتقيا في حياة أخرى. ولكن فاجنر لا يؤمن بحياة أخرى. الموت في نظره فناء كامل. وثالثا...

وقاطعته سلمى على سبيل المداعبة:

- آه، وهناك ثالثا؟

فأقبل عليها ضاحكا:

- وهناك ثالثا يا سلمى. أنا لم أشاهد حتى اليوم عرضا يرضيني تماما لأوبرا «ترستان وإيزولد» - وهي أقرب أعمال فاجنر إلى نفسي. لماذا؟

وضحك:

- اغفرا لي ما سأقول. أنا لم أر حتى الآن مغنية جميلة تؤدي دور إيزولد. وإيزولد يجب أن تكون جميلة. لا يكفي أن تكون جميلة الصوت. بل يجب أن تكون رائعة الجمال...

وقالت سلمى:

- ولكن هذا ليس ذنب فاجنر.

فقال:

- هذا صحيح. ذنبي أنا. أنا المذنب. ولكنكما سألتماني لماذا لا أحب فاجنر وهذه هي أسبابي. وأنا أنتظر اليوم الذي أشاهد فيه إيزولد رائعة الصوت ورائعة الجمال. عندئذ سأقترب من فاجنر خطوة أخرى.

وقالت ناهد:

- أرجو ألا يطول انتظارك. الغناء في أوبرات فاجنر ليس بالأمر السهل.

فقال:

- لا أستطيع الإقبال على الأوبرا إلا إذا كانت ممتعة للعين بقدر ما هي ممتعة للأذن، وأعتقد أن فاجنر سيوافقني على ذلك. ألم يكن هو صاحب نظرية الأوبرا كفن شامل يجمع بين الشعر والموسيقى والغناء والتمثيل والرقص والاستعراض؟

وضحك، وعندما سألته سلمى عن سبب ضحكه، قال:

- شاهدت ذات مرة إخراجا لا ينسى لأوبرا «مدام بترفلاي». لم أصدق عيني عندما رأيت المغنية التي تؤدي الدور الرئيسي. كانت كتلة جسيمة من اللحم والشحم. تخيلوا! لا يمكن لأحد أن يقنعني أن تلك المغنية العملاقة – مهما كانت جودة صوتها - يمكن أن تؤدي دور فتاة الجيشا اليابانية الرقيقة كأنها فراشة كما يدل اسمها. وكنت أغمض عيني وأجاهد لكي أكتفي بالسمع -

دون جدوى. ثم جاءت الضربة القاضية – القاضية على المتعة – عندما رأيت رفيقات الفراشة: مجموعة من العجائز الحيزبونات. لطفك يا رب!

ومن المؤسف أن ساعة الحساب جاءت وبدأ الجميع يتهيأون للذهاب. وكان يتمنى أن يرى وجه ناهد وهي تضحك. أما سلمى، فقد بدت وكأنها طفلة أصبحت راضية بعد حزن وشحوب. ولاحظت ناهد علامات التفكير على وجهه، فسألته: «يبدو أنك تريد أن تقول شيئا». كانت هناك بالفعل أشياء لا حصر لها يريد أن يقولها. الوقت مر بسرعة. كان يريد للأحاديث عن الموسيقى أن تمتد. ناهد كانت قليلة الكلام، وكان يتمنى أن يستمع إليها تتحدث عن الموسيقى فتطيل. كان في حاجة إلى ذلك. وكان على يقين من أن مثل ذلك الحديث كفيل بأن يبدد بقايا الظلام التي يشعر أنها ما زالت قابعة في ركن من نفسه. ولم يكن يرغب في العودة إلى مسكنه. قال: «كنت أتمنى للجلسة أن تطول». فقالت وهي تبتسم: «فإلى جلسة أخرى إذن». وسُئل الأب ما إذا كان يريد فاتورة واحدة للجميع أم يريد فاتورتين منفصلتين. فتردد كارل قليلا ونظر إلى ناهد متسائلا، فأومأت إليه بهزة من رأسها، فدفع الحساب كله. وقال:

- أنت ضيفنا الليلة.

واتفقوا على أن يلتقوا؛ وتبادلوا أرقام التليفونات. وانصرف الأب وبنتاه. ولكن ناهد عادت على عقبيها لتقبل الضيف على وجنتيه كما يتبادل الأصدقاء القبل عند الافتراق. وهمست: «إلى اللقاء». وتبدد الظلام على الفور. وبقي في مكانه لا يتزحزح. لا يريد

للنشوة أن تنقضي. لو أنه روى القصة كاملة لأي من الناس لما صدقه، ولكنها حدثت. وما زال أثر قبلة ناهد على وجنته. وكان عسيرا عليه أن يفارق المكان الذي تركوه فيه، وكان عسيرا عليه أن يعود إلى مسكنه، وكان عسيرا عليه أن ينام عندما أوى إلى فراشه. وعندما أغمض عينيه في النهاية، طار فوق أبراج الكاتدرائية. أهو ملاك من ملائكة الرحمن، أم مفتسوفيليس على شكل خفاش، أم سفينة فضائية؟ وهبط به جناحاه عند حلبة للرقص، وتقدمت منه فتاة تدعوه إلى مراقصتها. أهي سلوى؟ هل عادت إليه؟ أم هي ناهد؟ قال: «ولكني لا أحسن الرقص». قالت: «اتبعني. ألم أعلمك السباحة ذات يوم؟». هي سلوى إذن. محال، هذه ليست حمراء الشعر.

******

أقفل الكتاب في يأس من القراءة، فهو مشتت الذهن. لا يكاد يقرأ فقرة أو فقرتين حتى يناوشه النعاس. ماريكا تسأله في خطاب متى سيعود. وفي ذيل الصفحة كلمة من كريمة: «إنت واحشنا قوي يا بابا. ومع ذلك أرجو تكون مبسوط». كيف يرد؟ وكيف يبرر طول إقامته في فيينا؟ ووضع أسطوانة لأغاني شوبرت دون تركيز على الاستماع. ولكنه تنبه عندما جاءت أغنية «ممتلكات المغني»:

«تستطيع أن تحيل سعادتي إلى شظايا

أن تأخذ كل ممتلكاتي

لكن اترك لى قيثارتي دون غيرها

وسأبقى عندئذ فرحا وثريا».

فأدار قرص التليفون ليقول لصديقه لوبيز: «أريدك أن تبحث لي عن معلم للموسيقى». وأجابه لوبيز: «تريد أن تدرس الموسيقى؟ هذا جميل ولكني لا أعرف أحدا يمكنه أن يعلمك. لو أن كرستينا كانت هنا لطلبت إليها أن تتولى أمرك. فهي تعلم الأطفال الموسيقى». فأجاب: «ليتها كانت هنا، فأنا أريد من يعلمني كما يعلم الأطفال. ومع ذلك أنا أفضل أن يكون المعلم رجلا». وسأله لوبيز لماذا يفضل معلما بدلا من معلمة، فقال: «لا أريد أن ننصرف إلى أشياء أخرى غير الموسيقى». وضحك لوبيز: «أفهم ما تعني. إذن أمهلني حتى أفكر. لعلني أهتدي إلى حل». فسأله: «ما رأيك في صديقك الذي يصاحبك على البيانو كل جمعة؟». قال لوبيز: «فكرة جيدة. لماذا لم أفكر في ذلك؟ سأعرض عليه الأمر، وأرجو أن يقبل. سأعود إليك بالإجابة على أي حال». وجاءت الإجابة بموافقة الرجل على إعطائه درسين في الأسبوع، فاستأذن لوبيز في استخدام البيانو الموجود في الشقة: «أنا أعرف أنه بيانو كرستينا. أرجوك أن تخبرها أنني على استعداد لدفع الإيجار وتكاليف الصيانة إذا اقتضى الأمر ذلك».

وعندما تم كل شيء كما أراد، بدأ يشعر بالندم. أهو مجنون؟ أمن الممكن لشخص في مثل سنه أن يتعلم الموسيقى؟ وهل لديه الموهبة المناسبة؟ يقال إن الإنسان المؤهل للموسيقى يولد ولديه الموهبة جاهزة، الأذن الموسيقية أو الحبال الصوتية إذا كان يريد

الغناء. والموسيقى فن عسير، فهل لديه القدرة والوقت والصبر؟ وهو إذا وجد من يعلمه لا يستطيع الإقامة في فيينا لفترة طويلة. لا بد أن يعود إلى مصر. الأسرة بدأت تطالبه بالعودة. وكيف يرد على خطاب ماريكا؟ يبدو أنه تهور.

ورن جرس الباب، فرأى أمامه رجلا قصيرا أشيب الشعر أشعثه. وكان يبتسم: «هذه تجربة جديدة ومثيرة بالنسبة لي. ولكن لنحاول». وقال للسيد فردريك: «لنحاول. ولا بد أن أطمئنك منذ البداية فأخبرك أنني ليست لديّ مطامح بعيدة المنال. أنا لا أريد أن أكون عازفا ماهرا، فهذا محال. ولكني أريد أساسا أن أتعلم لغة الموسيقى». وسأله فردريك عما يعني بذلك، فأجاب: «أريد أن أفهم رموزها وكيفية استخدام المؤلفين لها والتعبير بها. أريد أن أصل في الفهم إلى المستوى الذي يمكنني من قراءة النوتة الموسيقية لعمل من أعمال بتهوفن مثلا، وأتمكن عند السماع من تتبعه في مختلف تقلباته وإدراك بنيته وأسرار الصنعة فيه. أريد ...». ونظر إليه فردريك متعجبًا: «كل ذلك وتدعي أنك ليست لديك مطامح بعيدة المنال؟ أنت في الواقع تريد أن تتمكن من تحليل عمل موسيقي مثل سيمفونية أو صوناتة لبتهوفن، أليس كذلك؟ ولكن الوصول إلى ذلك المستوى يقتضي دراسة منظمة للموسيقى وتاريخها وحياة مؤلفيها، وهي دراسة ينفق فيها الطالب الشاب سنين عديدة. أنا أقترح عليك إذن أن تكتفي بتلقي دروس في التذوق الموسيقي». قال: «كلا، لا تعجبني هذه الطريقة الانطباعية في فهم الموسيقى. يخيل إليّ أن من غير الممكن فهم الموسيقى كما أريد دون تعلم العزف ودراسة النظرية في نفس الوقت. ولندع عدد السنين اللازمة. دعنا نبدأ من البداية – من الصفر - ونكتفي بذلك كخطوة أولى. ولديّ اقتراح عملي في هذا

الصدد. ما رأيك لو بدأنا بما يتعلمه الطفل في المدرسة الابتدائية، وبالكتاب الأول في المنهج. يخيل إليّ أن هذه الدروس الأولى تتضمن قدرا من الدراسة العملية أو العزف وقدرا من المبادئ النظرية، ويخيل إليّ أن الجانبين مرتبطان. ولك أن تتوقف أحيانا فتستطرد في شرح تفريعة من التفريعات أو تفتح قوسا تحشر فيه معلومة تاريخية: نبذة مثلا عن الهارموني أو نشأة تعدد الأصوات (البوليفوني) في الموسيقى الغربية أو عن الغناء الكنسي أو موسيقى التروبادور، أو ما شئت. بعبارة أخرى أرجو أن تعلمني كأنني طفل، وربما استطعت القفز واختصار بعض المراحل. وهذا يكفيني. ولنترك الباقي للمستقبل. ما رأيك؟».

قطب المعلم جبينه، وظل يهز رأسه للحظات كأنما يدير الكلام في رأسه. من الواضح أنه غير مقتنع بالخطة المقترحة، ويستغرب أمر هذا «المجنون». ولكنه تنهد في النهاية كمن يسلم أمره لله، ووافق. وأصبح الرد على ماريكا واضحا: لا حاجة إلى البحث عن مبررات لإطالة الإقامة في فيينا. ليتصرف كالحاكم المستبد. وكتب يقول: «ماريكا يا حبيبتي، اطمئني. أنا بخير، وسأعود سالما دون زوجة أوروبية. ولكن أمهليني حتى أشبع قليلًا من فيينا. أنا أعوّل على حبك وتأييدك».

وتغيرت نظرته إلى الموسيقى منذ الدروس الأولى. فسرعان ما اكتشف أن لا حاجة به إلى الانشغال بموضوع الموهبة الفطرية أو «الأذن الموسيقية». هناك ما هو أبسط وأكثر إلحاحا: التحكم في الأصابع؛ فأصابعه لا تعمل على النحو السليم: لا يضع سبابته على أحد مفاتيح البيانو إلا ويرتفع إصبع آخر أو ينخفض. والأدهى من ذلك أن إبهام اليد اليسرى يتدلى من تلقاء نفسه دون

مستوى لوحة المفاتيح ويعجز عن الاستجابة السريعة والتنسيق مع الأصابع الأخرى. يحدث ذلك دائما دون وعي منه ورغم تنبيه المعلم مرارا: «على العازف أن يكون مستعدا بجميع أصابعه فوق لوحة المفاتيح، جاهزا لنقل اليدين والأصابع بسرعة يمنة ويسرة على طول امتداد اللوحة. ألا ترى عدد أوكتافات البيانو؟»، وينهض فردريك عن مقعده ويرتفع صوته كأنه يخطب: «تخيل أنك تقبض على كرة بلياردو. يجب أن تتحرك أصابعك انطلاقا من ذلك الوضع وأن تتمكن من العودة إليه بسرعة. تخيل مخلب النسر. أصابع النسر المعقوفة هي التي تمكنه من القبض على الفريسة فلا تفلت منه».

ويحاول الطالب أن ينفذ هذه التعليمات البسيطة، ولكن الإصبع المتمرد لا يفتأ يخونه ويعود إلى انفراجه وتدليه، وكلما دُعي إلى العمل، فوجئ وأصابه الاضطراب، «فتفلت الفريسة». وفردريك لا يفتأ يصيح: «كرة البلياردو من فضلك» دون جدوى. لم يكن الطالب يتصور أن الموسيقى تبدأ بقبضة اليد وأن التحكم في الأصابع ليس بالأمر السهل، وأن بعض الأصابع تجمح وتخذل المتعلم (لأنها تتشوه بسبب تقدم السن واستخدامها في أغراض لا علاقة لها بالموسيقى). وتتكشف هذه المشكلة فتظهر مشكلات أخرى عميقة: قدرة الجهاز العصبي على تحقيق التوافق بين أصابع كلتا اليدين وعلى الاستجابة السريعة، وقدرة الذاكرة على الحفظ... مشكلات كثيرة لم يكن على وعي بها. وكلما فكر فيها اقترب من اليأس وعاد إليه سخطه على الزمان ودوره المخرب: كان يجب تعلم الموسيقى في سن مبكرة، ولكن الزمان لا يكف عن المضيّ، ويحمل معه أغلى ما لدينا. ويقول لنفسه إن ما

يحاول عمله الآن نوع من هوس الكهول، وأصعب من أن يجد امرأة تحبه.

قال له فردريك ذات يوم: «ألاحظ أن أصابعك ترتعش. كيف ذلك وأنت لم تصل بعد إلى سن ارتعاش الأصابع؟ هل أصابتك صدمات؟» فتوقف عن العزف وانتابه الوجوم. ها هو الغطاء يرتفع عن مشكلات أسوأ. ها هي طبقات دنيا من الوساوس والمخاوف. لماذا لا يستطيع تعلم الموسيقى بسهولة؟ دعنا من كرة البلياردو، وقصور الجهاز العصبي، وضعف الذاكرة. هناك تدخلات أخرى تحدث فجوات سوداء في انتباهه: الأسرة في مصر تناديه (متى يعود؟)، وناهد لم تتصل (كلما رن جرس التليفون خيل إليه أنها تناديه ثم يخيب ظنه)، والأسوأ من كل ذلك أن شبح سنية يلوح بين حين وآخر (تلفها الظلال في موقع خلفي من عقله ثم تنحسر عنها).

وشكا لصديقه لوبيز ضعف قدرته على التحكم في أصابعه، فأكد له أنه سيتغلب على هذا القصور عن طريق المواظبة على التمرين، وقال: «لا تيأس. أنت ما زلت في البداية، الموسيقى معشوقة - هذا إذا كنت تعشقها – صعبة المراس، وعليك أن تبذل الكثير في طلب ودها. ولكن لا تنسَ أن الصبر والعمل الدائب يحققان المعجزات». وأخبره أن بول فتجنشتاين – وهو من أبناء فيينا – كان عازفا عالميا على البيانو رغم أنه كان يستخدم يدا واحدة – اليسرى - بعد بتر ذراعه اليمنى في الحرب العالمية الأولى. وأتاه بكراسة لتمرين الأصابع زكتها كرستينا فيما قال. وكل ذلك جميل.

هناك الآن ثلاثة أشخاص يعنون بتعليمه الموسيقى، ولكنه في حاجة إلى من يؤيده معنويا، في حاجة إلى صديق. كم يود لو أن كرستينا كانت حاضرة. فكرة خطرت له وعبرت بسرعة عندما تذكر أنه مادة قابلة للاشتعال إذا اقترب من الجنس الآخر. كم يود لو استطاع أن يعرف المرأة وينعم بصحبتها بمعزل عن وساوسه. كيف يتخلص من هذه الوساوس؟ كيف يخرج من جلده؟ هل الصداقة مع المرأة ممكنة أصلًا؟

يدرك الآن أنه لم يعرف البراءة في يوم من أيام حياته. عندما سألته ماريكا عن سبب بكائه حينما رأى ناعسة ترقص في العرس، لم يجب عن السؤال رغم أنه يعرف الإجابة. خشي أن يخبرها أنه شعر بالغيرة. ولماذا أثار رقص أمه في الرضاع غيرته؟ لأنه رآها جميلة على نحو لم يعهده من قبل. رأى جسد الأم يتحول فيصبح جسد الأنثى المثير، رآها تنفصل عنه لتكون للرجال. ذلك ما رآه رأي العين. وهو لا ينسى دروس فريدة التي كانت تكبره ببضع سنوات. كانت تصحبه إلى الجامع ليختبئا تحت المنبر والناس نيام ساعة القيلولة، ولتكشف له عما لم يكن يعرف. إلا أنه يتذكر أيضا أن الموسيقى تكشفت له بدورها في سن مبكرة. لم يتأخر وصول الملائكة عن وصول الشياطين. فهل يكون في الموسيقى علاجه؟ هل يمكن للموسيقى ترويض الوحش القابع في أعماقه؟ باخ يبتهل، وهايدن يبتسم، وبتهوفن يغالب الصعاب ويغلب، وشوبرت يعاتب ليخلص إلى التصالح والفرح. فهل يكون هؤلاء أطباءه؟

* * *

إذا عملت الأصابع كما ينبغي، قال له فردريك: «أحسنت. كان ينبغي أن تأتي إليّ منذ ثلاثين سنة أو أكثر. كان بإمكانك عندئذ أن تصبح عازفا ماهرا أو مؤلفا. لا، بل الأرجح أنك كنت ستصبح مؤلفا. كبار العازفين يبدأون عادة في سن الرابعة أو الخامسة». وإذا وقع الخلل احتج وصرخ: «تحكم في أصابعك يا سيدي، ولا بد من ضبط الإيقاع بالثانية.. الموسيقى هي حسن التصرف في الزمن. عدّ، أو اطرق على الأرض بقدمك، أو غَنِّ مع العزف، أو دعني أغني معك». ويغني. وإذا أصابه اليأس أعلن عن ذلك بوضوح. فهو يديم النظر إلى ساعته، أو يقف بالقرب من النافذة ويصفر أو يدندن، ولا يدع مجالا للشك في أنه فقد الاهتمام ويريد الانصراف. وهو ينصرف غاضبا في بعض الأحيان، ويبدو وكأنه لن يعود أو أنه سيبعث برسالة مع لوبيز يعتذر فيها عن مواصلة الدروس. ولكنه يعود دائما، ويعود متهللا: «هل تمرنت؟ كم من الوقت قضيت؟ ما هي آخر أخبار الأصابع؟»، ويقول إن تعلم العزف يشبه ممارسة الرياضة البدنية، وإن عازف البيانو العظيم بطل رياضي صاحب أرقام قياسية، وإن كانت قوته تظهر في أصابعه لا في عضلاته: «ولك أن تتخيل ما تحتاجه البطولة من جهد وصبر. لكن لا تيأس. وينبغي أن تعلم أن كبار العازفين يبذلون جهودا مضنية في تعلم الألحان. كبار العازفين يشقون بالموسيقى، وكبار المؤلفين لا يكفون عن تعذيبهم بالصعوبات والتحديات. وقد اتفقنا منذ البداية على أنك لن تطلب المحال، وستكتفي بما تستطيع وفي حدود طاقتك. أليس كذلك؟».

وسأله ذات يوم عن آخر أخبار الأصابع، فقال: «مرونة الأصابع مشكلة ضخمة لمن هو في مثل سني». فأجاب: «مفهوم. ولكن هناك شيئا يسعدني في عزفك، وهو أنك لا تنظر إلى لوحة

المفاتيح، بل توجه عينيك إلى النوتة، وفي بعض الأحيان تصرف النظر عن النوتة للحظات، وهو ما يبشر بالخير. أعتقد أنك ستستطيع قريبا أن تستغني عن النوتة لفترة طويلة نسبيا وتعزف وأنت مغمض العينين. أنت تعلم أن بعض العميان يجيدون العزف على البيانو». فقال: «لاحظت أن أصابعي رغم قصورها تؤدي المطلوب منها في بعض الأحيان من تلقاء نفسها ودون أن أنتبه إليها. فهل أنا مصيب عندما أدعي أنه توجد ذاكرة للأصابع؟». وسأله فردريك عما يعنيه، فقال: «بعض العميان كما تقول يجيدون العزف. والعازفون الكبار ليسوا في حاجة إلى نوتة. يتعلمون اللحن ثم يتركون الأمر لأصابعهم. ألا يعني هذا أن اللحن يتسرب إلى الأصابع ويستقر فيها بحيث يعرف كل إصبع أين ومتى يقع على لوحة المفاتيح أو الأوتار؟ تماما كما يحدث عندما يتعلم المرء الكتابة بأصابعه العشر على الآلة الكاتبة، أو عندما يتعلم استخدام السلم صعودا ونزولا. على الإنسان أن يترك الأمر في النهاية لأصابعه أو قدميه، فلا يتدخل في عملها التلقائي وإلا تعثر. أليس كذلك؟». وهمهم فردريك: «لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل، وينبغي أن أتفكر فيها». وقال كأنما تذكر شيئا مهما: «ومما يسرني أنك قد تتعثر في عزف جملة، فتسمعني أعزفها، فتستقيم لك. هذا جميل. هذا يعني أن الجملة نفذت إليك دون تفكير. هكذا يتعلم الطفل الموسيقى. وألاحظ أيضا أنك أحيانا تتمايل مع العزف دون انتباه. أرجو أن يدل ذلك على أن اللحن بدأ يستولي عليك ويسير بك.

لنستمر إذن.. أرني ماذا ستفعل اليوم».

وقد بدأ يستوعب بعض المفاهيم الموسيقية الأساسية بعد أن كان يصادفها عن طريق القراءة، فلا يدركها إلا على نحو نظري غامض. أصبح الآن بفضل البيانو يدرك عمليا مفهوم درجات الصوت ما بين رفعها نحو الحاد وخفضها نحو الغليظ، وما هو المقام أو الميزان. تذكر أن الشعر ينظم مثله مثل الموسيقى وفقا لقوالب تسمى في الشعر العربي أوزانا أو بحورا. وهو يعرف الآن كيف يقرأ أوليات الموسيقى (أولويات الأولويات) في النوتة.

وهو يشعر بإزاء الموسيقى أنه ما زال هو ذلك الطفل الذي عرف لأول مرة كيف يفك الخط في ميدان عباس. اقرأ باسم ربك الذي خلق. القراءة معجزة من أكبر المعجزات. والأمر كذلك في فك رموز النوتة ونقلها بالأصابع إلى المفاتيح أو إلى الحبال الصوتية عن طريق الغناء. وإن كانت السعادة هنا أعظم. رموز النوتة شديدة الدقة وتبدو في بادئ الأمر مستغلقة كأنها جزء من لغز عصيّ، ولكنها عندما تنفك تتكشف عن لحن، أو يبزغ منها اللحن كما يخترق شعاع النور كثافة السحاب. عندئذ تنطق النوتة وتعبر؛ يظهر المعنى؛ نسمع غناء المؤلف؛ تصلنا رسالته. نشوة لا تعدلها نشوة! وذلك هو الفرح والثروة اللذان وجدهما شوبرت في قيثارته وغناهما واستغنى بهما. الفرح والثروة يكمنان أساسا في خطوط النوتة الخمسة الظاهرة والأخرى الافتراضية، وما بين الخطوط من مسافات، وما يلحق بها من رموز وإشارات وتعليمات. هنا يضع المؤلف شعره، هنا يوجد عالم بأسره. والموسيقى فن لا يصح فيه إلا الصحيح، واللحن لا يخرج إلا في ولادة متعسرة. ولكن بزوغ اللحن هو بداية الفهم وهو السعادة الكبرى. وإذا استطاع أن يساعد اللحن على الظهور، فقد وضع قدمه على طريق الفهم الصحيح وأصبح من الفائزين.

لكن يحدث أحيانا أن تظهر أشباحه فتختلط الخطوط والمسافات وتتبعثر الرموز وتتلوى الأصابع وتتشنج، وتنشأ فجوات سوداء في الذاكرة والانتباه، ولا يتمكن من السيطرة على التشتت والفوضى إلا بعد جهد جهيد وسماع تأفف المعلم وسخطه. صحيح أن أصابعه تتمرد عليه وتخذله، ولكن هناك – من وراء الأصابع والجهاز العصبي– عقله المعرض لهجمات من الخوف والقلق. كريمة التي تركها في القاهرة تستعد لإتمام الدراسة الثانوية؛ وناهد التي لم تظهر بعد شهر من الغياب، وهلم جرا. آخر عبارة قالتها كانت: «إلى اللقاء». متى يكون اللقاء إذن؟ هل كان ينبغي أن يطرح عليها السؤال؟ أم أنه أحسن صنعا عندما أخفى لهفته؟ شهر كامل تقريبا لم يتلق فيه أي اتصال منها. أصبح يجفل ويقفز إلى التليفون كلما رن جرسه، ثم يكتشف أن مناديه ليس من يريد. ومشكلة إبهامه المستعصية: لماذا ينسحب ويتدلى؟ أيكون قد أصابه تشوه عندما قبضت عليه سنية ذات يوم ولوته بشدة، وهو يحاول استخلاص مفتاح الشقة منها كي يخرج إلى العمل بينما تريد له البقاء حبيس البيت طيلة اليوم؟

* * *

دروس الموسيقى الأخيرة أصبحت مدعاة للسخرية، وإن حاول المعلم إخفاء سخريته. يستطيع أن يراها في نظراته. فهل يحزم حقيبته ويترك كل شيء في فيينا ويعود إلى مصر فورا؟ هل يستجمع كل قواه ويدير ظهره لناهد ودروس الموسيقى والحفلات الموسيقية بصحبة لوبيز؟ قد يمكنه إيجاد حل لمشكلة الموسيقى في مصر، رغم أن مصر تستطيع أن تفلّ عزيمته وتصرفه عما أراد. أما ناهد.. أمسية جميلة قضياها حول مائدة عشاء جميل، ثم

ماذا بعد؟ قالت: «إلى اللقاء» (آوف فيدرتزيهن)، ولكن الناس يقولون ذلك بمناسبة ودون مناسبة دون أن يكون ذلك بالضرورة وعدا باللقاء. هذا صحيح، ولكنها عادت على عقبيها لتقولها. لنفترض أنها كانت تعني ما تقول، ماذا يريد منها؟ وماذا تريد منه على أي حال؟ ومع ذلك... ومع ذلك أمامه تحد رهيب، ولا بد أن يتغلب عليه. سأله الأستاذ إن كان قد تلقى صدمات في حياته. بم عساه يجيبه؟ لا يمكنه أن يحدثه عن الزواج من امرأة مدمرة، عن الحياة في ظل الخوف من الحريق والسم الزعاف. سنية تركت آثارها على أصابعه وعلى جهازه العصبي وعلى ذاكرته. وإذا كان هذا هو التحدي الأعظم، فلا بد أن يتغلب عليه.

وصرفه اهتمامه بالموسيقى عن التفكير في ناهد ليوم أو يومين إلى أن قرر الاتصال بسلمى لعله يجد لديها أخبارا عن أختها. ورحبت به سلمى بحرارة: «أين أنت؟ ولماذا اختفيت؟ هل ما زلت في فيينا؟ خيل إليّ عندما لم نسمع منك، أنك عدت إلى القاهرة». قال: «لا يمكنني أن أعود إلى القاهرة دون أن أخبركم بعد ذلك العشاء الجميل وحسن الضيافة». وسره أنها قالت: «كان يجب أن تتصل إذن، الرجل هو صاحب المبادرة». لا داعي لأن يشعر بالحرج إذن. أصابت البنت.. هو الذي يجب عليه أخذ زمام المبادرة. وها هو قد فعل: «الواقع أنني أريد أن أدعو ثلاثتكم إلى العشاء، والعشاء ليس سوى مناسبة للالتقاء بكم والتمتع بصحبتكم». قالت: «كم أتمنى ذلك، ولكن أبي سافر لزيارة أهله في البوسنة، وناهد سافرت في مهمة تتعلق بعملها».

هنا شعر أنه وقع في ورطة، ولم يعد يجد ما يقوله، وأصبح لا يدري كيف يتصرف. كيف ينهي المكالمة بلباقة؟ ثم جاءه صوت

سلمى: «هل يمكننا الانتظار حتى يعودا؟»، ولم يحر جوابا. وعادت لتقول: «أو ماذا لو التقينا أنا وأنت على غداء؟»، وأسقط في يده. لم يكن يتوقع ذلك ولم يكن يريده، ولكنه لا يستطيع الآن أن يتراجع. ليس من اللياقة أن يرفض. ومن حسن الحظ أنها اقترحت اللقاء على غداء - أثناء النهار، وسره أنها قالت: «أنا لا أحفل كثيرا بالغداء، ولا بالأكل بصفة عامة، على الأقل في الوقت الحاضر مراعاة لمشكلة الوزن كما تعلم». وضحكت: «يكفيني سندوتش أو قطعة جاتوه مع القهوة، المهم أن نلتقي قبل أن تسافر».

وتناولا الغداء على الرصيف أمام أحد المقاهي في شارع ماريا هيلفر شتراسه، وكان هناك شيء يحيره وهو يجلس في مواجهة سلمى، فهناك الأختان وأبوهما وليس ثمة ذكر للأم. أين هي الأم؟ وهمَّ بأن يسألها، ولكنه قاوم فضوله مقررا أن يتجنب كل المسائل الشخصية. وسألها بدلا من ذلك عن حال أبيها، فقالت إن أباها بخير، وإن كان ينتابه الاكتئاب أحيانا لأنه يسكن وحده. وانتظرت قليلا قبل أن توافيه من تلقاء نفسها بما يريد أن يعرف. قالت إن أباها وأمها مطلقان منذ زمن بعيد، وإنها هي وأختها قررتا الإقامة مع أبيهما إلى أن أنهيا فترة الدراسة ثم استقرت كل منهما بسكنها الخاص. وسألها عما إذا كانتا تريان أمهما، فقالت: «بين حين وآخر، فهي تقيم في فيينا، ولكنها في حقيقة الأمر لا تريد أن ترى أحدا». وأضافت قائلة: «امرأة صعبة».

وحاول أن يغير مجرى الحديث، ولكنها سألته إن كان متزوجا، فأخبرها أنه أرمل. فقالت: «أنا مطلقة. تزوجت بعد قصة حب طويلة، ثم اكتشفت بعد الزواج أن رجلي على علاقة بإحدى

صديقاتي، أعز صديقة في الواقع. تخيل! حدث ذلك بعد سنتين من الزواج السعيد». وأكدت على صفة «السعيد»، وهي تضحك بمرارة. وشعر برغبة في الحديث عن زواجه – آه لو استطاع أن يتخذ من سلمى كاتما لأسراره مضمدا لجراحه! - ولكنه قاوم الإغراء. لو أنه بدأ ذلك الحديث، لما انتهى؛ والأسوأ من ذلك أنه لا يعلم إلام تفضي الشكوى وتضميد الجراح. ليبتعد إذن. واكتفى بالقول إن الزواج مؤسسة اجتماعية صعبة، ولكنها ضرورية. فقالت: «لا أعتقد أنها ضرورية. من الأفضل في رأيي أن يظل العاشقان عاشقين». واستدركت فقالت: «والأفضل من كل ذلك ألا يسكنا تحت سقف واحد، وألا يلتقيا إلا على موعد. ما رأيك؟». فقال: «معقول حتى نتذكر الضغوط الاجتماعية، وهناك أيضا الرغبة في الاستقرار أو في تحقيق الأمان، وهناك الأطفال إذا ظهروا على المسرح». من الأفضل أن يتحفظ ويقتصر على العموميات.

المهم أنه حصل في النهاية على ما يريد. ظل طيلة الجلسة يريد أن يسأل متى ستعود ناهد، فيقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم يحجم، ولكن سلمى تطوعت أخيرا بالإجابة وكأنها كانت تعلم ما يدور في ذهنه: «لا أدري متى ستعود ناهد. الشركة تريد لها أن تبقى في سانت بولتن لتشرف على دورة تدريبية للموظفين الجدد، وهي لا تريد أن تنقطع طويلا عن العزف مع فرقتها. ولكنهم يحاولون إغراءها بالترقية وزيادة المرتب. وهناك إذن مفاوضات جارية بشأن حجم الزيادة، إذا كانت يعتد بها فقد تقبل ناهد الصفقة». وسألته متى يعود إلى مصر، فأخبرها أنه ينبغي أن يسافر في أقرب فرصة ممكنة، وإن كان لا يعلم متى ستتاح هذه الفرصة.

ما زال إذن معلقا بين السماء والأرض. ناهد تتفاوض مع الشركة والأمر لم يحسم بعد. وهو يتفاوض مع نفسه ولا يستطيع أن يحسم أمره. لا بد من العودة إلى مصر، إن عاجلا أو آجلا، والأفضل أن يكون ذلك عاجلا. وذلك ما قرره على مائدة الغداء عندما سمع الأنباء، وعندما تساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا تتصل به ناهد أينما كانت؟ هناك التليفونات، وهناك البريد. لماذا لا تخاطبه مباشرة؟ ثم يعود فيقول: العلاقة سطحية ولا تبرر كل ذلك الحرص والاهتمام من جانبها. لعلها تريد أن تراه بالفعل، ولكنها تركت ذلك للظروف. ولا ينبغي أن يطلب المزيد من علاقة سطحية. ولكن إذا كانت العلاقة سطحية، أليس من الأفضل ألا يحمل الأمر أكثر مما يحتمل، ويحزم حقيبته ويرحل؟ ثم يتذكر أنها «ظهرت» له ثلاث مرات، ويرى في ذلك معجزة لا ينبغي أن يقلل من شأنها. كأن ظهورها على ذلك النحو أقام بينهما رابطة لا يستهان بها. وعندئذ تخور عزيمته.

ودروس الموسيقى، هل ينقطع عنها، وفردريك معلم ممتاز قد لا يجد له نظيرا في مصر؟ صعب المراس.. صحيح، ولكنه يجمع بين الدراية الفنية بالعزف والتمكن من النظرية الموسيقية، والعلم بتاريخ الموسيقى. جميل، ولكنه لا يستطيع الإقامة في فيينا سنوات ليفيد من هذه الثقافة الموسيقية الرائعة، وعليه أن يرحل. وقرر في ظل حيرته أن يرجئ السفر أسبوعين. ولماذا أسبوعان؟ ولم لا تكون المهلة أسبوعا أو ثلاثة أسابيع؟ لأن القرار جزافي اتخذه كيفما اتفق، ولأنه في واقع الأمر ممزق لا يستطيع اتخاذ قرار معقول. وما هو القرار المعقول؟

* * *

سأله فردريك عما فعله بعد آخر درس، وكان قد تخلف عن درسين مع الاعتذار. فأخبره أنه انتهز الفرصة وأخذ يتدرب على كل ما في الكراسة من مقطوعات جيئة وذهوبا. وأردف قائلا: «على طريقتي بطبيعة الحال. لا بد أن هناك أخطاء وعيوبا. ولكنني رأيت أن أطلق لنفسي العنان». فسأله المعلم: «فكم من الوقت تنفق في التدرب؟». فأجاب: «ست ساعات: ثلاث ساعات في الصباح من العاشرة حتى الواحدة، وثلاث ساعات بعد الغداء من الساعة الثالثة إلى السادسة مساء». واستكثر فردريك قضاء كل ذلك الوقت. واستوقفه بعد قليل من العزف: «جميل. لا أريدك أن تعزف المقطوعات كاملة. يكفي سطر أو سطران من كل مقطوعة حتى نأتي إلى آخر الكراسة». وعندما انتهيا من آخر مقطوعة، قال: «هذا يكفيني. أريدك أن تلقي بهذه الكراسة جانبا، ولنبدأ العمل على كراسة أخرى. ها هي». وقال وهو يناوله الكراسة: «في هذه الكراسة ألحان مقتطفة من أعمال كبار الموسيقيين، ألحان مبسطة بطبيعة الحال، ولكنها ترفعنا إلى مستوى أعلى وألذ. إليك إذن. أرني كيف تتصرف في هذه الألحان».

كانت المقطوعة الأولى مقتطفة من جريج «الحالة الصباحية» سهلة، ومرت بسلام. أما المقطوعة الثانية المقتطفة من بتهوفن («نشيد الفرح» في كورال السيمفونية التاسعة)، فقد تعثر في السطر الثالث منها، ولم يجتز العقبة إلا بصعوبة. وجاء بعد ذلك مقتطف من السيمفونية الخامسة لتشايكوفسكي، وهو لحن يعرفه جيدا ومحفوظ في ذاكرته منذ عهد السيدة عائشة ويحبه، ففيه يسمع أنات تشايكوفسكي؛ وتمكن من عزفه من القلب كما خيل إليه. وجاء تعليق فردريك مشجعا: «هناك بعض العيوب

والسقطات، ولكن لا بأس.. لا بأس؟»، وتوقف: «كلا، لا بأس لا تكفي. لا بد أن أعترف بأنني طيلة هذا الدرس – هذا الدرس على وجه التحديد – ما زلت أستمع إلى عزفك وأتعجب.. ماذا عساي أقول؟ هناك طفرة. فماذا حدث في غيابي؟». قال: «يسعدني أن أسمع ذلك منك. فماذا حدث في غيابك؟ أنا نفسي لا أدري، ولكني أعلم أنني كنت طيلة الأسبوع مغتما». قال فردريك: «يبدو أن الاغتمام مثمر أحيانا. على أي حال، هناك ما يشبه المعجزة بالنسبة لمن يتعلم الموسيقى في هذه السن. ولكني لا أريدك أن تغتر. فما زال أمامك شوط طويل طويل. أصابعك أصبحت أكثر مرونة، ويسعدني أن أقول إنك عندما تخطئ وتلعب نغمة زائفة، تدرك ذلك على الفور. فكأنك تعلم أن العزف ينبغي أن يبلغ درجة الكمال. ذلك هو شأن الموسيقى.. الكمال. المشكلة هي أنك عندما تعزف لا تجد أمامك فرصة للتصحيح. تستطيع أن تشطب كلمة أو جملة إذا كنت تكتب ثم تستأنف الكتابة، ولكنك لا تستطيع عمل ذلك في العزف. الموسيقى لا ترحم، ولا مجال للتصحيح فيها. إذا أخطأت وقعت الكارثة، وليس هناك ما تفعله أمام جمهور المستمعين. وهناك أيضا مشكلة التوقيت. ألاحظ أنك تسرع دائما... ولكني لا أريد أن أثبط همتك. لكل شيء أوان، وسأكتفي اليوم بأن أقول: «مبروك».. أنا سعيد بالتدريس لك»، ومد يده ليصافحه.

لا يريد له أن يغتر؟ الغرور والنشوة صعدا إلى رأسه، فخرج ولم يستطع العودة إلى البيت، بل ظل يدور في أنحاء المدينة لا يقر له قرار حتى الفجر. ما زال أمامه شوط طويل. المقتطفات التي يعزفها مخصصة للأطفال، يعرف ذلك جيدا. ولكن أن يعزف في هذه المرحلة جملا لبتهوفن؟ «نشيد الفرح» في التاسعة سيكون

خيطه الهادي إلى بقية السيمفونية. سيبحث عن النسخة الأصلية منها، وقد يطلب إلى المعلم أن يستمع معه إلى أجزاء أكبر وأصعب منها، وسيطلب إليه أن يشرح له الهارموني فيها، وصيغة الصوناتة التي استقرت عليها الموسيقى الكلاسيكية. ونشيد الفرح الذي يأتي في آخر السيمفونية هو المفتاح؛ لأنه يعلم أنها تتضمن منذ البداية إرهاصات وبشائر به.

ولكن أحلامه المنتشية التي تطير به لا تحميه تماما من جاذبية الأرض. فبين الحين والحين يعود إليه السؤال المزعج: متى يعود إلى مصر؟ ولم يستقر له قرار إلا عندما تهيأ للنوم، فهو لن يسافر قبل أن يصل إلى آخر لحن في كراسة المقتطفات الكلاسيكية، وليكن ما يكون.

وفي الصباح اتصل بسلمى ليخبرها بقراره البقاء في فيينا لبعض الوقت، فأعربت عن سعادتها بذلك، وقالت: «هناك إذن فرصة لكي نلتقي ثلاثتنا قبل أن تعود إلى بلادك».

* * *

عندما يتذكر كيف تتحرك أصابع العازفين المحترفين – ناهيك عن كبارهم – على لوحة المفاتيح يدرك أن إتقان الموسيقى هدف دونه النجوم. وهو لا يريد إتقان الموسيقى، فذلك ضرب من الجنون. ولكن العزف بقدر من المهارة اللائقة ليس بدوره هدفا قريب المنال. لماذا على سبيل المثال يعود إلى لحن من عدة سطور عزفه البارحة، فيبدو وكأنه يصادفه لأول مرة؟ علام يدل ذلك؟ على غباء موسيقي أم ضعف في الذاكرة أصابه في وسط

العمر، أم أن رأسه ازدحمت بما استقبلت عنوة أو عن طيب خاطر من معارف وهموم بحيث أصبحت تضيق بكل ما يجدّ؟ أم أن ما يثير وجله أمام البيانو هو شعور غامض بالذنب؟ هل يجرؤ على دخول عالم الموسيقى؟ أهو دخيل أو معتدٍ لأن الموسيقى شيء محرم عليه؟ هل هناك من يستكثر عليه هذا النوع الأعلى من الترف العقلي؟ يخيل إليه أنه يواجه قوة أو قوى تعمل على كبحه كلما أراد الانطلاق؟ تمكن من التغلب عليها عندما انتقل من الريف إلى المدينة، عندما حاول سالم قمعه، عندما بذلت زوجته قصارى جهدها في تقييده، ولكنه لم يعد يقوى على المقاومة. أم أنها شهوات البدن؟ «أما الجسد فهو ضعيف..». هل آن أوان الهبوط والانتكاس.

هكذا كان يفكر وهو يذرع الغرفة جيئة وذهوبا عندما رن جرس التليفون فاندفع نحوه متلهفا كعادته. ها هو الخلاص قد جاءه. ها هي ناهد قد جاءت لتنقذه من القلق. سيشرح لها - هي الموسيقية - ما يعانيه، لعلها تدخل على نفسه شيئا من الطمأنينة. ولكن المنادي لم يكن ناهد. سمع صوتا نسائيا، فقال:

- آلو يا ناهد.

وجاءه رد سلمى:

- أنا سلمى يا مدحت. كيف حالك؟

واضطرب قليلا ثم قال:

- على ما يرام. وأنت كيف حالك؟

- كنت تتوقع اتصالا من ناهد. أليس كذلك؟

فقال:

- صوتاكما متشابهان بالفعل.

فقالت:

- لا يدهشني ذلك.

وبعد لحظات من الصمت قالت:

- مدحت، أنا في حالة من الضجر الشديد. ولم أعد أطيق البقاء وحدي في البيت. هل يمكنك أن تخرج بي هذا المساء؟

تردد للحظة لأنه يشعر بالحرج. لم يشعر بالحرج عندما تغدى مع سلمى على قارعة الطريق، وشربا مياها معدنية. لقاء في وضح النهار ولا يمكن أن يعلق به شك. أما اللقاء في المساء، وما يؤدي إليه من عشاء وشراب، فهو مسألة أخرى. غير أن فكرة الخروج هربا من البيانو وما يثيره في نفسه من قلق تروق له. أصبح يضج بالعمل اليومي الشاق، ست ساعات من العمل اليومي المرهق؛ لأنه بطبعه لا يعرف أنصاف الحلول. وحديث سلمى على التليفون يشي بأنها في ضائقة نفسية؛ قالت ما قالت وكأنها تطلب خدمة من صديق أو أخ أكبر. مسكينة سلمى.. ما زالت في مقتبل العمر، ويبدو أنها لم تفق بعد من مأساة زواجها وطلاقها.

وهو لا يستطيع أن ينسى شحوب وجهها ومسحة الحزن التي تطوف به بين الحين والآخر كأنها غمامة عابرة، ولا يستطيع أن ينسى كيف تنقشع الغمامة فجأة عندما تجد سلمى سببا يضحكها أو يدفعها إلى مشاكسة الغير، كأنها ما زالت فتاة في سن المراهقة لم يصبها خدش بعد. وتغلب على حرجه ووافق.

ورآها من بعيد تتهادى في معطف من الفراء. وعندما رأته أخذت تعدو نحوه منحنية تحت المطر الذي بدأ يتساقط، وقالت وهي تلهث: «أتيت بدون مظلة، خبئني تحت مظلتك». ووضعت ذراعها في ذراعه وهي تقول: «الكعوب العالية مصيبة من المصائب. الرجال محظوظون، فهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذه الحيل الأنثوية المضنية». وقال لها وهي تقرأ قائمة الطعام: «أتيت بك إلى هذا المطعم الإيطالي لأنني أجد فيه أفضل اسكالوب بتلّو في العالم. لم أجد مثله في روما». فقالت: «هنيئا لك. أما أنا، فإني أريد الليلة أن أنسى الرجيم والنحافة وكل ما يتصل بذلك؛ ضقت ذرعا بالحرمان من الأكل، ولعل ذلك هو سبب اكتئابي». قال: «إذن ماذا تطلبين؟». وأشع وجهها بابتسامة عريضة ولمعت عيناها وهي تقول: «أريد أوسّو بوكّو، وريزوتّو مطبوخا بالزبد والنخاع. وقبل هذا وذاك طبقا من الخضروات المشوية، وماذا سنشرب؟». فأجاب: «كما تشائين. ما رأيك في نبيذ إيطالي أحمر؟». فقالت: «ممتاز، ولكني أريد على الفور كأسا مضاعفة من الويسكي بالثلج».

وتنهدت بارتياح بعد أن أتت على الكأس: «كنت أفكر فيك بالأمس، وخطر لي... أعني أنني أشفق عليك من الوحدة بعد رحيل زوجتك. ألا تفكر في الزواج مرة أخرى؟». فأجاب:

«أعتقد أن مرة واحدة تكفي». ثم استدرك قائلا: «بالنسبة لي. أما أنت، فما زلت في مقتبل العمر، وباستطاعتك بسهولة..»، فقاطعته: «بالعكس. أنت مخطئ. باستطاعة الرجل أن يتزوج في أي سن تقريبًا. المرأة هي التي تخضع لقيود صارمة، قيود فرضتها عليها الطبيعة. الجمال كما تعلم يذوي بسرعة، فهناك السمنة، و..»، وتوقفت لتضحك، ثم استأنفت: «و... تغضن البشرة، وسقوط الشعر، والهرمونات وما إلى ذلك. المرأة لا تنعم بشبابها طويلا، وهي تنفق معظمه في مكافحة هذه الأخطار. هي في حرب مستمرة لكي تفوز برضا الرجال». وقال: «ولماذا نسيت أخطار الكعب العالي؟». وسرتها الإشارة إلى الكعب العالي وقالت بحماس: «والله صدقت. أشكرك على تذكيري بمصائب الكعب العالي». ورجته أن يطلب لها كأسا ثانية.

ها هي فترة الحرج الأولى قد انتهت، ولم تعد هناك صعوبة في البحث عن موضوع للحديث. والواقع أن الحديث مع سلمى سهل، فهي متفتحة وجريئة وطيبة القلب لا تخفي شيئا. فهل يطلعها على نفوره من الزواج بعد فشل زواجه الأول؟ يشعر برغبة شديدة في البوح والشكوى، وبخاصة لهذه الفتاة التي تتصرف تجاهه كأنها أخت صغرى. ولكنها صرفته عما يريد عندما قالت: «في المرة القادمة – أعني إذا لاح في الأفق رجل – سأرفض الزواج، وسأصر على وضع العشيقة. ممنوع السكن تحت سقف واحد. ويكون اللقاء بالمواعيد». وزمت شفتيها: «هذا هو قراري النهائي». وسألها: «وهل الإخلاص شرط في هذه العلاقة؟ أعني هل الخيانة مسموح بها؟». فقطبت جبينها: «وكيف لنا أن نعرف ما دمنا نسكن منفصلين؟ السكن المنفصل راحة للدماغ. هو حر على أي حال. ليفعل ما يشاء، ما دمت لا أعرف. أما أنا...».

قال: «أعتقد أنك ستكونين وفية». فقالت: «هذا صحيح. أنت تفهمني تماما. أنا لا أستطيع إلا أن أكون وفية». ورد قائلا: «لذلك أظن أنك بعد شهر أو شهرين أو لنقل ستة أشهر من ذلك الترتيب ستحزمين حاجياتك وتنتقلين إلى شقته لتسكني معه». وعندما احتجت قال: «إذا كنت من النوع الوفي، فستصبحين بسرعة معتمدة عليه وستقضين وقتك في انتظاره، ولن تتحملي غيابه لفترة طويلة، ولعلك تلاحقينه وتلحين عليه في طلب المواعيد. ولعلك تشعرين بالغيرة منه لاكتفائه بذاته أو لأنك تتوهمين أنه يرى امرأة أخرى. أليس كذلك؟». قالت بحماس: «لقد فهمتني. كأنك تقرأ في كتاب مفتوح. أنا غير قادرة على الخيانة – هذا طبعي – والوفاء يؤدي إلى الاعتماد عاطفيا على الطرف الآخر كما تقول، ومن ثم المعاناة الدائمة. لماذا لم أفكر في ذلك؟»، وأضافت بعد قليل: «أنت على حق. أنا فريسة سهلة للغيرة لأنني كما يقال امرأة رجل واحد، وأريد من رجلي أن يكون لي تماما. كان زوجي السابق يشكو من أنني كثيرة التشبث به ..».

توقفت عن الكلام، وظهرت على وجهها مسحة الحزن التي لاحظها عندما رآها لأول مرة. ثم رفعت إليه عينيها. هل كانت تشكو له؟ هل كانت تتوسل إليه أن يهديها إلى حل لمشكلة التشبث بالرجل؟ وأراد أن يطيب خاطرها، فقال: «لديك متسع من الوقت وأمامك فرص كثيرة، أنا متأكد من ذلك. ولا داعي لأن ترهقي نفسك بالتفكير. لنفكر الآن في الأوسو بوكو والريزوتو، فقد وصلا». وعاد الإشراق إلى وجهها، ورفعت كأسها وهي تبتسم: «أنت إنسان رائع. تمنحني الثقة في نفسي وفي المستقبل.. في صحتك».

وأعربت عن رضاها عما طلبت: «هذا الريزوتّو المطبوخ بالزبد والنخاع لا يقاوم. آه من هؤلاء الإيطاليين الشياطين! انظر كيف أضافوا عش الغراب البري – ويبدو أنه لا بد أن يكون بريا، يكفي...». وتوقفت كي تتذكر ما تريد قوله، ثم قالت بلهجة من غير رأيه: «أنا أحسد ناهد. نحن أختان شقيقتان، ولكننا مختلفتان ... تماما». ولم يستطع إخفاء لهفته عند ذكر ناهد فسألها بلهفة: «كيف تختلف هي عنك؟». قالت: «هي أقوى مني بمراحل، وكثيرا ما تقسو على من يتقرب منها. معتدة بجمالها وموهبتها الموسيقية. لا تعطي إلا بشح، وإن كانت تحب لفت أنظار الرجال». وأصابه الوجوم. لم يسعد بهذا الوصف. ولم يعد يشعر برغبة في الطعام، وإن استمر - قضمة هنا وقضمة هناك.

وقال: «معرفتي بالنساء محدودة. تزوجت، وأحببت كثيرات، من جانب واحد في معظم الحالات». وصاحت باستنكار: «من جانب واحد؟ أنت تتظاهر». وغمزت بعينها: «لعل هذه إحدى حيلك التي تستخدمها مع النساء». فقال: «على الإطلاق. لا أخفي عليك أن معرفتي بهن مستقاة في معظمها من قراءة الروايات وكتابتها». قال ذلك ليصرف الحديث إلى الروايات، ولكن يبدو أنها لم تسمع إشارته إلى الموضوع. قالت:

- ولكنك لم تشرب إلا نصف كأسك وتركتني أفرغ الزجاجة تقريبا.

- أنا أهتم بالأكل أساسا.

- ولكنك لم تأكل إلا قليلا. انظر كيف قضيت أنا على ما قدم لي.

- لا تقلقي علـيّ. أنا آكل ببطء حتى لا تري عاداتي الريفية الذميمة. آه لو أنك رأيتني آكل وحدي! عندئذ أعود إلى طبيعتي وآكل كالوحش الكاسر.

قالت وهي تضحك:

- لا تبالغ. لا أستطيع أن أتخيلك تأكل كالوحش الكاسر. على أي حال أنا عطشانة الليلة وأريد أن أشرب. أرجو ألا يكون لديك مانع.

وطلبا مزيدا من النبيذ، وعادت إلى الحديث عن أختها:

- العلاقة بيننا معقدة. هناك تنافس وغيرة متبادلة. ولذلك جذور عميقة ترجع إلى عهد الطفولة. كنت أنا الطفلة الأولى ونجم الأسرة حتى أتت، فتحولت إليها الأضواء. وانتقل التدليل إليها بوصفها الطفل الأصغر. وهي الأجمل، والأقوى شخصية، فلا تلمني إذا كنت أغار منها.

- ولكن لماذا تغار هي منك؟

- الحقيقة أنني لا أدري سبب ذلك. ربما لأنني حصلت على شهادة جامعية، وهي لم تفعل ذلك. أتمت الدراسة الثانوية بصعوبة، وأحبت الموسيقى منذ الصغر وانصرفت إليها، وكرهت سائر المواد الدراسية... تعلمت الموسيقى بفضل قوة الإرادة والدروس الخصوصية. باختصار هي لا تحب الدراسة الأكاديمية، وتمقت المذاكرة والقراءة بصفة عامة والامتحانات،

وتعتمد على ذكائها الطبيعي. ساعدها ذلك على النجاح في الموسيقى، ولكنها تأسف الآن لأنها لم تدرسها في أي معهد، ولم تحصل على شهادة جامعية. كان ينبغي...».

وأتى الجرسون بقائمة الحلوى، فطلبت مع الحلوى كأسًا من الجرابّا وقهوة. وعندما عاد الرجل بالزجاجة كاملة ووضعها على المائدة، أشرق وجهها وقالت بدلال (مشيرة إلى الزجاجة): «أنت لن تصدني عنها. أم أنك ستفعل؟». فقال: «أنا لا يمكن أن أصدك عن شيء». وكان يعني ما يقول. في الفتاة طفولة عذبة؛ من الصعب أن تصد طفلا عن الحلوى. سيكرهك إن فعلت. وكيف وجد زوج هذه الفتاة من غلظة القلب ما يغريه بخيانتها؟ لو أنه هو تزوج فتاة مثلها لدللها ولما منع عنها شيئا. ولكن ماذا عساك تقول؟ الدنيا مليئة بالأوغاد.

وفي سيارة الأجرة التي حملتهما إلى مسكنها، سألته إن كان يحب الأطفال، فضحك: «لدي بنتان. تزوجت إحداهما، وسأصبح جدا عما قريب». فقالت: «أنت إنسان محظوظ. كنت أريد طفلا من زوجي الدون جوان، ومن حسن الحظ أن رغبتي لم تتحقق، ولكن الأنثى مقيدة بقيد آخر، هو حدود فترة الخصوبة». وقالت: «أنا لا أفهم الخيانة ولا القسوة. هل تعلم أن أبي وأمي منفصلان منذ عشرين سنة تقريبا، ويعيش كلاهما في فيينا، ولكنهما لم يلتقيا ولم يتخاطبا منذ قررا الانفصال. أمي لم تجد رجلا آخر، ومع ذلك فإنها لا ترانا إلا على مضض». ثم استدركت: «لماذا أثقل عليك بهذه القصص المحزنة؟ يبدو أنني أسرفت في الشرب. ولكني كنت في حاجة إلى إغراق أحزاني.. سامحني. أشعر الآن بالدوار».

وأسندت رأسها إلى كتفه وإن لم تتوقف عن الكلام بلسان ثقيل: «عندما التقينا بك ونحن في طريقنا إلى ذلك المطعم، كنت قد تشاجرت مع ناهد، وأراد أبي أن يجمعنا على عشاء لترطيب الأجواء. ثم فرضتك ناهد علينا ..». وتوقفت لتعتذر: «آسفة لاستخدام هذا التعبير. لا تغضب مني. لم نكن نعرفك. كنت رجلا غريبا التقينا به في الشارع، ولم يكن أبي مرتاحا إلى ما فعلته ناهد، وكان يتمنى لو أنك قررت الجلوس إلى مائدة وحدك. ويؤسفني أنني كنت أؤيده ... ولكننا نقدرك الآن. لقد اجتزت الاختبار». وسألها: «أي اختبار؟»، فلم تجب. ويبدو أنها نامت. ولكنها استأنفت الحديث بعد قليل: «ناهد أخذت زمام المبادرة – كعادتها دائما – عندما دعتك إلى الانضمام إلينا. وحسنا فعلت، ولكن ذلك يثير حسدي. سريعة البديهة. تنجح دائما في سرقة الأضواء، ويقبل الرجال عليها... حتى أبي ... ماذا أقول؟ أصبح ينقاد لها مع أنها هي الأخت الصغرى. أنا أكرهها ...».

ورجته أن يذهب إلى المطبخ فيعد لها قهوة بدون حليب: «رأسي تدور، وأشعر بالغثيان يا مدحت. ستجد الحليب في الثلاجة إذا كنت تريد قهوة بالحليب. أما أنا، فأريدها سوداء». ودخلت سريرها. وسألها إن كانت بخير، فقالت: «لا تقلق. كل شيء على ما يرام، ولكن أرجوك لا تبقى واقفا. اجلس هنا». وأشارت إلى حافة السرير. وعندما جلس، أمسكت بيده، ثم انتهز فرصة تحولها إلى الرقاد على جانبها ليسحب يده. لم يكن يريد الصعود إلى الشقة، وكان الثلج يتساقط وهما في سيارة الأجرة. ولكنه لم يستطع تركها عند باب العمارة. كان من الواضح أنها في حاجة إلى من يساعدها على ارتقاء درجات السلم الأولى وركوب المصعد الكهربائي. وأعربت عن أسفها لإزعاجه: «كان ينبغي

أن أوفر لك صحبة أفضل. هذا هو الفارق بيني وبينها، يقظة دائما، وتبدو كما لو كانت في غير حاجة إلى أحد. أما أنا ... أصبت عندما أشرت إلى حالة الاعتماد على الغير». فقال: «لقد استمتعت بالسهرة، ويسعدني أنني اكتشفتك الليلة». قالت: «بل أنت تجاملني». قال: «صدقيني. أنت رائعة وتستحقين كل خير».

البرهـــــــــــــــان

كان يعني ما يقول، ويأسف لأن في الفتاة قدرة على الحب مهدرة. إلى أن قالت: «اخلع ملابسك وارقد بجانبي». كانت تغمغم عندما نطقت بتلك العبارة، فهل أحسن السمع؟ عندما كررت قولها داهمه على الفور شعور بأن ثمة كارثة على وشك الوقوع. لماذا تعرضه الحياة لمحن لا تحتمل؟ أمن العدل أن يواجه مثل هذا الاختبار؟ تمكن يوسف من صد التي هو في بيتها عندما راودته عن نفسه، وهمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه. إذن فقد هم بها.. استجاب لها، تقدم خطوة أو خطوتين منها، ووضع يده عليها. ولولا ذلك البرهان لسقط. كان مدعما بعون إلهي. رأى البرهان بعين بصيرته، ولكن البرهان كان ساطعا وقاطعا كالسيف. أما هو – مدحت من قرية القواسمة شرقية ابن جدته زينب ومرضعته ناعسة وماريكا اليونانية وامرأة عمه هنية، فما أكثر أمهاته!- فيشعر أنه منبوذ كما لو كان لقيطا؛ مدحت المهووس بالجنس الآخر والمغرم بهذه الفتاة على وجه التحديد. صار مغرما بها، وهو يرى ذلك الآن بوضوح. يريد هذه الفتاة الضعيفة المحتاجة إلى الحنان، التي تريد لف ساقيها حوله في هذا الجو العاصف. وحيد لا يرى نورا، ليس بنبي. ضعيف الإيمان كما قالت ماريكا. ولن يلومه أحد إذا لبى الدعوة. وسمع سلمى تقول: «لا تستطيع أن تذهب في مثل هذا الجو. قيل في نشرة الأرصاد الجوية إن عاصفة ثلجية ستهب».

ونهض من مكانه على حافة السرير ليطل من النافذة، فرأى ندف الثلج تتساقط بكثافة مروعة. يشعر الآن أنه محاصر بين هذا الثلج

المتراكم وسلمى. أمن العدل أن يواجه هذا الاختبار المؤلم؟ عندما عاد من المطبخ بالقهوة رآها حسنة القوام بضة الساقين في قميص قصير شفاف للنوم. وها هي متاحة له. إن كان قميصه شد من دبر... يا عزيزتي دعكِ من خرافة النحافة والرجيم، أنت كما أنت جذابة ولا يعيبك شيء.. أتمنى أن أقبل كل جزء منك. وكررت قولها: «لا تستطيع الذهاب في مثل هذا الجو». وتوسلت إليه: «أرجوك لا تتركني وحدي».

لقد عرف الحياة في عدة مدن باردة، وألف العيش دون درجة الصفر، ولكن البرد في فيينا فريد نافذ كأنه طلقات الرصاص، يستقر في الظهر والقدمين. وها هي تدعوه إلى الدفء. أخيرا أصبح بمقدوره أن يروي ظمأه الأبدي ويحقق الغرض من المجيء إلى فيينا. ألم يأت إلى هذه المدينة بحثا عن النساء؟ ها هي إحداهن تدعوه، وهي شهية ودودة راغبة. أقدم إذن. وتقدم خطوتين من فراشها يريد أن يهم بالأنثى المتاحة عندما سمعها تغمغم: «ناهد ستعود قبل عيد الميلاد». وطفت من أعماقه فكرة أو همسة، وقيل له: «انتصر للفرح». أنتصر للفرح؟ وظل متجمدًا في مكانه للحظة طالت أسيرًا لتلك الفكرة الهامة. وما هو الفرح؟ وعندما تحرك أخيرًا مد يده وأحكم لف الغطاء حول سلمى وهو يتمتم: «نامي يا بنت الكلب. جوتن ناخت». وارتدى معطفه وانصرف. فكيف كان برهانك؟

******

يستطيع الآن بعد اجتياز العاصفة أن ينعم بالأمان والطمأنينة. إلا أن ساقيه وقدميه متجمدة رغم دفء الشقة. فنهض ليأتي بقربة

الماء الساخن. لن يذوب الجليد الذي تغلغل في أطرافه إلا بوضع القربة بين قدميه مباشرة. وعندما شعر بالدفء يسري فيهما ببطء، استرخى وتثاءب وأغلق عينيه ولعله أغفى. ولعله كان يكتب، فهو يمارس التأليف أحيانا وهو نائم أو سكران. لنجرب النظر من زاوية أخرى. تخيل أنك سفينة فضائية ولك منظار عدساته مسددة نحو هذا الكوكب الذي يدعى الأرض، فماذا ترى؟ أرى أن الأحرى أن ننظر في أمر هذه السفينة. أشعر في كثير من الأحيان أن سالم سدد إليّ ضربة قاسية عندما نفاني، وأن معاناة الحياة مع سنية لما يقرب من ربع قرن كانت أقسى. ومع ذلك، فما زال للقصة بقية. بدأت الرحلة الطويلة عندما تعلقت بسلوى لأنها «بندراوية»، وانتقلت إلى البندر وعشت في كثير من حواضر الدنيا، وها أنا ذا أنتهي إلى فيينا بندر البنادر. ومع ذلك فإني حملت وما زلت أحمل معي صورة الجمل الذي يدير تروس السرجة. أنا فلاح في أعماقي. لي جلد الفلاح، وصبر الأرض التي يفلحها على العطش وانتظارها موسم البذار، ولي صمود السنط والجميز والصبار والغربان في مواسم الجفاف. ها هو رجل ريفي عائد من سوق الأربعاء يغالب النعاس على ظهر حماره. وفجأة يأتيه صوت من بعيد، لعله آتٍ من أعماق الترعة. فيفتح عينيه، الصوت يشده ويفتنه، وها هي النداهة تدعوه من أعماق الماء. يا ويله إذا استجاب لها. الرجل المغفل هو الذي يستسلم لروعة الصوت، فالجنية تغويه لتتزوجه وتقوده إلى العالم السفلي. أما الرجل العاقل، فهو الذي يسد عن الصوت أذنيه ولا يتوقف لأن هناك امرأة أخرى تنتظره هي رفيقة حياته وأم عياله. ألا يذكرك هذا بقصة أوديسيوس وهو في طريق عودته إلى وطنه بعد أن توقفت تروس الحرب عن الدوران؟ عندما اقترب من السيرانات، أمر رجاله بأن يسدوا آذانهم بالشمع عن غناء عرائس

البحر المغويات وأن يشدوا وثاقه إلى صاري السفينة لكيلا يفتنهم الغناء فيودوا بأنفسهم إلى التهلكة. وبذلك نجا أوديسيوس، وكانت هناك زوجة وفية ما تزال تنتظره منذ سنين؛ هي وطنه. وهناك موقع في الريف لا تفارقني صورته أينما ذهبت، هو «الصيرة». لا بد أن فكرة الاستضافة في مكان قائم بذاته جاءت من البادية، من حيث جاء القواسمة الأول. رأيت ما يشبهها في الأردن على تخوم إحدى المدن – لعلها عمان أو جرش- فللمسافر أن يترجل في أي وقت ليُستقبل بترحاب في خيمة تطل على الطريق ويُدعى إلى القهوة العربية: البكارج على النار دائما. أما صيرة القواسمة، فكان فيها طعام للسائل والمسكين وابن السبيل والزوار والشعراء الجوالين. وكانت بكارج الشاي والقهوة فوّارة لا تنام. ومن قصص الأوديسا التي روتها ماريكا أنه كانت لأوديسيوس مضيفة مماثلة استقر فيها الخطّاب الطامعون في زوجته أثناء غيابه. ظلوا فيها لسنوات لا يتزحزحون يأكلون خيراته ويلتهمون لحم قطعانه فلا ترفع عنهم صواني الطعام إلا لتحمل إليهم أخرى، ويحاولون الاستيلاء على الزوجة الوفية. فلما عاد أوديسيوس أعمل التقتيل في الطفيليين وقضى عليهم جميعا. وألم يسطُ باريس على هيلانة زوجة مضيفه، فدارت طاحون الحرب عشر سنين؟ وأنا رجل وفيّ. هذا كذب. خنت سلوى، وحاولت خيانة سنية ولم تستطع. لكنني وفيت هذه المرة. نادتني سلمى لتستدرجني إلى مغارتها وكنت ظمآن إلى جسدها، ومع ذلك، فقد ارتديت معطفي وانصرفت وفي قلبي غصة. كانت متاحة وكان الجو في الخارج عاصفا. ولكن انظر كيف تمنيت لها نومًا هنيئًا وخرجت وفي قلبي غصة. فكيف كان برهانك؟ لم يكن ساطعًا ولا قاطعا، ولكنه فكرة طفت أو همسة، وكان كافيا على علاته. سلمى شهية لذيذة جذابة وفيها طفولة ونضرة وعذوبة وبها حاجة إلى الحنان،

وكانت نفسي - وما زالت - تهفو إليها. ولكني أكون انتهازيا وضيعا لو أنني قفزت إلى فراشها ما إن أدارت ناهد ظهرها. وما العيب في ذلك؟ لعلها تتمنى لكما السعادة عندما تعود. هذا شأنها، أما شأني فهو أنني أحبها. أجل أحب ناهد. عندما تجردت من بشكيرها في الساونا خلبت لبي (كأنها ومضة البرق من خلال السحب)، وإن لم تخل حركتها تلك من حب الاستعراض. ولكن ناهد لم «تظهر» لي حقا إلا عندما وجدتني ملقى على قارعة الطريق. فقالت: «اتبعنا». دعوة خلت من الغرض فيما يبدو. هل خلت من الغرض حقا، من الرغبة في لفت الانتباه إلى نفسها؟ ذلك ما قد تقوله سلمى. لاحظ أن سلمى تغار من أختها. فأيهما نصدق؟ لا هذه ولا تلك.. أصدق نفسي. ناهد رأت فيما يشبه الظلام رجلًا في يده عنوان يريد الاهتداء إليه، فقالت: «اتبعنا». ولما علمت أنه من بلد بعينه، دعته إلى المشاركة في طعامهم حبا في ذلك البلد - فيما يبدو. قالت: «انضم إلينا». من المستبعد أن يكون هنالك غرض. ولكن ما يبدو يكفيني على أي حال؛ لأن ما فعلته ناهد أيا ما كانت النوايا والدوافع أزال عن الغريب شر يأسه. لا أستطيع أن أنكر ذلك الجميل مهما قالت سلمى. أنا لا أعلم ما في الصدور؛ تكفيني تلك الرعاية التي خصتني بها. وانظر كيف طلبت مني ألا أظهر أننا التقينا من قبل. لماذا فعلت ذلك؟ لا أعرف السبب. ولكن ما فعلت كان كافيًا لإنشاء نوع من التواطؤ الجميل بيننا وهذا يكفيني. أنا أحبها إذن. ومنذ تلك الليلة صرت أراها أينما توجهت في المدينة، تصاحبني صورتها صباح مساء. سأنتصر هذه المرة للفرح. عندما افترقنا لم يكن بيننا إلا قولها: «إلى اللقاء». عبارة يقولها الناس عادة من قبيل الأدب والمجاملة. لم نتعاهد على أي شيء ، فلم يكن ثمة مجال لذلك. قالتها واختفت. كيف تدعي أنكما لم تتعاهدا على شيء؟ أليس ثمة

عهد بين الضيف والمضيف؟ عهد ينعقد ما إن يقبل الضيف الدعوة. وإلا لماذا ذبح أوديسيوس ضيوفه الثقلاء؟ ولماذا دارت رحى الحرب الضروس في طروادة؟ ولكن ما جدوى الحفاظ على العهد إذا كنت أعلم علم اليقين أنني لن أفوز منها بشيء؟ بعيدة المنال، وليس فيّ ما يغريها بي. وسأعود إلى مصر خاوي اليدين منها ومن أختها. وستصدق النبوءة التي قالت إنني سأخرج من الماء بلا صيد. العهد الذي انعقد بينكما يعني أنها ستعود لتجدك كما تركتك - ضيفها. وإلا ستكون قد أفسدت لحظة المودة الفريدة التي أضاءت في ليلة اليأس تلك. اعترف بأنها أقالت عثرتك ورفعتك من الوهدة التي كنت فيها. اعترف بأنك وأنت ملقى بك على قارعة الطريق كنت على حافة اليأس من الحياة والكفر بها. كان هناك ظلام دامس وموت. ثم جاءت وقالت: «اتبعنا». ذلك هو الفرح. وذلك هو برهانك. لقد عشت صدفة وانتقلت إلى المدينة صدفة وتعلمت صدفة وأحببت القراءة صدفة، وأفلت من سجن سنية صدفة والتقيت بناهد صدفة. وهي صدفة سعيدة، فحافظ على تلك اللحظة وصنها واجعلها نصب عينيك واحتفل بها ولا تطمع فيما عداها. هل نسيت أنك عندما كان الحبل ملتفا حول عنقك عاهدت نفسك على أنه إذا حدثت معجزة وانفك الحبل عنك فلن تسمح للحزن بدخول حياتك؟ ها هو الحبل قد انفصم وأصبحت طليقا. انتصر إذن للفرح. لك نور الشمس والهواء والبلاد طولا وعرضا وحريتك فاحتفل. وانصرفت عن سلمى، وكانت وما زالت في قلبي غصة. ولكني عندما أشرفت على نهاية الرحلة من مغارة النداهة إلى مسكني خيل إليّ أن ندف الثلج المنهمرة أشبه بالألعاب النارية في ليل المهرجان. ستعود ناهد قبل عيد الميلاد. بعد خمسة أسابيع من الآن، وسأنتظرها مهما حدث، وستجدني كما كنت قبل أن تذهب، فأنا لست سوى

الرجل الذي استضافته. وسأعود إلى مصر دون أن أنال منها أكثر مما أعطت، وما أعطته ليس بقليل. ألن تشعر بالحرمان منها في مصر؟ سأشعر. وهل ستشفى هناك من غصتك؟ ألن ينتابك الندم لأنك ضحيت بسلمى؟ وكيف تريدني أن أشفى بسهولة؟ سلمى كان من الممكن أن تكون هي المرأة التي أبحث عنها. ألم تقل إنها امرأة لرجل واحد؟ إلا أن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا. تلقيت هدية ناهد، وقضي الأمر. ولن أعود إلى مصر خاوي اليدين. ولماذا أنسى الموسيقى؟ لعل شيئا منها قد تسرب إلى أصابعي. وهناك اللحن الذي ينبغي العمل على بزوغه. اللحن هو جائزتك. ولقد كنت أعتقد أنني نضبت، ولكني أرى الآن في نهاية الرحلة أن لديّ مشروعين لروايتين سأغير فيهما زاوية النظر. في الرواية الأولى سأنصف سالم من ماريكا لأنها فرضت عليه طفلا غريبا أفسد عليه كل شيء، فلولا ظهور ذلك الطفل لنعم سالم طيلة حياته بحب زوجته. يروعني انهيار الرجل الجميل. وسأنصف ماريكا من سالم لأنه لم يحترم حاجتها إلى طفل. وهل يمكنني أن أتنكر لأمومتها الغامرة؟ فكيف يقام الميزان إذن؟ الميزان قائم. هذا هو التوازن الذي يقيمه الروائي بين طرفين لكل منهما وجهة نظر وحق. وأمر هذه الرواية سهل. وفي الرواية الثانية عليّ أن أتجرد من ذاتي لكي أنصف سنية من مدحت. مسكينة سنية وقد يلتمس لها العذر. تزوجت رجلًا لا سبيل إلى النفاذ إليه، رجلا قرر منذ طفولته المبكرة أن يهيم في فضاء ممتد بلا نهاية، وفاته أن هذا التوهان يعني انعزاله عن البشر المصنوعين من لحم ودم. لم تتمكن المسكينة من الوصول إليه. ولعلها كانت ستستجيب له وتحبه لو أنه كان رجلا راسخ القدم على أرض الدنيا، لو أنه أمنها من خوف. وهذا هو الغفران. وليس ذلك بالأمر السهل. المشكلة في هذه الحالة أنك عندما تكره

إنسانًا على هذا النحو تفقد ثقتك في العالم أجمع، تكره كل شيء. يبدو أن هذه المشكلة ليس لها حل. أنت مخطئ. قد تكون هدية ناهد هي بداية الحل، قد تطهر قلبك من الكراهية. أتكون هي النور في نهاية النفق؟ عليك أن تخوض هذه المعركة على الورق. الأمل الوحيد هو أن تصبح الرواية أثناء الكتابة دليلك، أن توجهك في هذه المتاهة المعضلة، ولعلها تملي ضرورة الغفران. قل إن الرحلة إلى فيينا قد حققت الغرض منها. قل إن الروايتين أصبحتا في حيز الإمكان. قل إنهما صارتا «في جيبك». عزيزتي ماريكا. لك أن تطمئني. سأعود سالمًا بلا زوجة ولا عشيقة. ولكن ينبغي أن أنذرك. سأشتري بيانو، وعليك أن تتحملي ما أثير من ضوضاء. لك حبي وقبلاتي. المخلص دائمًا مدحت. سنطوي هذه الصفحة. جوت شلافن. نامي يا بنت الكلب. نم يا بن الكلب.

ورن جرس التليفون، فجاء صوت سلمى: «ما كل هذا النوم؟ الساعة تقترب من منتصف النهار». فقال: «صباح الخير يا جميل. أرجو أن تكوني قد نمت نوما هنيئا». قالت: «لا يمكنك أن تصدق. استيقظت في الثامنة ولم يكن هناك أثر للخُمار. نمت نوما عميقا أشعر بعده كأنما ولدت من جديد. كل ذلك بفضلك. وأشكرك على حسن رعايتك لي». وسألته: «وأنت كيف حالك اليوم؟ وبالمناسبة لماذا لم أجدك بجانبي عندما استيقظت؟ لماذا تركت الفراش في ساعة مبكرة؟». لم يكن قد أفاق تماما حتى نطقت بتلك العبارة. قال: «ولكنني لم أقض الليل بجانبك. انصرفت بعد إعداد القهوة». فضحكت: «لا داعي للخجل أو التواضع، فلقد أبدعت. أنت رجل رائع». قال في انزعاج: «أبدعت؟ ماذا تعنين؟ أنت يا عزيزتي تمزحين. أليس كذلك؟». قالت: «أنت تفهم ما أعني. صحيح أنني كنت سكرانة، ولكني

كنت على وعي بكل ما حدث. كانت ليلة نادرة من ليالي الحب، وزاد تقديري لك. أصبحت مغرمة بك. وها أنا ذا أتطلع إلى لقائنا القادم. متى سأراك؟ وبالمناسبة ناهد ستعود قريبا قبل أعياد الميلاد...»، وتعالت ضحكاتها وهي تقول: «لا بد أن تفهم الساحرة أنك أصبحت لي. فمتى سنلتقي؟ أنا الآن مشتاقة إليك، أريدك. ولا أستطيع الانتظار». قال متوسلا: «سلمى أرجوك.. أنت عزيزة على نفسي.. أنت بمثابة أختي الصغرى. قولي إنك ...». ثم توقف وأعاد سماعة التليفون إلى موضعها. لم يعد يفهم شيئا، ولكنه يدرك الآن أنه لن ينجو من هذا المأزق. لا جدوى من مواصلة الحديث. ماذا يفعل؟ انتهى كل شيء. تحول كل شيء إلى هباء. لم يعد هناك جدوى لانتظار ناهد، لا بد من الهروب. ونهض من الفراش وهو يرتجف، وهرع إلى المطبخ فشرب، ولكن الماء المثلج لم يطفئ النار التي اشتعلت. وانهار على حافة السرير وهو ممسك برأسه خشية أن تنفجر.. عزيزتي ماريكا. كنت أود لو أنني عدت سالما.

صدر للمؤلف

ترجمات:

- برتراند رسل، فلسفتي كيف تطورت (الطبعة الثانية منقحة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2012).

- (مع آخرين) الموسوعة الفلسفية المختصرة (مشروع الألف كتاب، القاهرة، 1962).

- طه حسين، من الشاطئ الآخر، كتابات طه حسين الفرنسية، (الطبعة الرابعة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008).

تحقيق وتقديم:

- طه حسين، الكتابات الأولى (دار الشروق، القاهرة، 2002).

مؤلفات:

- Taha Husain's Education from the Azhar to the Sorbonne (Richmond, U.K. 1995).

- طه حسين من الأزهر إلى السوربون (وهو ترجمة للكتاب السابق)، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003).

- اللورد شعبان، (مجموعة قصصية)، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004).

- طه حسين بين السياج والمرايا، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2005).

- حبا في أكلة لحوم البشر (ديوان شعر)، (مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2006).

- ركن العشاق، (مجموعة قصصية)، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2007).

- أدباء ومفكرون، (مجموعة مقالات)، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2008).

- زائرة الأحد، (مجموعة قصصية)، (كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، القاهرة، 2009).

- عندما تبكي الخيول، (رواية)، (روايات الهلال، دار الهلال، القاهرة، 2009).

- محاكمة اليهودي المارق ومقالات أخرى، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009).

- غربة الملك الضليل ومقالات أخرى، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2012).